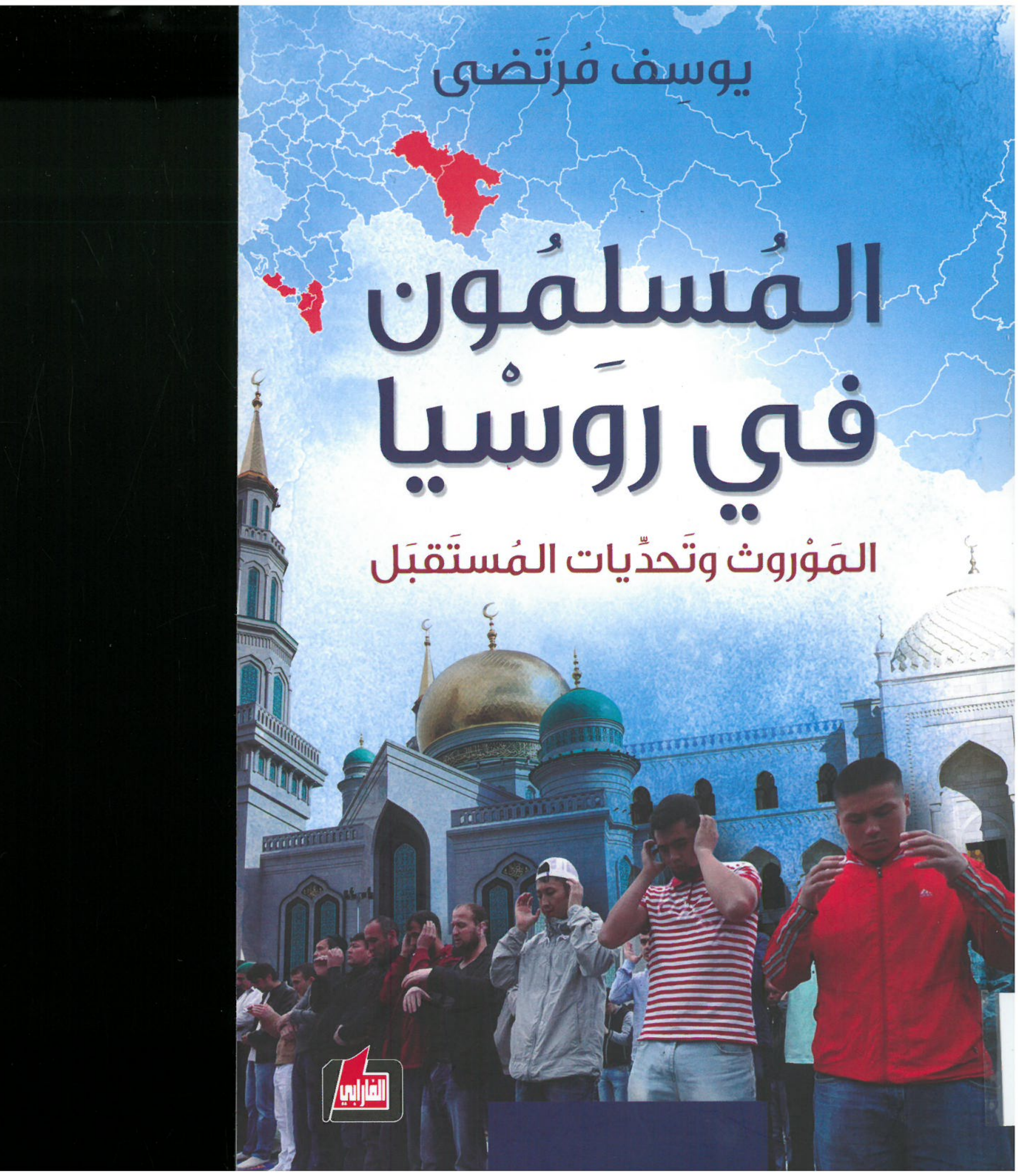


يوسِف مُرتَضى
المُسلمُون في روَسْيا
المَوْروث وتَحدِّيات المُستَقبَل
الفارابي

يوسف مرتضى

المسلمون في روسيا

الموروث وتحديات المستقبل



دار الفارابي

الكتاب: المسلمون في روسيا

المؤلف: يوسف مرتضى

الغلاف: محمد صبرا

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيلول ٢٠١٧

ISBN:978-614-432-812-5

المحتويات

إهداء أول

إلى أرواح شهداء جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي؛

إلى أرواح شهداء الحزب الشيوعي اللبناني؛

إلى روح الرفيق والصديق القائد الشهيد جورج حاوي؛

إلى الحزب الشيوعي اللبناني الذي أعطاني فرصة التعرّف إلى روسيا والمجتمع الروسي، ما ساعدني على الاغتناء بالمعارف الكافية لإصدار هذا الكتاب.

إهداء ثانٍ

إلى حفيدتي ميلا

مع كل الحب.

تقديم

يهدف هذا الكتاب بقلم السيد يوسف مرتضى إلى تعريف القارئ إلى تاريخ المسلمين الروس ودورهم في المرحلة المعاصرة من تطور بلادنا ومحاولة النظر إلى المستقبل.

لهذا الموضوع أهمية خاصة، لأننا نعيش عهد التغيرات الجذرية في نظام العلاقات الدولية، وخصوصاً التقلبات في منطقة الشرق الأوسط، وانتشار الإرهاب التكفيري العابر لحدود الدول الوطنية. ولكي نواجه هذه التحديات بصورة فاعلة لا بد من اللجوء إلى خبرة التاريخ. كما أنه من الضروري ممارسة النهج المتكامل الذي يشمل المجالات السياسية والأمنية والإنسانية والثقافية والحضارية، وذلك لتوفير العيش المشترك والتفاهم والوفاق بين مكونات المجتمع كافة في العالمين الإسلامي والعربي.

وفي هذا الصدد، فإنه من المفيد إتمام التعرف إلى تطور الأوضاع في الدولة الروسية المتعددة الجنسيات والطوائف، التي مرت خلال القرون الماضية بمراحل مختلفة في سبيل تثبيت مبادئ التعايش والاحترام بين الأديان التي توحد بلادنا وتضمن تقدمها.

لقد استطاعت روسيا إفشال محاولات من الخارج لزرع الفتن، وتتميّز الأوضاع فيها اليوم بتلاحم الناس وبذلك التأييد الشعبي لاستراتيجية الدولة المبنية على القيم التقليدية الأخلاقية وسيطرة القانون ومبادئ العدالة.

سفير جمهورية روسيا الاتحادية في لبنان

ألكسندر سيرغيفيتش زاسيبكين

بيروت في ٢٦/ ٥/ ٢٠١٧

مقدمة

لماذا هذا الكتاب؟
ولماذا في هذا التوقيت بالذات؟

مع إطلالة العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، بدأت مفاعيل تراكمات العقود السابقة من استبداد الأنظمة العربية لشعوبها تظهر على شكل احتجاجات صاخبة، إلى أن كان الانفجار الكبير الذي أشعل فتيله الشاب التونسي الشهيد «محمد البوعزيزي»، شهيد الحرية والكرامة ولقمة العيش.

دوي الانفجار التونسي سرعان ما أصابت ارتداداته على التوالي مخزونات الغضب المحتقنة في مصر وليبيا واليمن وسوريا وميادينها... وتدحرجت على أثر ذلك كرة ما أطلق عليه «الربيع العربي».

في قلب المخاض، تنافست وتصادمت خيارات قيادة التغيير في العالم العربي الذي أصبح واقعاً ملموساً، وانحصرت الخيارات بشكل عام بين مشروعين: مشروع الدولة الدينية ومشروع الدولة المدنية.

ولأن مكونات المشروع الأول كانت حاضرة بأشكال مختلفة في كنف النظام السابق، وفي الوعي والثقافة المتراكمين لدى شرائح واسعة من المجتمع العربي والإسلامي، ولأن دعاة المشروع الثاني هم من مثّلوا الحالة العفوية وغير المنظمة في الانتفاضات العربية، والتي غاب أو غيّب ممثلوه عن المسرح السياسي في العقود الغابرة بسبب تضييق الأنظمة عليهم وقمعها لهم، ولأن القوى الخارجية صاحبة المصلحة في إبقاء سطوتها على المنطقة العربية وعلى ثرواتها وأسواقها قد توجّست شراً من احتمال قيام دولة مدنية ديمقراطية حقة، فيها للشعب كلمة القطع والوصل، ما يعزز فكرة تحرير الحقوق من سطوتها وهي التي ادّعت زوراً حرصها على (الدمقرطة)، فتدخلوا لتعطيل بلورة قيادة ديمقراطية مدنية للتحول الجاري على أوسع نطاق، الأمر الذي أدى إلى اندفاع المشروع الديني بقواه الذاتية المتأصلة منذ عقود، وبدعم وتغطية قوى خارجية صاحبة مصلحة في إحكام القبضة على الربيع وجعله يتفتح بألوانه المذهبية المختلفة والمتصادمة في آن، ما أدى إلى إشعال الحرائق في أكثر من ناحية من الوطن العربي، ودفع عملية التحول المدني الديمقراطي إلى فوضى مسلحة راحت تهدد الربيع باليبوسة والتصحر.

إذاً، عوامل داخلية وخارجية عدة تضافرت لتدفع عملية التحول الديمقراطي بغير اتجاهها الصحيح، وبعيداً عن أهدافها في بناء دولة مدنية ديمقراطية تعددية. وفي المقابل برزت، بقوة، ظاهرة الدولة

الدينية بمسميات مختلفة، كان أبرزها، الدولة الإسلامية في العراق والشام «داعش».

ومما لا شك فيه أن العمليات العسكرية التي اتخذت طابعاً إرهابياً، والتي نفذتها منظمات (إسلاموية) متطرفة كوسيلة لتحقيق مشروع الدولة الدينية، قد شوهت صورة الربيع العربي من جهة، وشكلت غطاء لبقايا النظام العربي الاستبدادي من جهة أخرى.

إن شكوكاً كثيرة قد حامت حول أسباب ولادة المنظمات الإسلاموية المتطرفة ووظائفها الحقيقية في عملية التحول الجيوسياسي في منطقة الشرق الأوسط، وتالياً في العالم، ربطاً بتوسع عمليات تلك المنظمات في الميادين العربية والشرق أوسطية، سوريا والعراق ومصر واليمن وليبيا والسعودية وتركيا وصولاً إلى أوروبا وبلدان ما وراء البحار!!

إن تطور العمليات الإرهابية وتوسعها، وظاهرة «داعش» و«النصرة» وغيرهما من فروع تنظيم القاعدة، قد أعادت إلى الأذهان كارثة الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ والحملة العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة الأميركية لاجتياح أفغانستان ومن ثم العراق تحت راية محاربة الإرهاب، واستدعت تشكيل حلف دولي للتصدي له. وهكذا تحولت الميادين العربية إلى قواعد للأحلاف العسكرية الغربية والشرقية، وإلى ساحات صراع بين قوى إقليمية ودولية منضوية في تلك الأحلاف. ونتيجة لذلك تحول المواطن العربي، ويالأسف،

إلى ذخيرة وضحية في آن في حروب وكلاء القوى الدولية والإقليمية في ميادينه.

ويبدو من سياق تطور الأحداث واختلاط المصالح فيها، أنه لا أفق واضحاً لتسويات سياسية تضع حداً لتلك الحروب والنزاعات، وبالتأكيد أنه لن يكون للوكلاء العرب دور في صنع تلك الحلول والتسويات عندما ينضج أوانها.

وإذا كانت الجغرافيا السورية والعراقية والليبية واليمنية وغيرها تمثّل ميادين للمجابهة بين الأحلاف والوكلاء، غير أن أحد أطراف المواجهة المتمثّل بالمنظمات الإسلامية المتطرفة، التي لا حدود جغرافية لها، قد تجعل هذه المجابهة تأخذ أشكالاً مختلفة أبعد من مجابهة المحاور والجبهات، وقد لا يبقى للطيران دور فيها، وبالتالي هي مواجهة قد يكون من المستحيل حسمها عسكرياً. وباعتقادي، إن إنهاء مثل هذه المجابهة يفترض، بالضرورة، إعادة النظر بالبنى الثقافية في الشرق والغرب على السواء، كما يفترض الإقرار بالمصالح بين أفرقاء الصراع بغض النظر عن تباين حجم القوى والقدرات العسكرية والاقتصادية لكل منهم.

إن الصعود الحالي للحركة الإسلامية بتلاوينها المختلفة يعزى، حسب العديد من الدراسات، إلى البحث عن انعطاف تاريخي في بلدان العالم الثالث عموماً وفي البلدان العربية والإسلامية على الخصوص، والعمل على تبني توجهات ومثل جديدة، تَحدد نهجها ومكانها، في

التغيرات النوعية التي نشأت بعد انهيار الكتلة الشرقية وزوال الاتحاد السوفياتي الذي كان إحدى القوتين العظميين في العالم.

ومع اختفاء أحد مكوّنَي استقرار النظام العالمي المتوازن، باتت كل أنظمة العلاقات الدولية بحاجة إلى تغيرات جذرية. من هذه الخلفية اندفعت بعض البلدان العربية والإسلامية إلى إعادة النظر في التصورات الأساسية المعهودة، وقررت التخلي عن الأفكار النمطية القديمة، ومباشرة البحث عن النموذج الخاص بها للمضي قدماً.

ومما لا شك فيه أن التقصير في تحقيق التنمية المستقلة في معظم تلك البلدان بعد الحصول على الاستقلال السياسي وسيادة الدولة، والميل إلى بناء السلطة وأجهزة حمايتها على حساب بناء الدولة، قد أدّيا إلى تنامي الجناح المتطرف في المكون السياسي الداخلي، وتحديداً الإسلامي، في معظم البلدان العربية والإسلامية، وتوسعت صفوف المتشددين الإسلاميين والعرب بينهم بشكل ملحوظ في ثمانينيات القرن الماضي في مدرسة الحرب الأفغانية ضد الجيش السوفياتي، وباتت هذه المجموعات الإسلامية بعد التجربة الأفغانية تتمتع بقدرة قتالية عالية، لا سيما في العمليات الفدائية، فضلاً عن استعدادها للتفاني في خدمة قضية الإسلام وفق فهمها له.

وتشير بعض التقديرات إلى أن عدد العرب « الأفغان» قد وصل إلى ٢٠ ألف شخص في حقبة الثمانينيات. وبعد الانسحاب السوفياتي من أفغانستان عاد كثير منهم إلى بلدانهم الأصلية، حيث عانوا آثار الفقر

السابق والظلم والبطالة، وشكّلوا بذلك عصب الحركات الإسلامية التي برزت كقوة قيادية فيها عندما تقطعت أوصال الأنظمة في لحظة انفجار « الربيع العربي».

لقد تمّ تجهيز المجموعات في أفغانستان كما هو معروف، للوقوف في وجه السوفيات، بتمويل من المخابرات المركزية الأميركية، حيث تم صرف مبالغ ضخمة لتحقيق هذا الهدف راوح حجمها حسب بعض التقديرات ما بين ٣,٥ إلى ٦ مليارات دولار أميركي. وتحول « العرب الأفغان» لاحقاً، من مناضلين من أجل حرية الشعب الأفغاني ضد الكفار «السوفيات»، إلى ألد وأشرس أعداء الغرب وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأميركية.

وبذلك ارتد كيد «الإسلاموية» التي ابتدعها الأميركيون ضد السوفيات إلى نحر معدّيه، فانطبق على الأميركيين المثل القائل «طابخ السمُّ آكله».

وهكذا انتشرت وتوسعت أنشطة تنظيم القاعدة من أفغانستان إلى العراق إلى بلاد المغرب الإسلامي، الجزائر وليبيا، إلى شبه الجزيرة العربية، وصولاً إلى سوريا والعراق حيث أُطلقت الدولة الإسلامية وراحت تصدّر العمليات الإرهابية في أربع زوايا الأرض.

لقد ظهرت «الإسلاموية» في الشرق الأوسط وكأنها تمثل في لحظة معينة «طبعة جديدة» للقومية العربية في إطار الرد على فشل

الوحدة العربية ومحاولات تجسيدها من قبل الأنظمة العلمانية والقومية، إضافة إلى أفكار الاشتراكية العربية.

لقد سبق وأشار إلى ذلك بحق، وقبل انفجار الشارع العربي بسنوات، أحمد حسن بن علوي مؤسس معهد البحوث الحديثة في شمال إفريقيا والشرق الأوسط ووسط آسيا في جامعة «برينستون» في الولايات المتحدة الأميركية، حيث لفت في مقال له في جريدة لوموند ديبلوماتيك في فبراير/ شباط ٢٠٠٧، إلى «أن الحركات القومية، واليسارية العلمانية القومية، ضلت الطريق أمام التيارات الإسلامية التي اصطدمت بمعارضة الهيمنة الغربية في المؤسسة الأيديولوجية للمحافظين».

وبينما كان المحرك الرئيس للأفكار القومية والوطنية في حقبتَيْ الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي موجهاً للبحث عن طرق التحديث والتقدم، فإن الإسلاميين يتبنون برامج رجعية تدعو لجرّ المجتمع إلى الماضي من خلال الدعوة للعودة إلى أصول وقواعد وممارسات الإسلام الأول في القرون الوسطى، وراحوا يصفون مُثل الديمقراطية وحقوق الإنسان والمواطنة والأخلاق وغيرها من القيم الإنسانية المثبتة بتجربة البشرية على مدى عصور من تعاقب الأجيال، بالأعمال الشيطانية، وأنها من ابتداع الغرب، ويجب أن يتطهّر منها المؤمنون.

وقد عبر الشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش عن جانب من

هذه المسألة في مقابلة له مع صحيفة لوموند الفرنسية حيث قال: «يشعر العالم العربي بقوة شعوراً عميقاً بالظلم ويحمّل الغرب مسؤوليته... لقد فقد العرب والمسلمون الذين يصطدمون بالاستبداد الأميركي العالمي، واستبداد الطغاة المحليين التوجه الصحيح... يشعرون أنهم يُدفعون إلى خارج التاريخ، وتغيب لديهم أولوية القانون، لأن القانون الدولي لا ينطبق على منطقهم. لقد انتهكته إسرائيل بالفعل منذ زمن طويل ولا شيء يحدث». في ظل هذه الظروف وفقاً للشاعر درويش: «إذا أقيمت في العالم العربي الإسلامي، انتخابات حرة فإن الإسلاميين سينتصرون في كل مكان...».

من هنا القول إنه لا يمكن حصر الطفرة الإسلاموية المعاصرة فيما تمثّله بعض المجموعات الإسلامية المتطرفة فقط، والتي تسيء بممارساتها إلى الإسلام وإلى قضايا العرب والمسلمين في صراعهم مع «إسرائيل» ومع القوى الغربية التي تدعمها، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأميركية، إنما قد تجد مرتكزها الإيديولوجي في فكر ابن تيمية، وسيد قطب وغيرهما. ومن النتائج المروعة للطفرة الإسلاموية المعاصرة، هي إعادة إنعاش الإيديولوجيات العنصرية والفاشية في العديد من البلدان الغربية، الأمر الذي يعيد إلى الأذهان مثال صموئيل هنتنغتون في كتابه «صراع الحضارات» الذي ضمّنه اعتقاده، بأن مصير الوضع في العالم بعد انتهاء الحرب الباردة لن ينحصر في المواجهة السابقة للقوى العظمى، لا بل في تصادم الحضارات المختلفة ومساهمتها فيه أيضاً.

إن إعادة التذكير بكتاب هنتنغتون عن صراع الحضارات في سياق الحديث عن تعريف «الإرهـاب» والطفرة الإسلاموية، هي لتسليط الضوء على الاعتقاد السائد من أن هذه المقاربة لأحد الفلاسفة الأميركيين القريب من دوائر الإنتاج الفكري والسياسي في صوغ الإستراتيجيات الأميركية، لم تكن مقاربة عفوية، بل هي استجابة للرؤية الأميركية لمستقبل العالم بعد الحرب الباردة، وبعد انفراط عقد المنظومة الاشتراكية والاتحاد السوفياتي، والتي ترى أن الفروق الاقتصادية والاجتماعية والطبقية ليست هي ما يسبب الانقسام في العالم وفي مختلف المجتمعات، بل إن ما يفاقم الانقسام الصراع بين المكونات العالمية والمجتمعية، هو صراع الهويات والثقافات.

فهل أراد هنتنغتون من ذلك وضع الأسس النظرية لتصادم الحضارات كما رسمها لتستجيب في سيرورتها لما تتوخاه الولايات المتحدة الأميركية في أن تصبح هي سيدة العالم بدون منازع بعد تفكيك الدول المتعددة الثقافات وتطويعها لإرادة القطب الأوحد (أميركا)؟

وهل حرب تحرير أفغانستان من الجيش السوفياتي، وانهيار الاتحاد السوفياتي بعد ذلك، وتفكيك الاتحاد اليوغوسلافي وحروب الشيشان كانت بداية الاستجابة لهذه العقيدة (Doctrine) الأميركية الجديدة؟

لقد جاءت أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١،

وردود الفعل عليها، بالحرب على أفغانستان والعراق، تسعيراً لفكرة تصادم الحضارات كما رأها هنتنغتون، حيث اعتبر الرئيس الأميركي بوش الابن أن حربه على أفغانستان هي حرب «صليبية»؟!!

القول نفسه عاد وكرّره ويا للأسف البطريرك الروسي (كيريل) في مناسبة مباركته للطائرات الحربية الروسية المتجهة إلى ضرب المجموعات الإسلامية (المتطرفة) حسب تعبيره في سوريا، حيث قال «إن حربنا في سوريا هي حرب مقدسة».

لقد رأى هنتنغتون في كتابه «صراع الحضارات»... أنّ هناك تواريخ عديدة للبشرية، لكل منها محركه الخاص به. فهناك التاريخ القديم وقد تحرك بقوة رغبات الملوك والأمراء وحسدهم، وتاريخ آخر تحرك بقوة صراع الأمم، وتاريخ ثالث كان محركه صراع الإيديولوجيات، وقد انتهى مع الحرب الباردة. أما التاريخ الذي تخطه البشرية اليوم فإنه يتحرك بقوة صدام الحضارات، كالصدام القائم اليوم بين الإسلام من جهة والحضارة الغربية المستندة إلى الديمقراطية الليبرالية من جهة أخرى». (فؤاد النمري الحوار المتمدن، ٠٣ حزيران ٢٠٠٧).

يلتقي هنتنغتون في رؤيته هذه لحركة التاريخ مع زميله فرنسيس فوكوياما صاحب كتاب «نهاية التاريخ»، حيث يقدم فوكوياما نزعة جديدة في فلسفة التاريخ، تعتبر أن الدين هو المرجعية الأساسية في نشوء الدولة، وإحدى ركائز تطورها. هذه هي الفلسفة التي يغلب عليها

طابع القراءة السياسية البراغماتية التي تؤسس لتحقيق سيادة أميركا على العالم المعاصر سياسياً وثقافياً واقتصادياً.

وإذا ما استحضرنا خريطة الأحداث التي يشهدها عالم اليوم، لوجدنا أن الجبهات بعد انهيار المنظومة الاشتراكية بدأت ترتسم وتتوسع على حدود الثقافات والحضارات بأبعادها العرقية والدينية في أكثر من بقعة في العالم، وهي آخذة بالتمدد بما في ذلك إلى داخل الولايات المتحدة الأميركية. لقد عبّرت بقوة عن هذا الميل لتطور الصراع، المفردات العنصرية التي صبغت خطابات المرشح الجمهوري للرئاسة الأميركية دونالد ترامب الذي أصبح رئيساً فعلياً للولايات المتحدة الأميركية. وكذلك خطابات مرشحة الجبهة الوطنية الفرنسية للرئاسة في فرنسا مارين لوبن اليمينية المتطرفة والتي تأهلت للمرحلة الثانية في منافسة إيمانويل ماكرون. هذه النتيجة، وإن أظهرت عمق الثقافة الديمقراطية في المجتمع الفرنسي بشكل خاص والمجتمع الأوروبي بشكل عام، إلا أنها لم تطو صفحة الخطابات العنصرية التي ميّزت حملة لوبن، حيث بات حزبها القوة المعارضة الأولى لسلطة ماكرون في السنوات المقبلة.

إذاً، للطفرة (الإسلاموية) جذورها الثقافية، كما تجد أسباب نهضتها في سياسات الغرب وإسرائيل ضد قضايا العرب والمسلمين، وكذلك في العقيدة الجديدة للاستراتيجية الأميركية للسيطرة على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة.

وعشية تفكك الدولة السوفياتية، كلنا يعلم أن روسيا قد شهدت أول دعوة انفصالية من مسلمي الشيشان في شمال القوقاز على يد الجنرال المتقاعد الراحل جوهر دودايف.

لقد ترافقت الدعوة الانفصالية الشيشانية في شمال القوقاز مع عمليات عسكرية ضد القوات المسلحة الروسية المرابطة في الشيشان، وتفجيرات في عدد من المدن الروسية.

هذه الحرب الاستنزافية التي امتدت منذ العام ١٩٩١ إلى العام ١٩٩٩ في ظل حكم ضعيف في موسكو بقيادة يلتسين، ولّدت عقدة الشعور بالضعف والعجز عند الشعب الروسي، والخوف من امتداد نيران الشيشان إلى الجمهوريات الإسلامية الأخرى التي كانت قد غزتها الحملات الدعائية الإسلامية، وإغداق الأموال على بناء المساجد في مختلف مدن تلك الجمهوريات في شمال القوقاز وفي حوض الفولغا. وبحلول خريف العام ١٩٩٩، وكان بوتين قد أصبح رئيساً للوزراء، أنضجت الحرب الشيشانية الثانية فكرة توحيد المجتمع الروسي حول عملية عسكرية لمكافحة الإرهاب في الشيشان.

وفي حين نظر معظم الشعب الروسي إلى الحرب الشيشانية الأولى على أنها حرب لا أخلاقية، غير أن الحال انقلب في الحملة العسكرية الثانية في الشيشان التي قادها الرئيس بوتين، إذ اعتبروا أن عدم مساندتها هو الأمر اللاأخلاقي.

ففي استطلاع للرأي أجري في كانون الثاني من العام ١٩٩٥،

طالب ٥٤٪ من المشتركين في الاستطلاع بسحب القوات الروسية من الشيشان (٢٧٪ كانوا يدعمون وجود القوات هناك، و١٩٪ لم يكن لهم رأي). في المقابل في تشرين الثاني وكانون الأول من العام ١٩٩٩، وافق ما بين ٦١ إلى ٧٠٪ من المشتركين باستطلاع الرأي على العملية العسكرية في الشيشان. وحتى عندما أصبحت الإصابات الفادحة معلومة لدى الجميع في تموز عام ٢٠٠٠ - آلاف من القتلى والجرحى في صفوف القوات الروسية والمدنيين- كان ٧٠٪ من الشعب الروسي يعتقدون بأنه لا ينبغي أن تكون هناك مفاوضات في الشيشان، وأن النظام يجب أن يُفرض فرضاً على الجمهورية بمساعدة الجيش. وهكذا رجع المجتمع الروسي لأول مرة منذ سنوات طويلة، أقلّه منذ مجيء غورباتشوف إلى السلطة، **إلى الفكرة المخلّصة، فكرة الوطنية العسكرية، التي أصبحت ملاذاً لكل من يشعر بالخوف والضعف في روسيا.**

من خلفية الدرس الشيشاني اندفع الرئيس بوتين وقد أصبح رئيساً لروسيا الاتحادية في العام ٢٠٠٠، لتقديم كل التسهيلات للحملة الأميركية العسكرية، ضد حكم الطالبان في أفغانستان تحت شعار محاربة «الإرهاب» إثر أحداث ١١/ ٩/ ٢٠٠١، غير أن شيئاً من الحذر والقلق انتاب القيادة الروسية بزعامة بوتين من قرار الإدارة الأميركية بإعلان الحرب على العراق بحجة احتيازه أسلحة الدمار الشامل، التي ثبت لاحقاً عدم وجودها. وتعاظم الحذر الروسي من تمادي الإدراة

الأميركية وتغطية دول الحلف الأطلسي لها في محاولة فرض هيمنتها على العالم بالقوة العسكرية وهذا ما حصل في ليبيا. لقد رأت القيادة الروسية أن ما جرى في ليبيا تريده أميركا أن يصبح درساً ونموذجاً وسابقة ضد كل نظام لا ينصاع لإرادتها.

وعندما حاولت الإدارة الأميركية إمرار قرار في مجلس الأمن الدولي في أواخر العام ٢٠١١ حول سوريا، شبيه بالقرار الذي غطى العدوان الأطلسي على ليبيا، تصدت له القيادة الروسية باستخدام حق النقض الفيتو لمرات ثلاث على التوالي ووصلت إلى ٧ مرات حتى شهر نيسان عام ٢٠١٧ كي لا يتكرر المشهد الليبي في سوريا، ويصبح سابقة قد تصيب روسيا نفسها في مرحلة لاحقة.

لقد رسم الرئيس بوتين المرتكزات الأساسية لسياسة روسيا الخارجية في ١٢ تموز عام ٢٠٠٤، أي في بداية ولايته الثانية، وبعد الاجتياح الأميركي للعراق، حيث التقى بوتين السفراء الروس الذين تم استدعاؤهم إلى موسكو من كل أنحاء العالم.

قدم بوتين في هذا الاجتماع العناصر الخمسة التي تؤلف استراتيجية السياسة الخارجية الروسية، والتي كان قد صاغها خلال ولايته الأولى. وقد جاءت على الشكل التالي:

أولاً: يجب على السياسة الخارجية أن تصبح وسيلة لتحديث البلد.

ثانياً: إن العلاقات مع الدول المستقلة حديثاً والواقعة على

أراضي الاتحاد السوفياتي السابق تمثل أولوية بالنسبة إلى السياسة الخارجية الروسية.

ثالثاً: تبقى علاقات روسيا مع أوروبا «أولوية تقليدية».

رابعاً: نوّه بوتين بالحاجة إلى الشراكة مع الولايات المتحدة الأميركية.

خامساً: البدء بالتعاون مع الدول الواقعة على الساحل الآسيوي من المحيط الهادئ من أجل تطوير سيبيريا.

ورد الرئيس بوتين على المناصرين لفكرة القوة العظمى بتأكيده أنه «ليس هناك بدائل للتعاون مع الاتحاد الأوروبي والناتو».

وبذلك أصبحت السياسة الخارجية في عهد بوتين أكثر تحديداً. لقد تخلى الكرملين عن المعضلتين اللتين كانتا تحيرانه: الغرب أو الشرق؟ الحلف الأطلسي أو الاتحاد الأوروبي؟

فكان الخيار، اعتماد سياسة «متعددة الاتجاهات»، دون التخلي عن أي من عناصر السيادة، والسعي الدائم لتطوير قدرات روسيا لتكون شريكاً فاعلاً في إدارة العالم من ضمن سياسة سماتها الأساسية الواقعية الجديدة، «وتخفيض التكاليف». غير أن ما جرى في أوكرانيا في العام ٢٠١٤، وتنامي قدرات التنظيمات الإرهابية في الميدان السوري الذي يقع على الحدود الجنوبية لروسيا الاتحادية، ومشاركة آلاف الشيشانيين في الحرب الأهلية السورية، جعل روسيا تبدل في أولوياتها في السياسة الخارجية، فقوات الحلف الأطلسي أصبحت

منتشرة على تخوم الحدود الروسية، وتطورات الميدان السوري تمثل تهديداً جيواستراتيجياً للاتحاد الروسي، مع احتمال توسع إرهاب «**الإسلام المتطرف**» إلى الداخل الروسي، حيث أن الديانة الثانية في روسيا هي الديانة الإسلامية.

هذا فضلاً عن احتمال استبدال صادرات روسيا من الغاز إلى أوروبا والتي تمثل قيمته نسبة عالية من الدخل القومي الروسي، بالغاز القطري أو الخليجي بما في ذلك الإيراني، عن طريق أنابيب تمتد من الخليج عبر سوريا إلى تركيا أو لبنان، ومنها إلى السوق الأوروبية في حال فقد الروس نفوذهم في سوريا.

من هنا كانت الاندفاعة الروسية للانخراط في الحرب في سوريا إلى جانب النظام وفي مواجهة قوى المعارضة السورية التي وصفتها قيادة الكرملين بأن معظمها ينضوي تحت قيادة منظمات إسلامية متطرفة «داعش»، و«النصرة» وغيرهما.

والسؤال الكبير الذي يُطرح في ضوء ذلك، هل سوريا ستكون بمثابة غروزني أم بمثابة أفغانستان بالنسبة إلى روسيا؟ وما هو حجم التداعيات على علاقات روسيا في المستقبل مع العالم الإسلامي السنّي؟ وما هو حجم التداعيات على الواقع الإسلامي في داخل روسيا وعلى وحدة الاتحاد الروسي نتيجة المواجهة المباشرة التي تقوم بها القوات الروسية في الميدان السوري، وما يكلّفها ذلك من

خسائر اقتصادية ومادية خصوصاً إذا ما طال أمد الحرب في ظل الحصار الاقتصادي المضروب من الغرب على روسيا بسبب الوضع في أوكرانيا؟.

وهل ثمة مخاوف على مستقبل العلاقات داخل الشعب الروسي الواحد بين المسلمين وغير المسلمين؟ خصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار تاريخ العلاقات التي كانت تتصف دائماً بالتوتر والمجابهة بين الأنظمة الروسية في الحقب المختلفة والمسلمين الروس. وهذا ما سيجري التطرق إليه في بعض فصول هذا الكتاب بهدف التذكير بطبيعة تلك العلاقات تاريخياً. فهل تأخذها القيادة الروسية بالحسبان في زمن تفجّر صراع الهويات؟

وفي خضم ظاهرة (الإسلامافوبية) التي تجتاح العالم منذ أحداث ٢٠٠١/٩/١١ والتي تعاظمت في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، كان لا بد من تسليط الضوء في هذا الكتاب على واقع المسلمين في روسيا الذين يمثّلون الجالية الكبرى في أوروبا خصوصاً والغرب عموماً، وحيث أن القيادة الروسية تتصدر مواجهة هذا الخطر «الإسلاموي» الداهم، وما قد يتركه من أثر في البنية الروسية الداخلية، خصوصاً، لما لروسيا من أهمية في صوغ السياسة والتوازن الدوليين، لذلك كان هذا الكتاب (البحث):

المسلمون في روسيا
الموروث وتحديات المستقبل

يقع هذا الكتاب في سبعة فصول، الفصل الأول فيه يركّز على ظاهرة الإسلاموفوبيا المنتشرة في العالم الغربي وعلى الواقع الديمغرافي الإسلامي في البلدان الأوروبية وفي الولايات المتحدة الأميركية وكندا، وقراءة في مستقبل هذا الانتشار وتأثيره في المجتمعات الغربية على الخصوص.

أما الفصل الثاني، فيسلّط الضوء على الجغرافيا السياسية لروسيا الاتحادية، مع لمحة مكثفة عن تاريخ هذه الدولة العظمى وعن مكوناتها العرقية والاجتماعية، وأهم الديانات فيها. والفصل الثالث، يتطرق إلى نشأة الإسلام في روسيا وجغرافية انتشاره، وواقع المسلمين في روسيا وأدوارهم خلال الحقب التاريخية المختلفة. ويركّز الفصل الرابع، على واقع المسلمين الروس في حقبة الحكم القيصري، في حين يعرض الفصل الخامس لدور المسلمين وأحوالهم، في الحقبة السوفياتية، ويستعرض الفصل السادس، واقع المسلمين في روسيا بعد تفكك الدولة السوفياتية. وقد خصَّصتُ الفصل السابع، لإطلالة مكثفة على الكيانات الإسلامية في جمهورية روسيا الاتحادية من حيث توزعها الجغرافي وبنيتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وحجم أدوارها في إطار جمهورية روسيا الاتحادية.

أما الفصل الثامن والأخير فيتناول واقع الديانات الأساسية الأخرى، غير الإسلامية في روسيا الاتحادية، تاريخاً وحاضراً، وهي المسيحية الأرثوذكسية، اليهودية، والبوذية.

يوسف مرتضى

في ٢٥/ ٥/ ٢٠١٧

الفصل الأول

ظاهرة «الإسلامافوبيا»

الإسلام في العالم، وهواجس المد الإسلامي

الديانة الإسلامية هي ثاني أكبر الأديان في العالم من حيث عدد معتنقيها. وطبقاً لأبحاث منتدى (بيو للدين والحياة العامة) المنشور في العام (٢٠٠٩)، فإن عدد المسلمين قد بلغ ١,٥٧ مليار نسمة أي بنسبة تفوق ٢٣٪ لعدد سكان الكرة الأرضية.

فالمونسنيور «فورمينتي» قال في مقابلة مع صحيفة الفاتيكان (رومانوس): «لأول مرة في التاريخ، يتعدى عدد المسلمين عدد الكاثوليكيين ويكون أكبر ديانة في العالم» وأضاف: «إن الكاثوليك يمثلون ١٧,٩ في المئة من سكان العالم وهي نسبة مستقرة إلى حد ما، بينما المسلمون يمثلون ١٩,٢ في المئة» حسب إحصاءات العام ٢٠٠٧، وأوضح المونسنيور فورمينتي قائلاً: «إن السبب وراء ذلك هو أن العائلات المسلمة عادة ما تنجب الكثير من الأطفال، بينما أعداد أطفال العائلات المسيحية يتناقص، لكن على الرغم من ذلك، لا تزال المسيحية، أكبر دين مُعتنق في العالم، إذا ما أخذنا في الاعتبار كل الطوائف المسيحية بما في ذلك الكنائس الأرثوذكسية والإنجليكانية

والبروتستانية، فتكون نسبة المسيحيين ٣٣٪ في المئة من سكان العالم».

أما جيمس ميل المساهم الرئيس في إنجاز الدراسة التي أجراها معهد (بيو) حول المسلمين فقال متحدثاً لوكالة فرانس برس: «إن اعتناق الإسلام لا يلعب دوراً كبيراً في تزايد عدد المسلمين في العالم»، مشيراً في هذا الصدد، إلى أن النمو في عدد المسلمين، يعود بصورة خاصة إلى معدلات الإنجاب.

المسلمون في أوروبا

قُدر عدد المسلمين في أوروبا حسب إحصاءات العام ٢٠٠٧ بحوالى ٥٣ مليون نسمة أي ما نسبته ٢,٥ ٪ من عدد سكان أوروبا، بينهم ١٦ مليوناً في الاتحاد الأوروبي أي ما يعادل ٣,٢٪ من عدد إجمالي السكان في الاتحاد. http:islam.de/8368php

أما المناطق ذات الأغلبية المسلمة في أوروبا فهي ألبانيا، كوسوفو، وأجزاء من البوسنة والهرسك وبعض المناطق الروسية في شمال القوقاز ومنطقة نهر الفولغا التي يسيطر عليها المسلمون (السناجقة)، نوفي بازار وهو ينقسم بين صربيا والجبل الأسود. وهذه المناطق يتألف سكانها في الغالب من الأوروبيين الأصليين من المؤمنين بالدين الإسلامي، الذي تعود تقاليده فيها إلى مئات السنين. وتعد تركيا وأذربيجان وكازاخستان كذلك ذات أغلبية مسلمة.

أما السكان المسلمون الذين يعيشون في أوروبا الغربية فهم في المقام الأول من الشعوب التي وصلت إلى القارة الأوروبية من مختلف أنحاء العالم خلال أو بعد العام ١٩٥٠ . وتكشف بيانات معدلات نمو المسلمين في أوروبا، أن عدداً متزايداً من المسلمين الذين يقطنون في أوروبا يعود إلى الهجرة وارتفاع معدلات الولادة. المصدر: «HTTP:// .WWW.FOXNEWS.COM/STORY/0,2933,343336,00HTML».

وحسب «منتدى (بيو) للدين والحياة العامة»، فإن الإسلام هو أسرع الأديان نمواً في أوروبا، بسبب الهجرة ومعدلات الولادات العالية. لقد تضاعف عدد المسلمين في القارة ثلاث مرات خلال الـ٣٠ سنة الماضية. ومعظم الخبراء الديمغرافيين يتوقعون أن تتصاعد معدلات النمو بين المسلمين في السنوات المقبلة.

الديموغرافية الإسلامية

في الخامس والعشرين من نيسان/ أبريل، عام ٢٠٠٩ قامت إحدى الجهات الكندية بإعداد ونشر فيلم وثائقي مدته سبع دقائق ونصف الدقيقة، تحذر فيه من المد الإسلامي المتنامي في العالم.

المصدر: الرابط على موقع اليوتيوب. HTTP:WWW.YOUTUBE. 3X5H1FZYU-COM/WATCXH?V=6

عنوان التقرير المنشور في هذا الفيلم:

الديموغرافية الإسلامية: الموجة العالمية للمد الإسلامي: MUSLIM Demograthics: the Islamic tiollal wave

وفيما يلي ترجمة النص كاملاً كما ورد في الفيلم:

«العالم يتغير...

إن الثقافة التي يرثها أطفالنا ستختلف اختلافاً كبيراً عما هي عليه اليوم...

أنت على وشك أن تشاهد تقريراً عن الديموغرافيا العالمية المتغيرة حالياً...

وبحسب البحوث العلمية الحديثة فإن أي ثقافة تحتاج إلى ٢,١١٪ كحد أدنى لمعدل الخصب (الإنجاب) في كل عائلة لتتمكن أي تلك الثقافة من الاستمرار في الوجود أقلّه لمدة ٢٥ عاماً. إن أي ثقافة لا تمتلك هذا الحد الأدنى سيكون مصيرها التراجع والاندثار الحتمي.

أثبت التاريخ أن ثقافة تمتلك معدل مواليد يبلغ ١,٩٪ لن تتمكن من الانتشار نهائياً. وإذا تدنى ذلك المعدل إلى ١,٣٪ فإنها ستحتاج إلى مدة تبلغ ٨٠ إلى ١٠٠ عام لعكس اتجاه النمو السلبي لتلاشي الاندثار، حيث أنه لا يوجد أي نظام اقتصادي يستطيع أن يمكّن تلك الثقافة المتدنية الخصب من البقاء والاستمرار.

مثال: لو أن عائلتين مكونتين من أب وأم في ثقافة ما أنجبت طفلاً واحداً، فإن عدد الأطفال الذين سيقومون بانتشار أسرهم الخاصة بهم سيتدنّى إلى النصف. وإذا قام هؤلاء بدورهم بإنجاب طفل واحد فقط

كآبائهم، فهذا يعني أن عدد الأحفاد في ذلك المجتمع سيبلغ ربع عدد الأحداث... وهكذا دواليك.

بعبارة أخرى، لو ولد مليون طفل فقط في عام ٢٠٠٦ فسيصعب تزويد القوة العاملة في المجتمع بمليون فرد بحلول العام ٢٠٢٦ م، وإن انكماش عدد السكان لثقافة ما سيؤدي إلى انكماش اقتصادها واندثار تلك الثقافة نفسها في النهاية.

في العام ٢٠٠٧ كانت معدلات الخصب في معظم الدول الأوروبية كما يلي: فرنسا ١,٨٪، إنكلترا ١,٦٪، اليونان ١,٣٪، ألمانيا١,٣٪ إيطاليا ١,٢٪، وإسبانيا ١,١٪.

أما في القارة الأوروبية برمتها والمكونة من إحدى وثلاثين دولة فكانت معدلات الخصب ١,٣٨٪ فقط.

ويؤكد علماء السكان أو الديموغرافيا استحالة عكس النمو المتراجع لتلك المجتمعات على المدى المنظور. وإن أوروبا كما نعرفها اليوم بمعدلات الخصب تلك، تحتاج إلى سنوات قليلة فقط لتتوقف عن الوجود بشكلها الحالي اليوم.

وبالرغم من ذلك كله فإن عدد سكان أوروبا ليس متناقصاً بل متزايداً، والسبب هو معدلات الهجرة إليها. أو الأحرى الهجرة الإسلامية إلى أوروبا. والجدير ذكره أن المسلمين شكلوا ما نسبته ٩٠٪ من مجموع المهاجرين إلى أوروبا منذ العام ١٩٩٠.

ولنأخذ مثال فرنسا التي تبلغ معدلات الإنجاب فيها ١,٨٪

يقابلها معدلات خصب في مجتمع المسلمين فيها بلغت ١,٨٪ في بعض الأحيان.

وفي جنوب فرنسا المعروف تقليدياً بأنه من أكثر المناطق المكتظة بالكنائس في العالم، فإنه يحوي اليوم عدداً أكثر من المساجد الإسلامية مقارنة بعدد الكنائس فيها.

وفي فرنسا أيضاً فإن نسبة السكان المسلمين تحت سن العشرين في المدن الكبيرة مثل «باريس» ونيس «ومرسيليا» تبلغ ٣٠٪، علماً بأن تلك النسبة يتوقع أن ترتفع إلى ٤٥٪ بحلول العام ٢٠٢٧م ما يعني أن خمس سكان فرنسا خلال ٣٩ سنة فقط سيكونون من المسلمين مهددين بتحويل فرنسا إلى جمهورية إسلامية.

أما في بريطانيا فقد ارتفع عدد المسلمين فيها خلال الثلاثين سنة الماضية من ٨٢ ألفاً إلى ٢,٥ مليون مسلم بزيادة مقدارها ٣٠ ضعفاً وبأكثر من ألف مسجد فيها اليوم، علماً أن أغلب تلك المساجد كانت كنائس في السابق.

أما في هولندا اليوم فإنّ ٥٠٪ من المواليد الجدد هم من المسلمين وهذا يعني أن نصف سكانها سيكونون من المسلمين خلال ١٥ سنة.

وفي روسيا حالياً، هناك أكثر من ٢٣ مليون مسلم يشكلون خُمس إجمالي سكانها، وكذلك يتوقع أن يبلغ المسلمون ما نسبته ٤٠٪ من تعداد الجيش الروسي خلال السنوات القليلة القادمة.

أمّا في بلجيكا فإن ٢٥٪ من السكان و٥٠٪ من المواليد الجدد هم من المسلمين.

وقد أفادت حكومة الاتحاد الأوروبي أن ثلث المواليد في أوروبا سيكونون من المسلمين بحلول العام ٢٠٢٥م.

ولقد كانت الحكومة الألمانية هي الأولى في التحدث عن هذا الخطر علناً «(وهي التي استقبلت مليون نازح سوري بين عامي ١٩١٥-١٩١٦)، حيث أفادت رسمياً أن الهبوط الحاد في معدلات النمو السكاني في ألمانيا لا يمكن وقفه الآن بوصوله إلى مرحلة اللاعودة، وبأن ألمانيا ستصبح دولة مسلمة بحلول العام ٢٠٥٠م.

كما صرح الرئيس الليبي «معمر القذافي»: «هناك اليوم دلالات وإشارات واضحة بأن الله سيمنح المسلمين النصر في أوروبا من دون الحاجة إلى سيوف ولا مدافع ولا غزوات. لا نحتاج اليوم إلى إرهابيين أو انتحاريين. المسلمون في أوروبا والبالغ عددهم فوق الخمسين مليوناً اليوم، سيحولون القارة الأوروبية إلى قارة مسلمة خلال عدة عقود فقط».

هناك اليوم ٥٢ مليون مسلم في أوروبا، وتقول الحكومة الألمانية إنّ هذا الرقم سيتضاعف خلال السنوات العشرين القادمة ليصل إلى ١٠٤ ملايين مسلم.

أما بالعودة إلى بلادنا في كندا، فإن معدلات الخصب اليوم تبلغ ١,٦٪، وهذا أقل من الحد الأدنى المطلوب للحفاظ على ثقافة أي مجتمع. في حين أن الإسلام اليوم هو أسرع الأديان نمواً في كندا. ففي الفترة بين عامي ٢٠٠١-٢٠٠٢ زاد عدد سكان كندا ١,٦ مليون نسمة، وكان منهم ١,٢ مليون من المهاجرين.

وفي الولايات المتحدة، فإن معدلات الخصب كانت ٦ , ١٪، وبدعم من المهاجرين من ذوي الأصول اللاتينية، فقد ارتفعت تلك النسبة إلى ١١ , ٢٪ وبذلك حصلت الولايات المتحدة، بصعوبة بالغة، على الحد الأدنى لمعدلات الخصب المطلوبة للحفاظ على الثقافة المجتمعية لمدة ٢٥ سنة فقط.

وبينما كان عدد المسلمين في أميركا ١٠٠ ألف مسلم فقط في العام ١٩٧٠م فإنه ارتفع ليصل إلى ٩ ملايين مسلم في العام ٢٠٠٨م.

إذن العالم يتغير... وقد آن الأوان لنستيقظ.

قبل ثلاث سنوات، انعقد اجتماع في شيكاغو الأميركية ضم ٢٤ منظمة إسلامية. وقد شرحت محاضر الاجتماع الخطط الموضوعة لاجتياح أميركا من خلال العمل الصحفي والعمل السياسي والتعليم وغير ذلك من النشاطات. وقد أكد المؤتمرون ضرورة التحضير والتهيؤ لحقيقة بلوغ المسلمين في أميركا ٥٠ مليوناً خلال الثلاثين سنة القادمة.

كما ترون.... العالم الذي نعيش فيه اليوم لن يكون العالم نفسه الذي سيعيش فيه أولادنا وأحفادنا.

المد الإسلامي

إن المد الإسلامي الذي يقع ضمن مفهومه اعتناق غير المسلمين للإسلام وهو ما يسمى بالأسلمة، قد تجلى بصورة ملحوظة في بعض الدول الأوروبية والآسيوية والإفريقية وفي قارة أميركا الشمالية.

فكيف يتبلور هذا المد في بعض الأمثلة التالية:

نشرت جريدة البرافدا الروسية في العام ٢٠٠٨ مقالاً تحت عنوان «الإسلام سيكون دين روسيا الأول بحلول العام ٢٠٥٠».

وفي أميركا أشارت عملية مسح صادرة عن مركز الأبحاث الاجتماعية في جامعة جورجيا الأميركية في العام ٢٠٠٨، إلى أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشاراً في الولايات المتحدة اليوم: islamonlineRTTP.WWW.ISLAMONLIN.NET/SERVLET/ SATELLITE

ويبلغ عدد المساجد في أميركا بحسب هذا المسح ما يزيد على ١٢٠٩ مساجد. بني أكثر من نصفها خلال السنوات العشرين الماضية، وتراوح نسبة الذين تحولوا إلى الديانة الإسلامية ما بين ١٧ و٣٠٪.

وبحسب قناة إن بي سي الفضائية فإن ٢٠,٠٠٠ أميركي يعتنقون الإسلام سنوياً.

وأن ٢٥٪ من مسلمي أميركا هم من المسلمين الجدد الذين اعتنقوا الإسلام.

وفي بريطانيا وصلت حالات اعتناق الإسلام ما بين ١٠,٠٠٠ و٢٠,٠٠٠ بريطاني سنوياً: http//artsweb.blam.ac.uk/ 06june 00asp/bmms/2000

أما في فرنسا فقد ذكرت مجلة « جون أفريك» أن كتاب «الأربعون النووية» الذي يتضمن أحاديث للرسول محمد(ص) الصادر باللغة

العربية مصحوباً بترجمة باللغة الفرنسية يحقق أعلى مبيعات في المكتبات الفرنسية بسبب اهتمام الفرنسيين (مسلمين وغير مسلمين) بأحاديث الرسول، خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م، وما صاحبها من دعوات إلى «صدام الحضارات» ودعوات أخرى إلى «حوار الحضارات».

وأوضحت الصحيفة أن ارتفاع مبيعات الكتاب في «فرنسا»، يرجع إلى أن الإسلام أصبح ثاني أكبر ديانة في فرنسا بعد النصرانية الكاثوليكية»، مشيرة إلى أن بعض المصادر الفرنسية تؤكد أن هناك نحو ٥٠ ألف فرنسي يعتنقون الإسلام كل عام: HTTP://WWW.alryacdh. ARTICLE 433475.HTML/29/05/COM/2009

وتشير دراسات مسيحية في مصر إلى تناقص عدد المسيحيين المصريين بسبب هجرة بعضهم إلى الخارج، واعتناق أعداد منهم الدين الإسلامي، إضافة إلى انخفاض معدل الإنجاب لدى المسيحيين وارتفاعه لدى المسلمين. وتشير هذه الدراسات إلى أنه إذا استمر هذه التناقص فسيؤدي إلى انقراض المسيحيين خلال ١٠٠ عام في مصر. ويقول الأنبا ماكسيموس الأول المنشق عن الكنيسة القبطية «إنّ ٥٠ ألف مسيحي يعتنقون الإسلام سنوياً، أي ما لا يقل عن مليون وربع المليون تركوا المسيحية وأشهروا إسلامهم خلال الـ٣٦ سنة الماضية وحتى عام ٢٠٠٨». وأضاف إنه يملك إسطوانة فيها تسجيل صوتي للأب ماكسيموس مطران البحيرة في اللجنة الخماسية يقول فيه، «إن

معتنقي الإسلام في مصر يبلغون حوالى ٥٠ ألف شخص سنوياً طوال الستة والثلاثين عاماً المنصرمة». وحينما سأله أحمد منصور (قناة الجزيرة الفضائية) عن الأسباب قال ماكسيموس: «إنّ غالبيتهم تحولوا إلى الإسلام بسبب مشاكل اجتماعية، وإن ٥٠٪ منهم اعتنقوا الإسلام بسبب مشكلة الطلاق».

http:www.almasyalyom.com/article2aspx?article id=6543t-

issueid=672

http//www.aljazeera.net/channel/article/archive?-

Azchiveld=1089941

الفصل الثاني

جغرافية روسيا السياسية

الحدود والتقسيم الإداري

روسيا الاتحادية وعاصمتها مدينة موسكو، تمتد في شمال قارة آسيا وشمال شرقي القارة الأوروبية وفي جبال الأورال. (أوراسيا).

لروسيا الاتحادية حدود برية مع عدة دول هي: النروج، فنلندا، لاتفيا، أستونيا، ليتوانيا، بولندا، روسيا البيضاء، أوكرانيا، الصين، آذربيجيان، جورجيا، كازاخستان،منغوليا، كوريا الشمالية.

كما أن لها حدوداً برية مع كل من اليابان والولايات المتحدة الأميركية.

وروسيا الاتحادية دولة فيدرالية ذات نظام حكم رئاسي، وهي تتكون من ٨٥ وحدة إدارية فيدرالية متساوية الحقوق مؤلفة من ٢١ جمهورية و٦ دوائر ذاتية الحكم، وإقليم واحد ذي حكم ذاتي، وثمانية أقاليم وسبع وأربعين مقاطعة، كما توجد مدينتان فيدراليتان، هما، العاصمة موسكو ومدينة سانت بطرس بورغ.

إن جميع الأقاليم الروسية مقسمة إلى ٨ دوائر فيدرالية هي:

١- الدائرة الفيدرالية الوسطى التي تضم أقاليم روسيا الوسطى.

٢- الدائرة الفيدرالية الجنوبية التي تضم أقاليم جنوب روسيا باستثناء شمال القوقاز.

٣- الدائرة الشمالية الغربية التي تضم أقاليم شمال غربي روسيا.

٤- دائرة الشرق الأقصى الفيدرالية التي تضم أقاليم الشرق الأقصى.

٥- دائرة سيبيريا الفيدرالية التي تضم إقليم سيبيريا.

٦- دائرة شمال القوقاز ومنطقة بحر قزوين.

٧- دائرة الأورال الفيدرالية التي تضم أقاليم منطقة الأورال.

٨- دائرة الفولغا الفيدرالية التي تضم أقاليم منطقة نهر الفولغا.

روسيا الاتحادية هي أكبر دولة في العالم من حيث المساحة الجغرافية، حيث أنها تشكل ما يقارب ثمن مساحة الكرة الأرضية للمناطق المأهولة بالسكان، وتبلغ مساحتها الإجمالية ١٧,٠٩٨,٢٤٢ مليون كلم٢. وهذه المساحة لا تشمل مساحة شبه جزيرة القرم التي ضمتها روسيا من أوكرانيا في العام ٢٠١٥ وهي اليوم تتمتع بحكم ذاتي فيدرالي في إطار الاتحاد الروسي.

يبلغ عدد سكان روسيا الاتحادية حتى العام ٢٠١٥، ١٤٣,٥ مليون نسمة بما في ذلك عدد سكان شبه جزيرة القرم. اللغة الرسمية في البلاد، هي اللغة الروسية ولكن هناك لغات أخرى إلى جانب اللغة الروسية في أماكن مختلفة من البلاد. ففي جمهورية تتارستان مثلاً تعتمد اللغة التتارية (التركية) إلى جانب اللغة الروسية الرسمية.

موجز مكثف لتاريخ الدولة الروسية

يبدأ تاريخ روسيا من السلاف الشرقيين. وأول دولة سلافية شرقية كانت، كييف روس، التي اعتنق أهلها المسيحية المأخوذة عن الإمبراطورية البيزنطية في العام ٩٨٨م.

وتفككت دولة كييف روس، بعدما غزاها المغول وأخضعوها لسيطرتهم في العام ١٢٣٠م.

بعد القرن الثالث عشر بدأ يتبلور دور موسكو في وراثة تركة كييف روس. وبحلول القرن الثامن عشر أصبحت دوقية موسكو الإمبراطورية الروسية الضخمة، وامتدت من بولندا شرقاً إلى المحيط الهادئ غرباً. وقد أدى توسع روسيا باتجاه الغرب إلى تحطّم العزلة التي فُرضت عليها وفصلتها عن بقية أوروبا.

في القرن التاسع عشر اتصفت آليات الحكم في روسيا بين قمع شديد وإصلاح فاتر، وكان من نتيجته إلغاء نظام القنانة في العام ١٨٦١. إلا أن هذا الإلغاء قد حصل بشروط غير مؤاتية للفلاحين ما أدى إلى زيادة الضغوط الثورية على السلطة الحاكمة.

بين حقبة إلغاء نظام القنانة وإصلاح ستوليبين والحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، أُقر دستور عام ١٩٠٦، وأدى تأسيس مجلس الدوما إلى تغييرات ملحوظة في الاقتصاد والسياسة في روسيا.

لكن القيصر لم يكن مستعداً للتخلي عن الحكم الاستبدادي أو تقاسم السلطة مع ثورة ١٩٠٥، فهيأت تراكمات الانهيار الاقتصادي،

والسأم من الحرب، وعدم الرضى عن الحكم الاستبدادي لحكومة القيصر، إلى قيام ثورة ١٩١٧، التي جلبت أول ائتلاف بين الليبراليين والاشتراكيين المعتدلين إلى السلطة.

غير أن السياسات الفاشلة لهذه السلطة أدت إلى استيلاء البلاشفة الشيوعيين في ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٢ على السلطة، واستمروا حتى العام ١٩٩١ ممسكين بإدارة الاتحاد السوفياتي الذي شكلت روسيا عصبه الحقيقي.

إن الدولة السوفياتية العقائدية (العقيدة الشيوعية)، كانت متناسبة من حيث امتدادها الجغرافي إلى حد كبير مع ما كانت عليها الإمبراطورية الروسية قبل معاهدة (بريست- ليتوفسك)، المعاهدة التي وقعها لينين مع ألمانيا إبان الحرب العالمية الأولى وعشية انتصار ثورة أكتوبر عام ١٩١٧.

إن نهج بناء الاشتراكية في روسيا وفي إطار الاتحاد السوفياتي قد تقلب في فترات مختلفة من تاريخ الاتحاد السوفياتي، فمن الاقتصاد المختلط والثقافة المتنوعة والتعددية الحزبية التي امتدت من العام ١٩١٧ إلى العام ١٩٢٢، إلى الاقتصاد الموجه والقمع المبرح الذي شهده العهد الستاليني، وتميّز فقط ببعض أساليبه في عهد خروتشوف، إلى رحلة الركود في الثمانينيات من القرن العشرين.

استندت الحكومة في العهد السوفياتي إلى حكم الحزب

الواحد من الشيوعيين. وبحلول العام ١٩٨٠ ظهرت عوارض الضعف والترهل في الهياكل الاقتصادية والسياسية للدولة السوفياتية، ما أدى، في نهاية المطاف، في أواخر العام ١٩٩١ إلى انهيار الدولة السوفياتية الذي ترافق في الوقت نفسه مع انهيار منظومة الدول الاشتراكية برمتها وانهيار (حلف وارسو) الذراع العسكرية لتلك المنظومة.

منذ حصولها على الاستقلال بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، تم الاعتراف بروسيا باعتبارها الخلف القانوني للاتحاد السوفياتي على المسرح الدولي، ومع ذلك، فإن روسيا الحديثة قد فقدت مكانتها كقوة عظمى نووية، في الوقت الذي راحت تواجه تحديات في جهودها الرامية إلى إقامة وظيفة سوفياتية جديدة في النظام السياسي والاقتصادي العالمي.

وعلى قاعدة إلغاء التخطيط الاشتراكي المركزي وملكية الدولة لوسائل الإنتاج، حاولت روسيا إعادة بناء الاقتصاد مع عناصر رأسمالية السوق، غير أن النتائج كانت مؤلمة في كثير من الأحيان في سلوك هذه الطريق.

وبعد مرور أكثر من عقدين ونصف العقد على تلك التحولات لا يزال البناء الروسي يتماهى في العديد من عناصره بالاستمرارية للثقافة السياسية والبنية الاجتماعية مع التاريخ القيصري والسوفياتي السابقين.

الديموغرافيا الروسية

تشير نتائج الإحصاءات المسجلة في العام ٢٠١٥ إلى أن مجموع سكان روسيا الاتحادية يبلغ ١٤٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة.

يشكل السكان ذوو الأصول الروسية ٧٩,٨٪ من سكان روسيا الاتحادية الذين ينتمون إلى ١٦٠ مجموعة عرقية. وعلى الرغم من أن تعداد سكان روسيا كبير نسبياً، إلا أن الكثافة السكانية منخفضة بسبب المساحة الكبيرة للبلاد. وعلى الرغم من وقوع معظم الأراضي الروسية داخل القارة الآسيوية، فإن معظم سكان البلاد يعيشون في الجزء الأوروبي منها بالقرب من جبال الأورال وسيبيريا في جنوب غربي البلاد.

يعيش ٧٣٪ من سكان روسيا في المناطق الحضرية، في حين أن ٢٧٪ منهم يعيشون في المناطق الريفية.

بدأت روسيا تعاني انخفاضاً سريعاً في عدد السكان ابتداء من منتصف تسعينيات القرن العشرين. وكادت الدولة تتعرض لكارثة ديمغرافية بسبب ذلك بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي دفع الحكومة الروسية إلى وضع برامج خاصة لتشجيع الإنجاب ودعم العائلة ومنح الأم مزايا خاصة، من دعم مالي واجتماعي مميز. وتعود أسباب تناقص عدد السكان في روسيا إلى العزوف عن الإنجاب وتأخر سن الزواج إضافة إلى ارتفاع نسبة الوفيات بين الذكور بسبب انتشار ظاهرة إدمان الكحول.

كما أن روسيا الاتحادية كانت قد تعرضت لكارثة ديموغرافية نتجت من الحرب الأهلية والحربين العالميتين اللتين نالت منهما أكبر عدد من الخسائر البشرية، أي ما يقارب عشرين مليون قتيل من سكان الاتحاد السوفياتي السابق، جلهم من المواطنين الروس.

في العام ٢٠٠٩ سجلت روسيا نمواً في المعدل السكاني لأول مرة منذ خمس عشرة سنة خلت، حيث بلغ معدل النمو الإجمالي نحو ١٠,٥٠٠ منهم ٢٧٩,٩٠٦ مهاجرين وصلوا إلى الاتحاد الروسي في العام نفسه، ٩٣٪ منهم جاؤوا من بلدان اتحاد الدول المستقلة. وفي المقابل انخفض عدد المهاجرين الروس باطراد من ٣٥٩٠٠٠ في العام ٢٠٠٠ إلى ٣٢٠٠٠ في العام ٢٠٠٩. وهناك أيضاً ما يقدر بنحو ١٨ مليون مهاجر غير شرعي من دول الاتحاد السوفياتي السابق يعيشون في روسيا الاتحادية. إذاً بلغ تعداد السكان في روسيا ١١٢ مليون نسمة من الأصول الروسية ونحو ٢٠ مليون شخص روسي يعيشون في جمهوريات أخرى من الاتحاد السوفياتي السابق، معظمهم في أوكرانيا وكازاخستان.

معدل الـولادات في روسيا هو أعلى من مثيلاته في البلدان الأوروبية (١٢,٦ ولادة لكل ١٠٠٠ شخص في العام ٢٠١٠ مقارنة بمتوسط الولادات في الاتحاد الأوروبي البالغ ٩,٩٠ لكل ١٠٠٠ شخص في السنة نفسها)، في حين أن معدل الوفيات في روسيا الاتحادية هو أعلى بكثير (في العام ٢٠١٠ بلغ معدل الوفيات في

روسيا ١٤,٣ لكل ١٠٠٠ شخص، مقارنة بالمتوسط في الاتحاد الأوروبي حيث بلغ ١٠,٢٨ لكل ١٠٠٠ شخص).

وبهدف زيادة معدل الولادات وجذب المزيد من المهاجرين، أقرت الحكومة الروسية، برامج ضاعفت من خلالها المساعدات الحكومية الشهرية لمعونة الأطفال إلى ٥٥ دولاراً أميركياً. كما قدمت دفعة لمرة واحدة قيمتها ٩٢٠٠ دولار أميركي للنساء اللواتي لديهن طفل ثانٍ منذ العام ٢٠٠٧. وقد أدى هذا إلى أن تشهد روسيا أعلى نسبة معدل نمو في العامين ٢٠٠٩ و٢٠١٠ منذ تفكك الاتحاد السوفياتي.

الديانات في روسيا الاتحادية

يتشكل المجتمع الروسي من نحو ١٦٠ جماعة عرقية، وأهم الديانات المنتشرة بينهم هي، المسيحية الأرثوذكسية، الإسلام، البوذية واليهودية. وتشير بعض التقديرات إلى أن عدد اللادينيين في روسيا الاتحادية يراوح ما بين ١٦ إلى ٤٨٪ من السكان.

عيد الفصح هو العيد الديني الأكثر شعبية في روسيا، ويحتفل به أكثر من ٩٠٪ من جميع المواطنين الروس بما في ذلك عدد من الجماعات اللادينية.

وأكثر من ٧٥٪ من الروس يحتفلون بعيد الفصح بصنع كعكة الفصح التقليدية، والبيض الملون والباسخا...

الأرثوذكسية الروسية هي الديانة السائدة في روسيا الاتحادية، في حين أن هناك عدداً أقل من الكنائس الأرثوذكسية الأخرى. الغالبية

العظمى من المؤمنين الأرثوذكس لا يحضرون إلى الكنيسة بشكل منتظم.

أصغر الطوائف المسيحية في روسيا هم الكاثوليك، الأرمن، البروتستانت.

يشير عدد من التقديرات الروسية والعربية إلى أن عدد المسلمين الروس يراوح بين ١٥ إلى ٢٠ مليون نسمة، إضافة إلى عدد مشابه من المهاجرين المسلمين من دول الاتحاد السوفياتي السابق.

الأكثرية الساحقة من المسلمين الروس يعيشون في منطقة الفولغا، الأورال، القوقاز، موسكو، وكذلك في سان بطرس برغ وغرب سيبيريا.

معتنقو الديانة البوذية يعيشون تقليدياً في ثلاث مناطق في الاتحاد الروسي، بورياتيا، كوفا وكالميكيا.

إذاً، السلاف الأرثوذكس أغلبيتهم الساحقة مسيحيون، أما الروس الناطقون بالتركية فإنهم مسلمون في الغالب، والبوذيون الروس هم المغول.

تتضارب التقديرات حول عدد اليهود الروس بين من يقول إنّ عددهم لا يتجاوز الستة ملايين، هاجر منهم ما يقارب مليون ونصف المليون نسمة إلى إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية وكندا، وبين من يقول إنّ عددهم يتجاوز عشرين مليون نسمة موزعين في مختلف المقاطعات الروسية، والعدد الأكبر منهم يعيش في مدينتَيْ موسكو

وسان بطرس بورغ. وإنّ هذا التباين الكبير في تقدير عددهم، يعود إلى أن الكثيرين من اليهود قد تخفوا في قوميات أخرى عند إعداد السجلات الرسمية بعد انتصار الثورة البلشفية هرباً من الاضطهاد الذي عانوه في عهد القياصرة، وتسهيلاً لدخولهم في وظائف الدولة الأساسية التي كانوا يُحرمون منها.

الفصل الثالث

الإسلام في روسيا

النشأة والانتشار

دخل الإسلام إلى روسيا قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة، وبعد ما يقارب ثلاث مئة سنة ونيف من ذلك اعتنق الروس النصرانية الأرثوذكسية. وقد احتفلوا بنهاية القرن العشرين بذكرى مرور ألف سنة على دخول النصرانية إلى بلادهم واعتناقهم لها.

فمدينة قازان، عاصمة جمهورية تتارستان الواقعة على حوض نهر الفولغا في وسط روسيا الأوروبية، تأسست قبل مدينة موسكو بحوالى ١٥٠ سنة.

وقد وصل المد الإسلامي للخلافة العربية إلى جنوب روسيا أي إلى ما يعرف اليوم بما وراء القوقاز في أواسط القرن السابع الميلادي. ومدينة (دربنت) في داغستان القوقازية بلغتها الفتوحات الإسلامية للمرة الأولى ما بين أعوام ٦٤٢ و٦٥٤ ميلادي، وفي مرة ثانية في العام ٧٢٨ ميلادي، حيث أضحت في هذه المرة مدينة إسلامية صلبة. وبمرور الزمن، وخلال قرون عدة كانت مدينة آذرية أو فارسية، واستمرت كذلك إلى أن احتلها الروس للمرة الأولى في العام ١٨٠٦ ميلادي. وبذلك يكون شعب (دربنت) في داغستان هو الشعب الأول

الذي يعتنق الإسلام على أراضي روسيا المعاصرة منذ القرن الثامن ميلادي. وقد تبعهم بعد ذلك بوقت قصير (اللزغينز). بعد ذلك احتل المسلمون العرب ضفاف نهر الفولغا لمرحلة لم تمتد طويلاً في الزمن. كان ذلك في العام ٧٣٧ ميلادي، حيث اعتنق قسم من شعب الهازارا المسيطرين على جنوب روسيا وشرق أوكرانيا الإسلام. ولكن بعد استعادتهم لاستقلالهم من المسلمين العرب في (Khazars) العام ٧٤٠ عادت الأكثرية الساحقة من شعب الهازارا إلى ديانتهم الأصلية (اليهودية). مع ذلك لا تزال هناك مجموعة من المسلمين الهازارا ولهم مساجدهم في العديد من مدن الهزار في جنوب روسيا وفي شمال القوقاز، مثل مدينة (أتيل) قرب أستراخان على نهر الفرلغا و(سمندار) قرب (كيزليار) و(بلاندجار) قرب بوناكسك.

إذاً، يمتد تاريخ الإسلام في الزمن على الأراضي الروسية المعاصرة إلى ما قبل مرحلة اعتناق الدولة الروسية الديانة المسيحية في العام ٩٨٨ ميلادي، وفي حين اعتنق سكان منطقة نهر الفولغا الإسلام في القرن العاشر الميلادي، كان الإسلام قد ظهر في النصف الثاني من القرن السابع في شمال القوقاز. وكان التتار السيبيريون قد اعتنقوا الإسلام قبل ثلاثة قرون من اجتياح الروس سيبيريا في القرن السادس عشر الميلادي.

تعيش النسبة الكبرى من المسلمين في روسيا في شمال القوقاز، وكذلك في حوض نهر الفولغا وفي الأورال. وتشير معظم

إلى أن الجالية الإسلامية في روسيا تشكل نسبة ١٣٪ إلى ١٥٪ من عدد السكان أي ما يعادل ١٩ إلى ٢٢ مليون نسمة. هذا فضلاً عن عدد مماثل من المسلمين الوافدين من بلدان آسيا الوسطى الذين يقيم معظمهم في المدن الكبرى موسكو وسان بطرس برغ، ويؤلفون اليد العاملة الأساسية في المجتمع الروسي خصوصاً في مجالَيْ البناء والخدمات العامة (التنظيفات- المطاعم -أسواق الخضار).

وتجدر الإشارة إلى أن ٣٣٪ إلى ٣٥٪ من المواطنين الروس هم علمانيون أو غير مصنفين دينياً أو طائفياً، وأكثريتهم الساحقة من القومية الروسية. ومدينة قازان عاصمة جمهورية تتارستان هي العاصمة السياسية والثقافية لمسلمي روسيا إلى جانب موسكو عاصمة روسيا الاتحادية.

فالتتار هم الإثنية الروسية الأكبر بين مسلمي روسيا الاتحادية ويبلغ تعدادهم حوالى ٦ ملايين نسمة أي ما يقارب ٤٪ من عدد سكان روسيا الاتحادية، وهم يشكلون الجالية الثانية الأكثر عدداً بعد الروس السلافيين الذين يشكلون ٨٠٪ من سكان روسيا. ويعيش في تتارستان ثلث التتار الروس فقط ويشكلون نصف عدد سكان هذه الجمهورية ذات الحكم الذاتي، بينما يمثل الروس السلافيون ٤٠٪ من عدد سكانها، أما بقية التتار فينتشرون في الأراضي الروسية وحول نهر الفولغا، في أستراخان وبشكيرستان. وفي الأورال، وفي القرم، ويتآلفون في روابط دينية وحزبية مع سائر شعوب روسيا المسلمة في شمال القوقاز، وكذلك مع شعوب آسيا الوسطى.

يتوزع المسلمون الروس إلى أربعين إثنية مختلفة. ويشكل التتار بينهم الإثنية الأكثر عدداً كما أشرت سابقاً. تلي الإثنية التتارية من حيث العدد، البشكير أكثر من مليون نسمة، والشيشان حوالى مليون نسمة أيضاً.

الأكثرية العظمى من مسلمي روسيا هم من المسلمين السنّة، ويوجد في روسيا مدرستان فقهيتان، الشافعية في شمال القوقاز والحنفية في المناطق الإسلامية الأخرى. ويسجل وجود فرق صوفية ليست ذات شأن في شمال القوقاز تحديداً.

إن ما يميز المسلمين التتار هو تسلحهم بثقافة روسية وإسلامية مزدوجة، ما جعلهم يطورون أنفسهم بما يملكونه أيضاً من ثروات نفطية وقدرات تجارية، وتمتعهم بطاقة هندسية وفنية، تُمكّنهم من الاستثمار خارج الحدود كما هو حاصل اليوم في سورية وإيران (البترولية التتارية) tatneft. فمنذ العام ٢٠٠٢ يتطور نشاط الشركات الروسية في الجنوب الشرقي الإيراني في منطقة (كوبال) حيث تعمل على تطوير صناعة المشتقات النفطية الإيرانية.

وتعود قصة دخول الإسلام إلى سهول روسيا، وجبال الأورال إلى أيام الفتح الإسلامي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ما بين سنتي (١٤هـ-١٨هـ، ٦٣٨م-٦٤٤م).

فقد قاد الصحابي حذيفة بن اليمان حملته على أذربجيان وأرمينيا في شمال القوقاز، ووقّع قائده في الميدان عتبة بن فرقد السلمي الصلح

مع مرجعيات تلك الديار. أما الحملة الثانية إلى الشرق من البلاد التي توجه إليها حذيفة، فقد قادها الأحنف بن قيس، ونجح في فتح أراضي الديلم وطبرستان وأفغانستان.

وقد فتح القائد المسلم سراقة بن عمرو من دون إراقة دماء ما يعرف عند المسلمين العرب بمدينة (باب الأبواب) أوديربنت، وهي تقع على ساحل بحر قزوين إلى الجنوب الشرقي من عاصمة داغستان (محجة قلعة) في شمال القوقاز، في العهد العمري سنة (٢٠هـ). هذه المدينة التي لا تزال مقبرتها تحتضن قبور أربعين شهيداً مسلماً عرف منهم الصحابيان: الربيع بن مسلمة وأخوه عبد الرحمن، وكان هؤلاء قد استشهدوا في حروبهم مع الخرر. ومن معالم تلك المدينة أيضاً المسجد الذي بناه مسلمة بن عبد الملك سنة (١١٥هـ) وما زالت آثاره باقية بعدما ضربه الزلزال الذي أصاب تلك المنطقة في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي.

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان، تواصل امتداد الفتح الإسلامي، حيث تمكن الصحابي، الحكم بن عمرو الغفاري، سنة (٥٠هـ- ٦١٠م) من عبور نهر (جيحون هذا النهر الذي يقع في آسيا الوسطى ويبلغ طوله ٢٥٢٥ كيلومتراً وعرف قديماً باسم «أوكسوس» ولدى العرب باسم جيحون) ودخل فاتحاً بلاد أوزبكستان. وتوالت بعد ذلك الفتوحات في شرق آسيا، حيث تمكن عبدالله بن زياد من فتح (بخارى) و(بيكند) سنة (٥٥هـ-٦٧٤م).

وفتح سعيد بن عثمان (سمرقند) في معركة استشهد فيها الصحابي قثم بن العباس ابن عم الرسول محمد(ص).

وفي المرحلة نفسها، أي في عهد معاوية بن أبي سفيان، فتح موسى بن عبدالله بن خازم، ترمذ (بلد الإمام الترمذي) سنة (٧٠هـ-٦٨٩م). ثم جاء بعده قتيبة بن مسلم الباهلي الذي يعتبر بحق فاتح بلاد ما وراء النهر وموطد الإسلام فيها ما بين سنتي (٨٨هـ-٩٦هـ)، (٧٠٦م- ٧١٤م)، حيث وصلت جيوشه إلى حدود الصين، وكان أقسم أن يطأ برجليه تراب الصين، فأرسل إليه إمبراطور الصين حينذاك (طشتاً) فيه من تراب الصين، مع الجزية ليبرّ بقسمه. فوطّد على أثر ذلك أركان الإسلام في تركستان الغربية وتركمانستان وطاجكستان وقرغيزيا. ومن قادة الفتح الإسلامي لهذه البلاد أيضاً الجرّاح بن عبدالله الحكمي ومروان بن محمد الأموي.

ومن هذه المناطق انتقل الإسلام إلى تركستان الشرقية في القرن الرابع الهجري، (٣٢٣هـ-٩٣٤م).

لقد كان دخول الإسلام إلى هذا الشريط الجغرافي في وسط آسيا قاعدة انطلاق لانتشار الإسلام إلى شمالها وجنوبها وصولاً إلى إقليم حوض نهر الفولغا في وسط روسيا، وهو إقليم متعدد الشعوب والأعراق، اعتنق أفرادها الإسلام وقدّموه على تنوع فنونه وعلومه إلى الدائرة الأوسع في محيطهم.

إذاً من الصين في أواسط آسيا شرقاً، إلى بحر الخزر غرباً، كان لاعتناق شعوب هذه البلاد الإسلام التأثير المباشر في دفع شعوب جهة الشمال والغرب، إلى التعرف إلى الإسلام، حيث كانت تلك الشعوب لا تزال تدين بالوثنية.

وقد كان لاتصال أبناء أواسط آسيا من المسلمين عن طريق التجارة مع تلك الشعوب، ما يدفع بعضهم إلى اعتناق الإسلام ودفع الآخرين من أبناء جلدتهم إلى السير على خطاهم.

انتشار الإسلام في منطقة الفولغا الروسية

تبدأ حكاية انتشار الإسلام في منطقة الفولغا الروسية، عندما قدم وفد من بلقار الفولغا إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة (٣١٠هـ-٩٢١م). طالباً إليه أن يرسل معهم من يعلّم أبناءهم وذويهم الدين الإسلامي وأحكامه، ذلك لأنهم محاطون بأمة وثنية من الروس والسلاف وغيرهم من شعوب نهر الفولغا.

ونزولاً عند طلبهم، أوفد الخليفة المقتدر بالله رسوله ابن فضلان إلى ملك الصقالبة الذي تقع مدينته إلى الغرب من مدينة قازان عاصمة جمهورية تتارستان ذات الحكم الذاتي اليوم، وهو (ألمش بن يلطوار) الذي اعتنق الإسلام بوصول ابن فضلان إلى مجلسه. وكان يرافقه وفد من العلماء والفقهاء ورسول ملك الصقالبة المسلم باريس الصقلبي.

وهكذا بدأ فصل جديد من حياة شعوب منطقة نهر الفولغا. فاعتنق الصقالبة الإسلام في الوقت الذي كان الروس يعيشون حياة بدائية تقوم

على التنقل والترحال. وتعتبر رسالة ابن فضلان من أهم ما كتب في تاريخ الحياة الاجتماعية لسكان حوض نهر الفولغا من الوثنيين الروس والبلقار والصقالبة.

وفي رواية للمؤرخ التتاري المسلم، شهاب الدين مرجاني قوله، بأن البلقار اعتنقوا الإسلام قبل ذلك التاريخ (٩٢١م)، وتحديداً في عهد الخليفتين المأمون (٨١٣م-٨٣٣م) والواثق (٨٤٢م-٨٤٧م). ولعل ما أورده بعض المؤرخين، ومنهم فريد شاه أسد الله في كتابه (موسكو المسلمة ماضيها وحاضرها) بأن الوجود الإسلامي في حاضرة روسيا في آخر معلمة له تعود إلى سنة ٩٢٢م، قد يكون هو تاريخ اعتناق الروس للنصرانية على الإسلام حسب المؤرخ التتاري شهاب الدين مرجاني. وسبب عودة الروس عن الإسلام إلى النصرانية، هو أن تحريم المسلمين للخمرة لم تعجب الأمير الروسي فلاديمير، الذي قال لرسل البلقار المسلمين (روسيا معتادة الخمرة ولا تحيا من دونها).

التتار هم قاعدة الإسلام ودعاته في روسيا

لقد أسلم بركة خان ملك التتار سنة (١٢٥٦م-١٢٦٧م) ومعه تحول الشعب التتاري من متأصّل ومحارب للإسلام إلى مدافع عنه، ناشر له، وأصبحت شعوب حوض نهر الفولغا الممتد على طول ٢٠٠٠ كم، شعوباً إسلامية، ووصل المد الإسلامي من هناك إلى سيبيريا وإلى مناطق فنلندا. وقد حارب بركة خان ابن عمه هولاكو السفاح الذي

دمر بغداد سنة ٦٥٦هـ، وقتل الخليفة العباسي المستعصم. فانتصر عليه بركة وأنقذ المسلمين من بطشه. (محمود الرمزي في كتاب، تلفيق الأخبار في وقائع قازان وبلقار وملوك التتار المطبوع عام ١٨٨٥ بقازان).

لقد حكم المسلمون التتار جميع السهول والأقاليم الروسية مدة ٢٤٠ سنة. وكانت مدينتا موسكو وكييف النصرانيتان تدفعان الجزية للمسلمين التتار، ولا يعيّن حاكم عليهما إلا بموافقة حاكم (قازان) المسلم.

في العام ١٤٨٠م، كان حاكم روسيا إيفان الثالث الذي أعلن الحرب الصليبية على المسلمين، وتلاه في الحكم ابنه إيفان الرابع الذي عرف بإيفان الرهيب والذي اكتسح مدينة قازان عام ١٥٥٢م واتبع سياسة الإبادة ضد المسلمين منذ بداية عهده وطوال حكم أسرة آل رومانوف.

وبعد سقوط حكم قياصرة آل رومانوف أمام الثورة الشيوعية التي قادها فلاديمير إيليتش لينين في نوفمبر ١٩١٧، وعد لينين المسلمين بأنه سيكون نصيراً لهم، إلا أن ما حل بهم بعد وفاته سنة ١٩٢٣، وطوال فترة الحكم الشيوعي الذي امتد خمساً وسبعين سنة كان إلى حد كبير مناقضاً لتلك الوعود.

من تاريخ العلاقات بين المسلمين والروس

مرت العلاقات بين المسلمين والروس بمراحل مختلفة، كانت

الغلبة والسيطرة فيها للمسلمين في معظم الأوقات، حيث سيطر المسلمون على روسيا زمناً طويلاً، ومرت أوقات لم يكن الولاة الروس فيها سوى أدوات تنفيذية في يد المسلمين.

ومع سيطرة القبيلة الذهبية الإسلامية التتارية على موسكو بلغ الأمر أشده في العلاقة بين المسلمين والروس عندما فرض الأمير بكرة خان التتاري الجزية عليها وسماها «مشيخة الموسكوف».

هذا التاريخ يتذكره الروس الأرثوذكس بكثير من الحقد والغضب من دون شك، وهو الأمر الذي يفسر مجازرهم اللاحقة بحق المسلمين في آسيا الوسطى والقوقاز وجزيرة القرم، ومساهمتهم الفعالة في تدمير الأسطول العثماني في معركة نافارين باليونان سنة ١٨٢٧م واستثارتهم للسلافيين في جنوب أوروبا وشرقها «البلقان»، تحت شعار «أنقذوا الأخوة السلاف». وكان الهدف من تلك المعارك تفكيك الخلافة العثمانية وإسقاطها، وانتهى الأمر بفقدانها أراضي واسعة كانت خاضعة لسلطة المسلمين قروناً.

ومع بداية العهد السوفياتي سيطر الروس على أغلب الأراضي التي انتزعت سابقاً من العثمانيين، وعرفت تلك المجتمعات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز والقرم عهوداً من الظلم والاستبداد، وتغييراً جوهرياً في مرتكزاتها الثقافية والاجتماعية.

كانت خسارة السلطنة العثمانية لأراضي آسيا الوسطى والقوقاز خسارة جغرافية وبشرية هامة جداً.

فقد كانت المجتمعات المسلمة المحيطة بروسيا تتوزع على مساحة كبيرة تبلغ ٥,٥٤٠,٠٦٦ كم مربعاً، وكانت تعرّف عند العرب تاريخياً بمنطقة «تركستان الكبرى»، وبلاد «ما وراء النهر»، ومنطقة «طوران» و«آسيا الوسطى». وقد دخلها الإسلام فعلياً سنة ٨٦هـ واستمرت فيها الفتوحات حتى سنة ٩٧هـ بقيادة القائد الإسلامي قتيبة بن مسلم الباهلي. وقد شكل سقوط هذه المناطق بيد القيصرية الروسية سبباً أساسياً لسقوط السلطنة العثمانية. وتقلصت أعداد الشعوب المسلمة في هذه المناطق جراء المجازر الروسية التي ارتكبت ضد أهلها.

فقد تقلص مثلاً عدد شعب القرم المسلم من تسعة ملايين نسمة في القرن الثامن عشر الميلادي إلى بضعة ملايين، واليوم إلى بضع مئات من الألوف. وعلى ما يذكر المؤرخون، فإنها كانت سياسة مقصودة من قبل القياصرة الروس. وما يذكر في هذا المجال أنه كان من وصايا كاترينا الثانية أن تباد شعوب القوقاز إن وصلت ديمغرافيتها إلى المليون نسمة. ويسجل التاريخ أنه تحت شعار «جمعية الصداقة والأخـوة»، اجتمعت في بداية القرن (١٨م) الدول الاستعمارية المتحالفة مع روسيا في مدينة أوديسا على البحر الأسود وتقرر في هذا الاجتماع اقتسام تركة السلطنة العثمانية بعد تمزيقها.

بماذا تميزت بلاد «ما وراء النهر»، أو بلاد «آسيا الوسطى»

قبل الاحتلال الروسي لبلاد ما وراء النهر، كانت هذه المنطقة بالإضافة إلى بلاد القوقاز تعيش حياة مزدهرة، وعرفت تطوراً عمرانياً

مشهوداً بعد دخول الإسلام إليها، حتى أصبحت منارة علمية ومركز إشعاع حضارياً امتد تأثيره إلى مختلف أنحاء المعمورة.

ويحفظ التاريخ لنا أسماء خالدة لمعالم جغرافية هامة، مثل طشقند وبخارى وسمرقند، كمدن ومراكز حضارية لعبت دوراً هاماً في تطور الحضارة الإسلامية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المنطقة قد أنجبت للأمة الإسلامية وللعالم ثلة خالدة من العلماء والفقهاء والأطباء، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

الإمام البخاري، والغزالي، والنسائي والترمذي، والخوارزمي والرخي والسمعاني والدبوسي، والفارابي وابن سينا والبيروني... ونلفت في هذا السياق إلى أن اللغة العربية كانت لغة المسلمين في تلك الديار، ولغة الثقافة والعلم والأدب والتخاطب فيما بين نخبها.

وعلى الضفة الأخرى، كان الروس يعيشون حياة بداوة بدائية يلخصها الرحالة المسلم ابن فضلان الذي زار بلاد الروس ووقف على حياتهم فكان وصفه لهم: «شعوب شقر ضخام البنيان، غير مهذبين في مظهرهم من حيث النظافة في الجسم أو الثياب، ولا يعرفون ديناً بعينه، عاداتهم الحياتية قذرة، فهم لا يغتسلون من غائط أو جنابة، ويتناكحون جهاراً نهاراً دون حياء، وأنهم غلاظ الطباع حيث توجد وحشية في معاملاتهم مع الآخرين، وهم سكارى ودائمو شرب الخمر والعربدة، لا تحكمهم قيم أو حضارة، يعيشون حياة بدائية في السلوك والفكر وأمور حياتهم كافية».

ولكن بعد قرون من الرقي والازدهار الحضاري، شهدت بلاد ما وراء النهر والقوقاز انتكاستين كبيرتين، الأولى كانت على يد المغول، ثم نهضت منها بعد ظهور السلطنة العثمانية، لكن سرعان ما تعرضت لاحقاً للانتكاسة الثانية التي طال زمنها ولا تزال آثارها مستمرة حتى اليوم. تلك الانتكاسة التي بدأت باستيلاء القيصر كاترينا الثانية بداية على جزيرة القرم وما تلاها من قتل لملايين المسلمين، أخرجت هذه الجزيرة الإستراتيجية عن سيطرة السلطنة العثمانية، ومثّل سقوطها علامة على بداية انهيار هذه السلطنة التي أنهكتها الحروب الروسية المتتالية، الأمر الذي تطور إلى استيلاء الروس على مساحات واسعة من دول آسيا الوسطى والقوقاز.

روسنة المسلمين أو تنصيرهم

بعد تمكّنهم من الاستيلاء على الأراضي في القرم وشمال القوقاز وآسيا الوسطى، عمل الروس على تغيير هوية هذه المناطق وديمغرافيتها. وتطلبت هذه التغييرات، في معظم الأحيان، استخدام القوة المفرطة من قبل الروس لتنفيذها.

وقد ارتد الكثير من المسلمين عن دينهم، خصوصاً أولئك الذين هربوا إنقاذاً لحياتهم إلى دول أوروبا الشرقية، إضافة إلى الكثير من الأُسر من تتار الفولغا التي تحولت من الديانة الإسلامية إلى النصرانية وبعد ذلك، أصبحت مسألة زواج المسلمات بالنصارى ظاهرة منتشرة.

الردة الإسلامية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي هبت الكثير من الأقاليم الإسلامية إلى إعلان استقلالها، وظهرت بوادر صحوة إسلامية قادتها تيارات سنية، وعاد طلاب آسيا الوسطى والقوقاز من سوريا ومصر والسعودية وتركيا وباكستان. وبعودتهم شهدت تلك البلاد صحوة لدى عدد كبير من الشباب الذين أصبحوا من رواد المساجد، وعادت ظاهرة ارتداء الحجاب في أوساط الفتيات المسلمات، وحرصت أسر كثيرة على تعليم بناتها القرآن.

غير أن الحكام الروس الذين استفزتهم هذه الردة خصوصاً مع ظهور تيارات إسلامية متطرفة، اتخذوا في مواجهة ذلك تدابير للتضييق على دعاة النهضة الإسلامية في تلك الأقاليم. وكانت من نتائج ذلك، حصول صدامات بين المسلمين والأجهزة الأمنية. وساهم هجوم الجيش الروسي على الشيشان في تأجيج نيران الغضب لدى مسلمي الشيشان وشمال القوقاز، وقوبل ذلك من السلطات الروسية بقمع أشد.

وبعد أحداث ١١/٩/٢٠٠١، وإعلان الحرب العالمية على الإرهاب، وجدت القوى الأمنية الروسية وحلفاؤها من دول آسيا الوسطى فرصتها التاريخية لمواجهة المد الإسلامي السني الذي أخذ أشكالاً عنفية في بعض ممارساته، تلك المواجهة التي اندرجت تحت شعار (مكافحة الإرهاب).

في تلك الأثناء، تحدث الرئيس فلاديمير بوتين في العديد من خطبه عمّا سماه خطر الإسلام الوهابي الذي يعتبره السبب الرئيس في «الإرهاب العالمي»، الذي يضرب في روسيا أيضاً. وهذا ما دعا الحكومة الروسية إلى اتخاذ إجراءات سميت بالوقائية في إطار قانون مكافحة الإرهاب للحد من تأثير الإسلام المتطرف في روسيا ومحيطها الإقليمي. ومن هذه الإجراءات: تصنيف مؤسسة الوقف الإسلامي ومؤسسة الحرمين الخيرية ضمن المنظمات الإرهابية ومنع أنشطتها، ومحاربة دعاتها، وحظّر عمل جمعية الإصلاح الكويتية التي كانت تمول بعض الجامعات، ومنع الطلبة من الدراسة في السعودية ومصر وباكستان وتركيا وقطر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه وقبل قرار الحظر، كانت دولة باكستان أول دولة تستقبل مسلمين من روسيا وآسيا الوسطى وصل عددهم إلى ١٢٠٠٠ طالب احتضنتهم الجامعة الإسلامية في العاصمة إسلام أباد. وقد مهد لذلك العالم الطاجيكي محمد أكبر تورجان زاده رئيس الدائرة الدينية في إقليم طاجيكستان.

وفي هذا المجال تقول الباحثة الروسية المسلمة «غالينيا حيزريفا»، وهي تعمل في المعهد الروسي للأبحاث الاستراتيجية ومؤسسة سلسلة «الأممية الوهابية»: «إن أولئك الذين يعودون من البلدان الإسلامية، ومن غير المهم أكانوا يدرسون أم يقاتلون هناك، فهم فور عودتهم، ينشئون بنية مضادة للنظام الاجتماعي في روسيا، ربما آن

أوان إعادة النظر في القوانين بشكل عام، فالإسلاموية أيديولوجيا غير قابلة للاتفاق، فهي من حيث المبدأ معدة للحرب. وأنا واثقة أنه طالما لم يفت الأوان بعد، فيجب اعتماد قانون يمنع الوهابية».

أما رومان سيلانيتي الأستاذ المساعد في جامعة العلوم الإنسانية في موسكو فيقول: «إن المجتمع الروسي لا يتحلى بالمسوؤلية المطلوبة، وقد أدى ذلك إلى نشوء وهابية أممية في روسيا، وهي شكل من اتحاد المجرمين والمتعصبين والمتطرفين الدينيين والمستجدين في اعتناق الدين».

ويقول مخائيل مارغيلوف، النائب الأول لرئيس لجنة الاتحادات الأهلية والمنظمات الدينية في البرلمان الروسي«الدوما»: «على السلطات وضع قائمة خاصة بالمعاهد الإسلامية الأجنبية الممنوعة لترويجها آراء دينية متطرفة، من أجل منع الطلاب الروس من الدراسة فيها، إذ يحصلون على تعاليم وشرح غير تقليدي للإسلام في معاهد تدريسية منفصلة في السعودية وباكستان وقطر وتركيا ومصر. وهذه المعاهد معروفة... يجب على ممثلي وزارة التعليم والبحوث وأجهزة الأمن الروسية الخاصة المشاركة في إعداد قائمة عامة اتحادية للمعاهد الدينية غير المرغوب فيها».

لقد اعتبرت حركة الإخوان المسلمين والجماعات السلفية وحزب التحرير وجماعة التبليغ جماعات ومنظمات إرهابية، وأضيفت إليها في العام ٢٠١٤، جبهة النصرة وتنظيم داعش.

كما صدرت القائمة الاتحادية الكاملة للكتب الإسلامية المتطرفة، حيث نصت المادة ١٣ من القانون الاتحادي في ٢٥/ ٠٢/ ٢٠٠٢ رقم ١١٤ / ف/ ز المتعلق بمكافحة الأنشطة المتطرفة، الفقرة ٧ من وزارة العدل في الاتحاد الروسي التي وافقت على المرسوم الصادر عن رئيس الاتحاد الروسي فلاديمير بوتين في ١٣/ ٠٤/ ٢٠٠٤ تحت رقم ١٣١٣ الذي يحدد المواد المتطرفة ويمنع إنتاجها ونشرها أو إدخالها إلى البلاد، ويعاقب المخالف لهذا المرسوم بالسجن. وقد تمت محاكمة مئات المسلمين، وأصدرت المحاكم الفيدرالية أكثر من ٣٠٦٠ قراراً قضائياً تنفيذاً لهذه المراسيم القانونية. ومن أبرز الكتب التي وردت في المرسوم القانوني:

منع ترجمة القرآن بالروسية لألمير كوليف، وهو دكتور أذري يتقن اللغة العربية، وعمل في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، (حصن المسلم) للقحطاني، رياض الصالحين، كتب ابن تيمية، كتب محمد صالح المنجد، كتب محمد جميل زينو، مؤلفات صالح آل الشيخ، الرحيق المختوم للمبارك كفوري، شخصية المسلم لمحمد علي الهاشمي، تفسير ابن كثير، كتاب التوحيد، كتب ابن عثيمين وابن باز، جميع أعمال بديع الزمان النورسي.

وبموازاة ذلك، تمّ التعاون مع الفرق الصوفية بخاصّة، والاستعانة بمؤسسة طابة الصوفية، التي تعقد مؤتمرات دورية في الشيشان لنشر التصوف والترويج للإسلام المعتدل ومحاربة ما يسمى السلفية الوهابية.

إنّ هدف الروس من وراء ذلك هو جعل الشيشان، القوة الإسلامية الأساسية المصطدمة بالدولة الروسية في شمال القوقاز أنموذجاً للإسلام المعتدل، أو كما يحلو للبعض تسميته الإسلام الأرثوذكسي. ويقود هذه العملية رئيس الشيشان رمضان قاديروف الذي يتهمه مسلمو القوقاز بأنه مُعيّن من قبل الرئيس بوتين. واللافت أن الأزهر لم يغب عن المشاركة في هذه المؤتمرات الصوفية في غروزني عاصمة الشيشان، التي تستبعد عنها عادة المرجعيات الدينية السعودية.

فقاديروف الذي ينظم النشاطات والتظاهرات التي تحمل شعارات التأييد للإسلام، يكرر في خطبه أمام المسلمين الشيشان، أن الرئيس بوتين صديق للمسلمين. ولكن في الوقت نفسه يتوعد في خطبه بتعذيب وقتل كل من يحمل الفكر السلفي الوهابي، ويتعهد بمطاردة هذه الأفكار الخبيثة حسب وصفه في روسيا وجوارها، لأنها هي المسؤولة عن محاربة روسيا المسالمة التي دافعت وتدافع عن نفسها أمام موجات التطرف.

يقول الشيخ عبد الهادي القصبي شيخ مشايخ الطرق الصوفية من التابعية المصرية الذي شارك في أحد المؤتمرات الصوفية التي عقدها قاديروف في غروزني: «سوف يتم توقيع بروتوكول للتعاون بين المشيخة العامة للطرق الصوفية ودولة الشيشان من أجل التواصل ونشر الصوفية هناك، مشيراً إلى أن الشيشان بلد عظيم ولديه استجابة واضحة نحو الإسلام المعتدل بعيداً عن التطرف». أما المستشار الديني

للرئيس الشيشاني الدكتور شاهديوف، وفي معرض حديثه عن أهمية عقد مؤتمر التصوف للشعب الشيشاني وللمسلمين في روسيا يقول: «عاشت المنطقة في مشكلات ونزاعات وأفكار متطرفة ومتشددة تسببت في قتل آلاف الأبرياء».

الفصل الرابع

المسلمون الروس في العهد القيصري

الصراع والتعايش الروسي ـ التتاري

استمر الروس الذين أسسوا لاحقاً الدولة الروسية حتى العام ١٣٨٠م تحت سيطرة المغول التتار. بعد هذا التاريخ، تمكنوا من اجتياح الخانات التتارية في قازان وأستراخان في العام ١٥٥٢ وفي سيبيريا في العام ١٥٥٦.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الإمبراطورية الروسية في حالة تصادم وتصالح مع تتار آسيا الوسطى التي اجتاحها القيصر الروسي في العام ١٧٣١م.

وبفعل هذا التداخل والصراع والتعايش الروسي التتاري نلحظ أن عدداً من القادة الروس مثل بوريس غوديتوف وتورغينيف ولينين هم من أصول تتارية. وعلى عكس التتار فإن البشكيريين كانوا في حالة حرب دائمة وثورات لم تنقطع ضد الروس.

ثم تلا ذلك حرب تتار الفولغا المقدسة ضد الاستعمار الروسي في العام ١٧٥٥، وضد اجتياح الروس لخانات القرم في العام ١٧٨٣. وفي القرن التاسع عشر، ومع نجاح الإمبراطورية الروسية في السيطرة على آسيا الوسطى وشمال القوقاز تراجع تأثير التتار. وأدى الضغط

الانتقامي للروس على جبهة البلقان وأرمينيا، بما في ذلك في اسطنبول، إلى تهجير مئات ألوف القوقازيين والتركمان من أراضي روسيا إلى أراضي السلطنة العثمانية. وكردة فعل على هذا التهجير الكبير تولدت لاحقاً حركة النخبة الجهادية من القوميين التتار والطورانيين الأتراك والتي تلاحقت وتوحدت مع أفكار ميرسيد سلطان غاليف (١٨٩٢-١٩٤٠)، الذي كان ينظّر لاشتراكية إسلامية تتلاقى مع الاشتراكية السوفياتية. تلك النظرية التي أودت بحياته لاحقاً على يد ستالين.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن النظام القيصري الروسي قد ترك إرثاً ثقيلاً من العلاقات السيئة مع المسلمين الروس أقلّه خلال القرون الثلاثة الأخيرة من عمره. في هذه الحقبة وحدها خاضت روسيا القيصرية ١١ حرباً ضد السلطنة العثمانية.

والجيش الإمبراطوري الروسي الذي احتل شمال القوقاز من العام ١٨١٦ حتى العام ١٨٥٦، لم يهدأ حتى نال من الإمام شاميل إمام الشيشانيين.

إذاً، كان القيصر الروسي في القرن التاسع عشر ينظر إلى المسلمين الذين وقعوا تحت احتلال جيشه بأنهم عصاة متمردون يجب أن يخضعهم لسلطانه. ومع ذلك، فقد ناهز عدد مساجد المسلمين في جغرافية الإمبراطورية الروسية في آسيا الوسطى وشمال القوقاز والفولغا، والقرم وسيبيريا الـ١٢٠٠٠ مسجد.

... يعود تاريخ الصراع الأول بين الروس والمسلمين إلى القرن التاسع الميلادي، وتحديداً إلى بداية تأسيس إمارة أجداد الروس

الحاليين التي كانت تدعى (كييف روس) عندما قامت القبائل السلافية الشرقية بتوحيد صفوفها وتشكيل جيش قوي تمكن من تدمير مملكة الخزر التي كانت تعيش أيامها الأخيرة.

والخزر لم يكونوا مسلمين في الأصل، إنما هم مجموعة قبائل متعددة الديانات بينها الوثنية واليهودية. ولكن مع تزايد نفوذ الروس في جوارهم اضطرت شريحة منهم مع ملكهم الذي كان يهودياً إلى اعتناق الإسلام طمعاً في الحصول على دعم من الأندلس لصد الاجتياح الروسي لمناطقهم بقيادة أمير كييف الوثني (سفيتسلاف الأول).

لقد عرفت إمارة أجداد الروس (كييف روس) ازدهاراً كبيراً مع تحولها أيام الأمير فلاديمير الأول من الوثنية إلى المسيحية بعدما أرسل عام ٩٨٧م موفدين إلى مناطق الجوار التي كانت تدين باليهودية والمسيحية والإسلام، فعادوا إليه بمزايا الديانات الثلاث، فاختار بحسب مؤرخي تلك الحقبة اعتناق المسيحية على الإسلام واليهودية، لأن هاتين الديانتين تحرمان شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وتأمران بالتزهد في الحياة بدلاً من التمتع بها. وهكذا تبنت الإمارة في القرن الحادي عشر المذهب المسيحي الأرثوذكسي الذي لا يزال متبعاً في روسيا حتى اليوم.

الغزو المغولي والحكم التتاري لروسيا

عاشت الإمارة الروسية حتى القرن الثالث عشر عصراً من الحياة الباذخة في أوساط الطبقة الحاكمة وشهدت في هذه المرحلة خلافات

وصراعات حادة على وراثة الحكم ما جعل الطريق معبدة أمام الغزاة المغول الذين فتكوا بالإمارة وأهلها ودمروا مدنها الرئيسة، موسكو وكييف وفلاديمير وكولومنا... وبعد أن بسط المغول سيطرتهم على تلك المنطقة، لم يرغبوا في حُكمها بأنفسهم فمنحوا كل المدن الروسية الكبيرة استقلالاً ذاتياً داخل الإمبراطورية المغولية. ونظراً لأن أغلبية الجيش المغولي الذي تمدد في تلك المنطقة كان من قبائل التتار الترك التي اعتنقت الإسلام فيما بعد، أولوا التتار الإشراف على الأمراء الروس الذين يحكمون إماراتهم ويسددون الفدية أو الضريبة إلى الحاكم التتاري الذي بات مسؤولاً عن إدارة شؤون الشطر الغربي من إمبراطورية المغول، وكان مقر حكمه في مدينة (ساراي) التي بناها التتار على ضفاف نهر الفولغا. في هذه المرحلة انتشرت اللغة التتارية بين الروس خصوصاً لدى رجال الكنيسة، وفي أوساط الأمراء الذين كانوا يتنافسون في إرضاء الحاكم التتاري. وكان الروس في تلك الحقبة يعتمدون على التتار في صد هجمات فرسان تيوتون (تنظيم ألماني مسيحي كاثوليكي متطرف).

وبمرور الوقت، وانتهاء الحروب الصليبية وزوال الخطر الذي كان يشكله المتطرفون الكاثوليك على المجمعات الروسية الأرثوذكسية، بدأت الكنائس الأرثوذكسية تنظيم الاحتجاجات الشعبية وتحريكها ضد التتار في الوقت الذي كان الفساد يستشري في أوساط الطغمة الحاكمة الثرية من حاشية الأمراء الروس الذين راحوا يزيدون

الإتاوات على شعوبهم، وطوروا تجارة الرقيق الأبيض والاتجار بالبشر عبر العصابات التي كانت تنقل النساء والشبان من الإمارات الروسية وتبيعهم إلى أثرياء السلطنة العثمانية (أواسط القرن الرابع عشر).

لقد أثمرت جهود الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في تلك الحقبة في توحيد الإمارات الروسية تحت قيادة دوق موسكو (إيفان العظيم) الذي ظفر بالحكم بعد إنهاء حكم التتار سنة ١٤٨٠م ووضع الأسس الجديدة للدولة الروسية، وأعاد بناء الكرملين في موسكو.

أُعجب الروس بالصفات القيادية التي تمتع بها المسلمون التتار، فكان ذلك أحد العوامل التي دفعت القيصر (إيفان الرهيب) حفيد (إيفان العظيم) قبل موته في العام ١٥٨٤ إلى تعيين التتاري بوريس غودونوف وصياً على ابنه المعوق (فيودور) الذي ورث منصب القيصر بعد وفاته.

وبعد موت (فيودور) انتخب مجلس الأراضي عام ١٥٩١م غودونوف قيصراً لروسيا بعد أن اعتنق المسيحية.

استمر غودونوف في قيادة الإمبراطورية الروسية حتى وفاته في العام ١٦٠٥م. وقد سار خلال حكمه على خطى إيفان الرهيب في توسيع أراضي الإمبراطورية وقتال القبائل التتارية الإسلامية شرقاً، والقبائل الجرمانية الكاثوليكية غرباً...

تولى فيودور الثاني الحكم بعد وفاة والده غودونوف، غير أن المتطرفين الروس دسوا له السم في الطعام وقتلوه بعد أقل من شهرين

من توليه السلطة. وبعد موته سادت روسيا سنوات من الفوضى تولى الحكم فيها ثلاثة قياصرة زعم كل منهم أنه ديمتري الابن الأصغر لإيفان الرهيب ليتبين لاحقاً أن الثلاثة انتحلوا تلك الشخصية زوراً.

استمر الصراع على الكرسي القيصري إلى حين وصول (بيتر الأول) إلى سدة الحكم. وفي حلول العام ١٧٢١م نجح القيصر الجديد في تأسيس ما صار يعرف في العالم بالإمبراطورية الروسية.

متأثراً بنصائح مستشاريه من أصول أوروبية غربية، وضع بيتر الأول نصب عينيه منذ السنوات الأولى لتوليه الحكم توسيع الإمبراطورية. لذلك سعى إلى احتلال ثلاث مناطق استراتيجية تحوّل روسيا إلى إمبراطورية عظمى، وهي البحار الثلاثة:

البحر الأسود، الذي كان تحت سيطرة السلطنة العثمانية، بحر البلطيق، الذي كان تحت سيطرة إمبراطورية السويد، وبحر قزوين، الذي كان تحت سيطرة الدولة الصفوية (الإيرانية).

وما أن حلّ العام ١٧٢٣ حتى تمكن بيتر الأول من تحقيق أهدافه تلك بعد حروب على الجبهات الثلاث دامت سنوات عديدة. ورغم الهزائم والخسائر التي مني بها الجيش الروسي في بعض المعارك ضد السويديين أو العثمانيين أو الصفويين إلا أن بيتر الأول استمر مصمماً على تحقيق أهدافه، فكان يهادن ويعقد التحالفات ويعود ليعد العدة لهجوم جديد إلى أن نجح في توسيع الإمبراطورية الروسية، باتجاه شمال القوقاز عندما استولى على منطقتي دربنت وباكو، ومقاطعات

شيرفان وجيلان واستراباد. وعقب وفاة بيتر الأول تولت الكرسي القيصري كاترين الأولى ومن بعدها آلت إلى آنا التي أشعلت الجبهة الروسية العثمانية بهدف الحد من هجمات التتار على السفن الروسية كلما أرادت عبور البحر الأسود. ولم يتمكن الروس من تثبيت أقدامهم على ضفاف البحر الأسود إلا في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية سنة ١٧٦٨ حيث تمكنت من انتزاع شبه جزيرة القرم من العثمانيين بعد حرب دامت سبع سنوات، وانتهت بتوقيع اتفاقية أدت إلى منح القرم استقلالاً ذاتياً ضمن الإمبراطورية الروسية.

التوسع الروسي باتجاه شرقي القوقاز

توسع الروس في حروبهم مع جيرانهم المسلمين في القرن التاسع عشر. ففي مطلع العام ١٨٠٤م قرر الروس توسيع نفوذهم إلى الجزء الشرقي من منطقة القوقاز التي كانت تحت سيطرة دولة القاجوريين حكام بلاد فارس الجدد. وبعد تسع سنوات من المعارك في عهد القيصر ألكسندر الأول استسلم القاجوريون في عهد الشاه الإيراني فتح علي شاه قاجار، ووقعوا معاهدة (كلستان) التي على أساسها جرى ضم جورجيا وإقليم داغستان إلى الإمبراطورية الروسية.

وعلى الرغم مما حققته كاترين الثانية على ضفاف البحر الأسود، غير أن الهاجس الروسي في ضرورة السيطرة التامة على المياه الدافئة، دفع القيصر الروسي نيقولاي الأول إلى انتهاج سياسة وضع اليد على ما تبقى من مناطق تحت الإدراة العثمانية في البحر الأسود. فاستغل القيصر

الروسي حالة الوهن التي كانت قد أصابت السلطنة في عقودها الأخيرة، وشن حرباً ضد قواتها في العام ١٨٥٣ عُرفت بحرب القرم أو الحرب الشرقية. ولكن مساندة جيش مملكة سردينيا وجيوش الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية لجيش السلطنة العثمانية في مواجهة الجيش الروسي، أدت إلى انتصار الحلفاء في هذه الحرب على الروس في العام ١٨٥٦ وتوقيع معاهدة باريس التي نصت على وجوب احترام سيادة أراضي الدولة العثمانية. هذه الهزيمة التي مني بها الروس في حرب القرم، دفعتهم إلى صب جام غضبهم على إقليم شركيسيا ذي الغالبية المسلمة الذي كان في وقت سابق ضمن السلطنة العثمانية قبل أن يصبح كياناً حيادياً مستقلاً بموجب اتفاق فيينا في العام ١٨١٤.

لقد أشار وزير الحرب الروسي في ذلك الوقت ديمتري ميليوتين على القيصر الروسي ألكسندر الثالث بضرورة تهجير سكان شركيسيا المسلمين إلى مناطق الدولة العثمانية واستبدالهم بمسيحيين. وهكذا استمرت عمليات الترحيل القسري للشركس من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٧. وقدر عدد من المؤرخين لتلك الحقبة أن حوالى مليون ونصف مليون نسمة من شركيسيا جرى توزيعهم على مناطق في الدولة العثمانية بما في ذلك سوريا ولبنان والأردن وتركيا، بينما قام الروس ابتداءً من ٢١ أيار ١٨٦٤ بسفك دماء ما لا يقل عن ٦٢٥ ألف مسلم رفضوا ترك ديارهم. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن مدينة سوتشي على البحر الأسود كانت تقع في الماضي في شركيسيا، ولهذا شهدت

هذه المدينة في العام ٢٠١٤ تظاهرات عدة أثناء استضافتها للألعاب الأولمبية الشتوية بهدف التذكير بالإبادة التي تعرض لها أجدادهم على أيدي الروس.

وبين عامي ١٨٧٧-١٨٧٨، تمكن الروس من توجيه طعنة جديدة للسلطنة العثمانية، فشنوا حرباً شاملة عليها بالارتكاز على دور الانفصاليين داخل الشطر الشرقي للسلطنة فألحقوا بها خسائر فادحة أدت إلى استيلاء روسيا على منطقتَي~ كارس وباتومي، وتأسيس دولة بلقاريا، وحصول رومانيا وصربيا والجبل الأسود على استقلالها عن السلطنة العثمانية.

وكانت خاتمة الحروب الروسية ضد السلطنة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى وفي معارك جبهة القوقاز التي استمرت مدة أربعة أعوام بين عامي ١٩١٤-١٩١٨، تلك الحرب التي تخللتها إبادة الأتراك للأرمن. وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى انتهى في الواقع ما كان يعرف بالإمبراطورية الروسية والسلطنة العثمانية فولد الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٢ والجمهورية التركية عام ١٩٢٣.

ما هي أهم نتائج سياسة استيلاء القياصرة على الأراضي الإسلامية

بدأت محاولات روسيا ضم الأراضي الإسلامية في عهد بطرس الأول، وامتدت هذه المرحلة ما بين سنوات ١٧١٤م و١٨٩٧م.

ثم كانت حركة الضم الثانية، وكانت ضد الخانات التي انتهت فيها (إمبراطورية بوغر) في سنة ١٨٩٧م. وفي أثناء هذه المراحل استولى الروس على القرم سنة ١٧٨٣م، على قرغيزيا في أواخر القرن الثامن عشر وعلى جبال القوقاز في مطلع القرن التاسع عشر، وتم الاستيلاء على منطقة تركستان في أواخر العام ١٨٨١م. وقد أمضى الروس ١٨٢ سنة في إخضاع منطقة التركستان الإسلامية.

لقد شهدت الأقاليم الإسلامية في ظل حكم أسرة آل رومانوف ثورات وانتفاضات إسلامية ضد الحكم القيصري، وفي عهد الإمبراطورة كاترين الثانية سنة (١٧٧٣م)، وبعدما فشل أسلافها في تحويل المسلمين عن إسلامهم، افتتحت في روسيا المدارس الاستشراقية للاهتمام بالثقافة الإسلامية. من هذه الخلفية عدّ المسلمون عهد كاترين الثانية العصر الذهبي بالنسبة إليهم، نتيجة ما عرفوه في عهدها من سماحة، وما رسمته لمن بعدها من القياصرة حول سياسة التسامح مع المسلمين الروس.

وعلى خلاف اليهود كان المسلمون أصحاب ولاء للمواطنة والحاكم، في حين لم يكن اليهود أصحاب ولاء كما عُرف عنهم في المجتمعات التي يعيشون فيها. فقد أقدم اليهود في موسكو بتاريخ (١/ ٣/ ١٨٨١م) على اغتيال القيصر الروسي الكسندر الثاني بتحريض من الإنكليز، رداً على سياسته في مد جسور العلاقة مع أفغانستان. وكان من نتائج هذا الحادث أن نزلت باليهود عمليات إبادة على أيدي

الروس ترتب عليها أكبر هجرة لليهود إلى دول أوروبا.. (كتاب: تلفيق الأخبار في وقائع قازان وبلقار وبلاد التتار، للعالم التتاري م.م الترمذي وكانت الطبعة الأولى منه سنة ٥٨٨١م. باللغة العربية).

ولكن في عهد آخر القياصرة الروس(نيكولاي الثاني)، بارك المسلمون في العالم الإسلامي انتصار اليابانيين على الروس في حرب (١٩٠٤-١٩٠٥م)، ثأراً لحروب روسيا ضد الدولة العثمانية، التي كانت هي بدورها دعمت اليابان سياسياً ضد الروس.

وعلى وقع تلك الحرب ونتائجها، شهدت روسيا ما عرف بالثورة البلشفية الأولى سنة (١٩٠٥م)، والتي لم يكتب لها النجاح. ومضى البلاشفة في الإعداد لثورة على الحكم القيصري، فكانت الثورة البلشفية في ١٧/ ١٠/ ١٩١٧ بقيادة فلاديمير أيلتش لينين، حيث تم فيها اعتقال القيصر(نيكولاي الثاني) مع أفراد أسرته الثلاثة عشر وتم إعدامهم في ١٨/ ٧/ ١٩١٨.

وعن المؤثرات الإسلامية في الأدب الروسي، تجدر الإشارة إلى الدراسة القيمة للأديبة مكارم الغمري تحت عنوان» مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي«. وقد نشرت في سلسلة عالم المعرفة العدد رقم ١٥٥. وتركزت الدراسة على متابعة آثار أربعة أدباء روس هم: الكسندر بوشكين، وتولستوي، وميخائيل ليرمونتوف، وإيفان بوتين. وهؤلاء من كبار الأدباء الروس، الذين أنصفوا الرسالة الإسلامية.

فلتولستوي كتاب في هذا المجال عنوانه: (من حِكَم النبي محمد)، وفيه تناول البحث في اثنين وتسعين حديثاً نبوياً، الأمر الذي مكّنه من التواصل مع الشيخ محمد عبدو. وفي منزل تولستوي الذي تحول إلى متحف يحمل اسمه، توجد الرسالتان اللتان وصلتاه من الشيخ محمد عبده. وله روايتان تكلم فيهما عن الظلم الذي نزل بمسلمي روسيا على يد القياصرة، الرواية الأولى (الحاج مراد) والرواية الثانية (فتاة من القوقاز).

المسلمون التتار في شبه جزيرة القرم

تقع شبه جزيرة القرم التي تبلغ مساحتها ٢٧ ألف كلم٢ بين البحر الأسود غرباً وجنوباً، والبحر الأزرق شرقاً، وترتبط بالقارة الأوروبية عبر برزخ بيريكوب البالغ عرضه ثمانية كيلومترات. وإضافة إلى موقعها الإستراتيجي، تتمتع شبه جزيرة القرم بالعديد من الثروات الطبيعية التي جعلتها محط أنظار العالم لا سيما الروس، حيث توجد أكبر قاعدة عسكرية للأسطول الروسي في البحر الأسود في إحدى مدن هذا الإقليم. استولت عليها كاترين الثانية من التتار في العام ١٧٧٤ وأصبحت جزءاً من أراضي روسيا الاتحادية ثم الاتحاد السوفياتي لاحقاً.

وفي العام ١٩٥٧ ضمها الرئيس السوفياتي نيكيتا خروتشوف ذو الأصول الأوكرانية إلى جمهورية أوكرانيا السوفياتية. وبعد تفكك

الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٩١ كانت شبه جزيرة القرم الجمهورية الوحيدة المستقلة ذاتياً ضمن جمهورية أوكرانيا ثاني أكبر دول أوروبا الشرقية المستقلة عن الاتحاد السوفياتي السابق.

ومنذ تفكك الاتحاد السوفياتي، كانت شبه جزيرة القرم حلماً يراود الروس من أجل استعادتها. وقد أثاروا في سبيل ذلك الكثير من النزاعات والمشكلات داخل النسيج الاجتماعي لهذا الإقليم الذي يعيش فيه غالبية مسلمي أوكرانيا. وقد نجح الروس في العام ٢٠١٥ في عهد الرئيس بوتين في استعادة شبه جزيرة القرم إلى جغرافية روسيا الاتحادية، وتتعرض روسيا جراء ذلك لحصار دولي بهدف الضغط على القيادة الروسية للتراجع عن قرار ضم هذا الإقليم إلى روسيا الاتحادية.

تاريخ وجود التتار في شبه جزيرة القرم

أقام التتار في شبه جزيرة القرم منذ القرون الوسطى. وهم قبائل تركية اتحدت مع قبائل المغول ذات الأصول المشتركة، وسيطرت في القرن الثالث عشر على مناطق واسعة من آسيا وأوروبا.

استوطنت القبائل التتارية شبه جزيرة القرم واتخذت فيما بعد الإسلام ديناً لها وذلك بعد العام ١٣١٤م. وأسس التتار في شبه الجزيرة خانية القرم عام ١٤٤١، وظلت تعرف باسم بلاد التتار الصغرى ردحاً طويلاً من الزمن.

في العام ١٤٧٨ قبل مسلمو التتار سيادة الدولة العثمانية عليهم، لكنهم بقوا يتمتعون باستقلالية صنع قراراتهم المحلية...

وفي عهد السلطان محمد الفاتح (١٥٢١م) خضعت خانية القرم لحكم العثمانيين وأصبحت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية وعاصمتها مدينة «بخش السرايا».

وفي مرحلة لاحقة تمكن تتار القرم من تشكيل قوة إقليمية وازنة استطاعوا من خلالها رد اعتداءات الروس واستفزازاتهم المتكررة، لا بل تمكنوا من محاصرة موسكو في العام ١٥٧١ وفرضوا عليها الجزية. وفي العام ١٦٧٨م، حاصر بطرس الأول القرم، لكنه فشل في احتلالها. وتوالت محاولات الروس بعد ذلك لاحتلال شبه الجزيرة بهدف الوصول إلى المياه الدافئة، لكن حملاتهم المتكررة باءت بالفشل. وفي العام ١٧٧١ تمكن تتار القرم مع حلفائهم العثمانيين من فرض الهزيمة على روسيا القيصرية. بعدها دارت حروب طويلة بين الجانبين تخلت في نهايتها الدولة العثمانية عن السواحل الشمالية للبحر الأسود بما فيها شبه جزيرة القرم، التي أعلنت فيما بعد انفصالها واستقلالها عن الدولة العثمانية. وبعد ذلك سقطت بيد جيش روسيا القيصرية في عهد كاترين الثانية في العام ١٧٧٤. استسلمت خانية القرم بموجب معاهدة «كوجك قينارجة»، وجعلها قياصرة روسيا لاحقاً ولاية تابعة لهم دون أن يمنحوها حق الاستقلال. وتم ضمها رسمياً إلى روسيا القيصرية في العام ١٧٨٣، واعترفت الدولة العثمانية رسمياً بسيادة القياصرة على شبه جزيرة القرم في العام ١٨٢٩م.

وتشير العديد من المصادر إلى أن عدداً من تتار القرم أرغموا على ترك قراهم ومدنهم، حيث رحلوا إلى نواحي آسيا الوسطى (كازاخستان)، في الفترة ما بين ١٨٦٠-١٨٦٣. ويذكر أيضاً أن هجرات جماعية لعائلات تتارية إلى الدولة العثمانية حصلت في الأعوام ما بين ١٨٦٠-١٨٧٠ و١٨٩١ و١٩٠٢، الأمر الذي أدى إلى انخفاض عدد سكان القرم من المسلمين إلى الثلث تقريباً بحلول العام ١٨٩٧، وحلّ محلهم مستوطنون جدد روس وأرمن وأوكران، بلغ عددهم حوالى ٤٥٪ من إجمالي سكان شبه الجزيرة.

محطات مأسوية في حياة المسلمين الروس التتار في العهود القيصرية

في العام ١٧٧١م، وبعد سقوط شبه جزيرة القرم بيد الجيوش الروسية واحتلال عاصمتها، قتل أكثر من ٣٥٠ ألف تتاري، وانتشرت جثثهم في كل مكان ولم تجد من يدفنها. فانتشرت الأوبئة والأمراض ما أدى إلى وفاة عدد من أفراد الجيش الروسي وعدد كبير من السكان المحليين. نُفذت المجازر بحق التتار تطبيقاً لشعار الجيش القيصري آنذاك «من غير انتظار ولا عودة... يجب محو التتار من هذه الأرض»، ما اضطر مليون و٢٠٠ ألف تتاري مسلم للفرار إلى تركيا، فيما هجّرت السلطات الروسية القيصرية من تبقى منهم إلى داخل الأراضي الخاضعة لها. وقام الجيش الروسي القيصري بنفي حوالى خمسماية ألف تتاري

مسلم بعيداً عن بلادهم، وأحل الروس مكانهم. ومع ازدياد عمليات التهجير الإجباري لمسلمي القرم، أصبح هؤلاء أقلية في بلادهم.

في العام١٧٨٣، قامت القوات الروسية القيصرية بعدة حملات تهجير بحق مسلمي إقليم شبه جزيرة القرم إلى سيبيريا المعروفة بأنها أكبر صحراء جليدية في العالم.

هذا فضلاً عن التهجير الذي لحق بهم إلى دول آسيا الوسطى وإلى تركيا وبلقاريا ورومانيا بعدما مارست السلطات القيصرية ضدهم أنواعاً شتى من العنف، وهدمت مساجدهم ومدارسهم وبيوتهم، وأحرقوا مصاحفهم وجميع وثائقهم التي كانت تعد إرثاً تاريخياً وحضارياً هاماً بالنسبة إلى تتار القرم.

الفصل الخامس

مسلمو روسيا في العهد السوفياتي

المسلمون الروس عشية الثورة البلشفية

بعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا، وقبل أن يستتب الأمر للشيوعيين، أراد لينين استمالة المسلمين إلى جانب الثورة من خلال استثارتهم ضد الحكم القيصري الذي كان يضطهدهم ويعتدي على حرماتهم، وذلك من أجل أن يساند المسلمون الشيوعيين الثائرين. وفي هذا السياق أصدر مجلس (كوميسيري comissaires) البلشفيك (معناها الأكثرية وهي تسمية الشيوعيين الروس لاحقاً) نداء موجهاً إلى المسلمين سنة ١٩١٧ جاء فيه: «إن إمبراطورية السلب والعنف والرأسمالية توشك أن تنهار، والأرض التي تقف عليها أقدام اللصوص الاستعماريين تشتعل ناراً. في وجه هذه الأحداث الجسام نتجه بأنظارنا إليكم أنتم يا مسلمي روسيا والشرق، أنتم يا من تَشقون وتكدحون، وعلى الرغم من ذلك تُحرمون من كل حق أنتم أهل له. أيها المسلمون في روسيا، أيها التتار على شواطئ الفولغا وفي القرم، أيها القرغيز والسارتيون في سيبيريا والتركمانستان، أيها التتار والأتراك في القوقاز، أيها الشيشانيون، أيها الجبليون في أنحاء القوقاز، أنتم يا من انتُهكت حرمات مساجدكم وقبوركم، واعتُدي على عقائدكم وعاداتكم،

وداس القياصرة والطغاة الروس مقدساتكم، ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم وحريةُ نظمكم القومية، وجمعياتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم، لا يطغى عليها طاغٍ، ولا يعتدي عليها معتدٍ.

هبوا إذاً، فابنوا حياتكم القومية كيفما شئتم، فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تشتهون حائل، إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين. واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن سائر أفراد الشعب الروسي، تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة، وبكل ما يتوافر لها من وسائل: جُند أشداء، ومجالس للعمل، ومندوبون عن الفلاحين..».

كان الهدف من هذا النداء شد أزر الثورة والأخذ بيد حكومتها الشرعية.

فما كان من المسلمين حين وصلهم ذلك النداء إلا أن أسرعوا يجمعون قواهم.. حيث بادرت، إثر ذلك، شعوب إسلامية كانت مستعمرة ومضطهدة تحت الحكم الروسي القيصري في داخل روسيا أو في مستعمرات روسيا القيصرية في آسيا الوسطى، فأعلنت استقلالها، واستعادت سيادتها على أراضيها.

وقامت جمهوريات إسلامية عديدة داخل الجغرافيا الروسية وفي المستعمرات القيصرية السابقة، في آسيا الوسطى، لكنها لم تكن شيوعية، ولم تكن خاضعة خضوعاً كاملاً للشيوعيين الذين نحجوا في ثورتهم في روسيا ضد النظام القيصري.

وبعد أن ثبّت الشيوعيون أقدامهم في السلطة، وأحكموا قبضتهم على البلاد، ولما تمكّنوا واستتب لهم الأمر، قلبوا ظهر المجن، وانقلبوا

على وعودهم وتعهداتهم. فتوجهوا بجيشهم المعروف بالجيش الأحمر، وحصدوا السلطة في مختلف الجمهوريات الإسلامية. ففي غضون سنوات ثلاث استولى الشيوعيون على الجمهوريات الإسلامية، وبعدها جرت مواجهات غير متكافئة بين الجيش الأحمر وريث الجيش القيصري، وبين شعوب خرجت حديثاً من تحت نير الاستعمار القيصري.

وفي بحث له نشر في شبكة الألوكة الإسلامية الفكرية الثقافية في ٢٣/ ١٢/ ٢٠١٣ يشير الباحث عبد الكريم السمك إلى أنه يمكن القول إنّ المسلمين قد عاشوا في ظل الحكم الشيوعي على أربع مراحل جاءت على النحو الآتي:

١- مرحلة كسب ود المسلمين في ولائهم للثورة.
٢- مرحلة القمع والإبادة في الفترة بين ١٩٢٥-١٩٤٥م.
٣- مرحلة الحرب العالمية الثانية، التي كانت سبباً عند ستالين في الميل إلى التهدئة مع المسلمين، فسمح لسبعة عشر مسلماً بالسفر لحج بيت الله الحرام.
٤- العودة بعد نهاية الحرب للتنكيل بالمسلمين ابتداءً من العام ١٩٥٠م حتى حكم غورباتشوف.

المسلمون في العهد السوفياتي

منذ وصولهم إلى السلطة حاول البلشفيك إغراء ومن ثمّ احتواء مسلمي التتار والبشكير ولاحقاً مسلمي آسيا الوسطى ثم توسعوا

باتجاه الشرق من خلال خلق تيار إسلامي اشتراكي مرادف للثورة الاشتراكية التي يقودها البلاشفة أنفسهم. إلا أن هذه التجربة سرعان ما تهاوت وذهبت أدراج الرياح. فبعد سنوات عدة من وفاة لينين التقى مطلق ومبدع هذه الفكرة ميرسيد سلطان غالييف (١٨٩٢-١٩٤٠م) في اجتماع مجلس القوميات ستالين وأعاد طرح الفكرة مجدداً، فكان ضحية فكرته، حيث قُتل بعملية التطهير العرقي الستالينية.

ومنذ عشرينيات القرن الماضي وتحديداً مع بداية العهد الستاليني، لم يعد النظام السوفياتي يقيم أي وزن للإسلام وللمرادفات الإسلامية للاشتراكية، وكذلك للمسؤولين الشيوعيين المتحدرين من الجمهوريات الإسلامية، تحديداً جمهوريات آسيا الوسطى الخمس: كازاخستان، أوزبكستان، طاجيكستان، غرغيزستان، تركمانستان، فضلاً عن جمهورية أذربيجان.

وفي السنوات العشر الأولى من عمر الثورة البلشفية، انتشرت، بقوة، السياسة المناهضة للدين في الاتحاد السوفياتي وبقيت الأطر المسلمة على هامش تركيبة مؤسسات منظومة السلطة السوفياتية. وفي العام ١٩٣٠م أقفل البلشفيك معظم الجوامع، وألحقوا العدد الأكبر من رجال الدين المسلمين بالفلاحين. وبين عامي ١٩٤٣ و١٩٤٤، نفى ستالين العديد من الشعوب الإسلامية الروسية تحديداً الشيشان وتتار القرم إلى سيبيريا وآسيا الوسطى خشية تعاملهم مع قوات ألمانيا النازية الغازية لأراضي الاتحاد السوفياتي آنذاك.

وحسب أرشيف الحزب الشيوعي السوفياتي، لم يسجل وجود اسم أي مسؤول روسي أو سوفياتي مسلم في عضوية المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي في المرحلة الممتدة من العام ١٩١٧ حتى العام ١٩٥٣. إلا أنه، وبعد أفول الحقبة الستالينية الظالمة، تبوّأ عدد من القيادات من أصول إسلامية مراكز مرموقة في القيادة السوفياتية.

اعتمد الأمناء العامون للحزب الشيوعي السوفياتي الذين تعاقبوا على الأمانة العامة للحزب بعد رحيل الرجل الحديدي (ستالين) على دور قيادات الجمهوريات الإسلامية، وتحديداً المسؤولين الأوزبيك لضمان استقرار الدولة السوفياتية.

على سبيل المثال أقام خروتشوف الذي حكم من العام ١٩٥٤ إلى العام ١٩٦٤، علاقات خاصة ومميزة ومتساوية مع السكرتير الأول للجمهورية الاشتراكية الأوزبكية نور الدين محيي الدينوف، وتالياً مع وريثه شرف رشيدوف. هذا الأخير الذي أقام بدوره علاقات مميزة مع ليونيد بريجنيف (١٩٦٤-١٩٨٢). ولكن على أية حال حتى في هذه الحقبة لم يتجاوز المسؤولون من أصول إسلامية منصب العضو المرشح للمكتب السياسي في الحزب الشيوعي السوفياتي. الوحيد الذي بلغ منصباً في القيادة العليا للحزب الشيوعي السوفياتي، وكان واحداً من ١٥ يؤلفون القيادة السوفياتية الأولى هو محيي الدينوف (١٩٥٧-١٩٦١) الذي انتخب أيضاً سكرتيراً للجنة المركزية في تلك السنوات. ومن العام ١٩٦٦ حتى العام ١٩٨٧ برز عضوان فقط من

أصول إسلامية كانا في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي هما دينمحمد كونايف وحيدرعالييف، وعضو مرشح للمكتب السياسي هو شرف رشيدوف.

وانضم الكازاخي كونايف إلى المكتب السياسي في العام ١٩٧١- وبقي عضواً فيه حتى العام ١٩٨٧. أما الأذربيجاني عالييف (شيعي) فدخل إلى المكتب السياسي بعد وصول أندروبوف إلى الأمانة العامة للحزب سنة ١٩٨٢.

إلا أن أندروبوف رئيس جهاز الاستخبارات KGB الذي انتقل من هذا الموقع إلى الأمانة العامة للحزب لم يتمكن من رعاية وجود الأطر ذات الأصول الإسلامية التي قدمها إلى المكتب السياسي حيث قضى بعد ستة أشهر تقريباً من توليه هذا المنصب. وكان قبل وفاته قد دخل في تصادم مع قيادة أوزبكستان التي اتهمها بالتقصير في تنفيذ خطة إنتاج القطن، في الوقت الذي كانت هذه القيادة تبيع جزءاً من محصول القطن خارج أطر الدولة السوفياتية.

الأوزبكي الأول شرف رشيدوف العضو المرشح في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي من العام ١٩٦٦ قضى انتحاراً في العام ١٩٨٣. وكانت الصحافة السوفياتية قد أماطت اللثام لاحقاً عن انتحار رشيدوف لتعيد سبب ذلك إلى حالة مافيوية تتحكم في إدارة أوزبكستان والتصرف في مواردها. وكان أندروبوف من القليلين الذين ربطوا بين نشاط المافيا في أوزبكستان والتصرف بإنتاج القطن

فيها وتصديه لمحركها الأساسي، الأمر الذي هز العلاقة بين القيادة السوفياتية المركزية في الثمانينيات ومراكز القوى الأساسية في الجمهوريات الإسلامية. من هذه الخلفية نفهم لماذا قدّم أندروبوف حيدرعالييف من عضوية الـ KGB الأذربيجاني والجنرال السابق، في ٢٢ ت٢ نوفمبر في العام ١٩٨٢م إلى نائب رئيس الحكومة السوفياتية مانحاً إياه ثقة إضافية، للقول إنه ليس لديه مشكلة مع المسلمين.

إن تجديد القيادة السوفياتية التي بلغت ذروتها بوصول غورباتشوف إلى الأمانة العامة للحزب في العام ١٩٨٥ لم تدفع هذا الأخير لكسب القيادات ذات الأصول الإسلامية، أمثال كونايف وحيدر عليف اللذين أُبعدا عن القيادة، واستبدل كونايف على رأس الدولة في كازاخستان بالروسي غينادي غوبلن، الأمر الذي فجر تحركاً معادياً للروس في مدينة ألماآتا عاصمة كازاخستان. وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٩٨٧، نُحي حيدر علاييف من منصبه حتى العام ١٩٩٠ إلى أن تم شطب المادة السادسة من دستور الاتحاد السوفياتي التي تعتبر الحزب هو قائد الدولة والمجتمع.

في هذا الوقت لم يعد يوجد من القيادة السوفياتية العليا أي كادر من أصول إسلامية سوى حسب اللاتوف الشيشاني رئيساً لمجلس السوفيات الأعلى. فالتوازن الهش الذي كان قائماً بين النخبة الروسية والمسلمة في القيادة السوفياتية العليا بين أعوام ١٩٥٣-١٩٨٢ قد انهار كلياً، وخسرت بذلك موسكو مساندة آسيا الوسطى وأذربيجان،

تلك المساندة التي شكلت الأساس الصلب لديمومة الاتحاد السوفياتي واستقراره في العقود السابقة. وعلى العكس من ذلك تحول قادة بلدان آسيا الوسطى الذين فقدوا أي دور لهم في السلطة المركزية السوفياتية إلى قوة معارضة لسياسة البيروسترويكا والغلاسنوست الغورباتشوفية، وتصاعدت حدة العداء في تلك البلدان ضد الكرملين، وتفجّر الحقد القومي الدفين ضد الروس في مختلف جمهوريات آسيا الوسطى وأذربيجان. ويكفي أن نسوق مثلاً واحداً على تداعيات تلك التطورات، حيث أن إقالة علاييف من المكتب السياسي السوفياتي قد تزامنت مع انفجار الأوضاع الأمنية بين أذربيجان وأرمينيا على خلفية السيادة على إقليم ناغورني كاراباخ. ولم تتوان باكو في اتهام غورباتشوف بوقوفه إلى جانب أرمينيا وتحريضها على أذربيجان. أما على جبهة النشاط الديني الإسلامي، فتكفي الإشارة إلى أن عدد المساجد الذي بلغ حتى بداية القرن العشرين ١٢٠٠٠ مسجد في روسيا وآسيا الوسطى السوفياتية، قد تقلص إلى ٣٤٣ مسجداً في الثمانينيات من القرن الماضي وانحصر وجود معظمها في جمهوريات آسيا الوسطى.

وفي هذا المجال كتب (بن طاهر بليجة) في (شارتايميز) من موسوعة أرشيف التاريخ العالمي والإسلامي المؤرخ في ٣٠/٠٦/٢٠٠٩، أنه لما ظهرت آثار قوة النظام الشيوعي، أصدر «لينين» أوامره بالزحف إلى البلاد الإسلامية، فاجتاح الجيش الأحمر الروسي هذه الجمهوريات وأمعن في حملات الإبادة الجماعية للمسلمين بشكل أبشع وأقذر مما كان عليه العهد القيصري.

لقد قتل لينين عدة ملايين من المسلمين، وقتل خليفته ستالين الملايين منهم أيضاً، كما هدمت معظم المدارس والمساجد الإسلامية وتم تفتيت القوقاز إلى عدة مناطق ودويلات. كما قسمت جمهورية الشيشان إلى مقاطعة «الشيشان - أنجوشيا». وفي العام ١٩٣٦ كانت الشيشان تغطي أكثر من ثلاثة أرباع ما يحتاج إليه الاتحاد السوفياتي من النفط ومشتقاته. وقد واجه الشيشان الاحتلال الشيوعي بقوة خلال ثورات عدة ضد الظلم والقهر الشيوعيّين، منها ثورة «إبراهيم قلدقت» ١٩٣٤، وثورة «حسن إسرائيلوف» عام ١٩٤٠، وكان الشيوعيون يقمعونها بالحديد والنار».

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية قرر هتلر ضم القوقاز وأوكرانيا إلى الدولة النازية طمعاً في توفير الطعام والوقود من نتاج تلك الأراضي، ولكن الشيشان لم تتدخل في الصراع بين الفريقين (الشيوعي - النازي). نتيجة لعدم تدخل الشيشان في الحرب إلى جانب الشيوعيين، أعلنت حكومة «ستالين» أن شعوب الشيشان والأنجوش والقرم هي شعوب خائنة. وعليه بدأت في عام ١٩٤٤ عملية ترحيل جماعي عبر القطارات الطويلة لشعوب تلك المناطق إلى كازاخستان وسيبيريا، وخربت كل أراضيهم وممتلكاتهم، وهلك عشرات الآلاف نتيجة الجوع والمعاناة والتعذيب والقهر.

وفي العام ١٩٥٧، أي بعد ١٣ عاماً من إصدار الحكم الجائر بنفي هذا الشعب، أعلن الرئيس السوفياتي « نيكيتا خروتشوف» الذي ورث

ستالين على رأس السلطة السوفياتية، براءة الشيشان ومسلمي القرم من التهمة التي وجهت ضدهم وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم فعاد الكثير منهم.

وفي العام ١٩٨٢ بدأت محاولات جديدة لضم جمهوريات القوقاز إلى سلطة موسكو مباشرة، فهب شعب الشيشان ضد هذا الأمر الذي اعتبروه جوراً وظلماً، بعد ذلك استمرّ الوضع الذي كان قائماً في ظل الشيوعية حتى انهيار الدولة السوفياتية.

ما هي دوافع روسيا لغزو الشيشان في ذلك الوقت؟

إن أهم دوافع روسيا لغزو الشيشان تتلخص بالتالي:

١- حلم روسيا بتكوين إمبراطورية روسية على غرار أوروبا الموحدة.

٢- إعادة ثقتها بنفسها وهيبتها أمام العالم.

٣- استغلال لحظة تفرق المسلمين وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية، ما يمنعهم من التدخل لحماية إخوانهم الشيشانيين.

٤- يعد الشيشان من أبغض الشعوب إلى الروس، كما تذكر الأساطير والروايات الروسية.

٥- الاستفادة من النفط الشيشاني، ومن المناطق الزراعية والصناعية في الشيشان.

٦- الخوف من تفكك الاتحاد الروسي.

مقومات الشخصية الشيشانية

يقول الكاتب الروسي «سولجنستين» الذي عاصر ما فعله «ستالين» بالشيشان في معسكرات الإبعاد الجماعي والسجون في وسط آسيا: «لك أن يكسر ظهورهم، لكن أحداً لا يستطيع أن ينال من روحهم المعنوية، فقد ظلت نفوسهم نمراً مقيداً بالسلاسل، لأنهم كانوا من الشيشان الذين لا يرهبون الموت».

ويقول المؤرخ الأوروبي «روبرت كونكوست» في كتابه «قتلة الأمم»: «لقد كانوا أسوداً ذوي شهامة عسكرية تجلت في معاملتهم للأسرى والجرحى من الأعداء، ولا غرو في ذلك، فقد كان القادة هم العلماء الذين يقاتلون دفاعاً عن أرضهم ودينهم حتى آخر جندي وآخر سيف».

ولأنهم شجعان فقد اختاروا الذئب رمزاً لهم. وهم يرون أن الذئب وإن لم يكن الأقوى إلا أنه الأنبل، فهو الذي يفترس الضعفاء.

ويقول القائد الشيشاني شامل باسييف تعليقاً على تساؤل أحد الصحافيين حول الفلسفة التي ينطلق منها الشيشان باعتبار أن الذئب شعارهم: «إن الذئب عندما يموت لا يصرخ وكذلك الشيشاني، ويظل الذئب يحدق إلى عدوه حتى وهو يشارف الموت».

والحرية لدى الشيشان مقدسة وعزيزة، وهم يستخدمونها في محادثاتهم اليومية بعضهم مع بعض.

فمثلاً يقول بعضهم لضيفه: «مرحباً، إذا دخلت هذا البيت تمتع بالحرية والسلام والعطف».

وإذا تمنى أحدهم الصحة لأخيه فإنه يقول: «ليمنحك الله الحرية». والأرض والتراب مقدسان، حتى أنهم يتهمون بالكفر من يخون بلاده ولا يحافظ على ترابها.

أما النشيد الوطني الشيشاني فهذه كلماته:

«جبالنا المكسوة بحجر الصوان
عندما يدوي في أرجائها رصاص الحرب
نقف بكرامة وشرف على مر السنين
نتحدى الأعداء مهما كانت الصعاب
وبلادنا عندما تنفجر بالبارود
من المحال أن ندفن فيها إلا بشرف وكرامة».

القرم في العهد السوفياتي ومبادرة ستالين لإنشاء كيان يهودي فيه

عند قيام الثورة البلشفية في العام ١٩١٧، أعلن الشيوعيون مراراً أنهم سيتعاملون مع مسلمي روسيا معاملة الشركاء إذا ما ساندوا الثورة ضد قياصرة روسيا. كما وعد الشيوعيون المسلمين بمنح الجمهوريات الإسلامية حق تقرير المصير، أي حق الاستقلال عن روسيا، الأمر الذي دفع القرم إلى إعلان استقلالها بناء على الوعود التي تلقوها من قادة الثورة الشيوعيين.

غير أنه ورغم تلك الوعود واعتراف عدد من الدول باستقلال القرم، فقد قامت قوات السلطة الشيوعية بمهاجمة شبه جزيرة القرم مرات عدة بين عامَيْ ١٩١٨-١٩٢٠. ولكن تتار القرم أعلنوا في العام ١٩٢٠ رسمياً استقلال جمهوريتهم برئاسة نعمان خان، ما دفع الشيوعيين إلى مهاجمتها مجدداً وإسقاط حكومتها وإعدام رئيسها وإلقاء جثته في البحر، وقد ترافق ذلك مع تهجير جديد لعدد كبير من مسلمي القرم، وحرمان من تبقى من أسباب العيش الكريم.

ولعل أكبر المآسي التي عاشها المسلمون التتار كانت في عهد ستالين. ففي العام ١٩٢٨ أعدم ستالين ٣٥٠٠ تتاري من أئمة المساجد ومن المثقفين وجميع أعضاء الحكومة المحلية بمن فيهم رئيس الجمهورية «ولي إبراهيموف»، وذلك عندما أراد ستالين، بحسب بعض المصادر، إنشاء كيان يهودي في القرم، فثار عليه التتار، ما دفعه للقيام بحملة تطهير وإبادة كبيرة بحقهم تذكّر بالمذابح التي ارتكبها المغول.

وفي العام ١٩٢٩ نفى ستالين أكثر من ٤٠ ألف تتاري من فلاحي القرم إلى مناطق في سيبيريا بعدما أرغمهم على ترك مزارعهم. وفي العام ١٩٣١ توفي نحو ٦٠ ألف تتاري نتيجة المجاعة التي حلت بالقرم.

وفي العام ١٩٤٠، انخفض عدد سكان القرم إلى ٨٥٠ ألف نسمة فقط بينما كان حوالى تسعة ملايين نسمة عام ١٨٨٣، وذلك بسبب

التهجير القسري، والقتل والطرد الذي قام به الروس ضدهم. وفي ذاك العام بالذات، أمر ستالين بتجنيد ٦٠ ألف تتاري من أهل القرم في الجيش الأحمر لمحاربة النازية الهتلرية.

وفي ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٩٤١ جرّد الألمان عدداً كبيراً من جنود القرم من أسلحتهم ومعداتهم وساقوهم مسافة ١٥٠كلم سيراً على الأقدام، دون طعام أو شراب، إلى معسكرات الاعتقال، ومات كثير منهم جراء الجوع والبرد. وفي المرحلة ما بين ١٩٤٠ و١٩٤٤ قامت القوات النازية الألمانية خلال استيلائها على القرم بتهجير ٨٥ ألف تتاري إلى معسكرات حول برلين لاستغلالهم في أعمال السخرة في ألمانيا.

وفي العام ١٩٤٣، قرر جنود القرم ومن معهم من جنود القوقاز وتركستان الاستسلام للإنكليز والفرنسيين والأميركيين بعد هزيمة ألمانيا النازية، ولكن الحلفاء سلّموا عدداً كبيراً منهم إلى الروس مخالفين بذلك القوانين الدولية التي ترعى حقوق الأسرى.

وقد ورد في مقال للكاتب مصطفى عاشور في العدد ٨٤ من مجلة «التبيان» الصادرة في العام ٢٠١١، أنه من أصل ٤٠٠ ألف مسلم وقعوا في قبضة الروس، بقي فقط ستة آلاف منهم على قيد الحياة. وأنه لم يبق من تتار القرم المسلمين المقيمين في شبه الجزيرة سوى نصف مليون نسمة بسبب القتل الوحشي الذي تعرضوا له من قبل الجيش الأحمر، بعدها أمر ستالين بنفي تتار القرم إلى سيبيريا وآسيا الوسطى، بينما سيق الشباب منهم إلى معتقلات السخرة.

وفي شهر إبريل/ نيسان من العام ١٩٤٤، وبعد تراجع الألمان وسيطرة الروس على القرم، سارع الجيش الأحمر إلى تنفيذ أحكام الإعدام بحق كل من اشتُبه في تعاونه مع الألمان. وفي العام ١٩٤٤ هجّر ستالين ٤٠٠ ألف تتاري إلى سيبيريا وإلى أوزبكستان ومناطق مختلفة من الاتحاد السوفياتي في قاطرات نقل المواشي. وبحسب أحد المصادر، وصف أحد الجنود الروس تلك الرحلة الإجبارية في رسالة كتبها إلى أحد أصدقائه في القرم سنة ١٩٦٨، بأنها كانت رحلة الموت البطيء في عربات المواشي المكتظة بالناس والجثث المتفسخة، وكان قرار ستالين بتهجيرهم عائداً إلى اتهامهم بالتواطؤ مع الجيش الألماني النازي والتعاون معه ضد الدولة السوفياتية. وفي العام ١٩٤٨، توفي ٤٥ ألف تتاري في مخيمات اللجوء بسبب الجوع والمرض. وفي مطلع العام ١٩٥٣، أي نهاية حكم ستالين بوفاته، تم ترحيل أكثر من ٢٠٠ ألف من تتار القرم إلى خارج أوكرانيا.

«موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة/ الدارالثمينة/ المطلب السادس والخمسون من الفصل الرابع».

الفصل السادس

المسلمون في روسيا
بعد تفكك الدولة السوفياتية

إطلاق الحريات الدينيّة وبناء المساجد

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٩١ ظهر اتجاه جديد من قبل أجهزة دولة روسيا الاتحادية لتوسيع قاعدة الحريات الدينية بما في ذلك مع المسلمين الروس. وقد تُرجم ذلك في ارتفاع عدد المسلمين المسموح لهم بأداء فريضة الحج بشكل ملحوظ بعدما كان هناك حظر على مثل هذه الأنشطة إبان الحقبة السوفياتية.

لقد بلغ عدد التأشيرات الخاصة بالحجاج الروس مع مطلع القرن الواحد والعشرين ما بين ٢٥ إلى ٢٨ ألف تأشيرة.

وفي العام ١٩٩١ تم إنشاء المركز الثقافي الإسلامي في روسيا الاتحادية الذي يضم مدرسة لتعليم الدين الإسلامي.

وبتوجيه من القيادة الروسية أُنشئ في العام ١٩٩٥ اتحاد جديد يضم مسلمي روسيا، قام بتنظيم تحركات هدفت إلى رفع مستوى التفاهم بين الأعراق الروسية، وإنهاء سوء الفهم الروسي للإسلام والمسلمين.

الأكثرية الساحقة من المسلمين الروس هم من أهل السنة، من أتباع المذهبين الحنفي والشافعي، ويشكل أتباع المذهب الحنفي

الأغلبية الساحقة في منطقة حوض الفولغا وفي أعماق روسيا وسيبيريا، بينما يسود المذهب الشافعي منطقة القوقاز. وتجدر الإشارة إلى أن عدد أتباع المذهب الحنبلي في روسيا قليل جداً، ولا يُسجّل بين مسلمي روسيا أي وجود لأتباع المذهب المالكي.

أما أتباع المذهب الجعفري فموجودون بشكل أساسي في جمهورية (أذربيجيان القوقازية)، التي أصبحت جمهورية مستقلة بعد تفكك الاتحاد السوفياتي. غير أن شمال القوقاز الروسي يوجد فيه عدد من الجماعات الصوفية إلى جانب الشوافع.

وكان لسياسة الانفتاح التي اعتمدتها السلطات الروسية بعد تفكك الاتحاد السوفياتي الأثر الكبير في بعث الأمل بنفوس المسلمين تجاه ما عانوه من أسر وظلم وقهر في العهود السابقة.

فالديانة الإسلامية في روسيا تمثل جزءاً من تكوين الأمة الروسية في وجودها وتاريخها وقوميتها.

ومن الخطوات العملية الإيجابية التي أقدمت عليها السلطات الروسية تحديد وحصر عدد المساجد التي تم تدميرها في العهد السوفياتي وإعادة بنائها من جديد في جميع الأقاليم والجمهوريات الإسلامية الروسية وخصوصاً في جمهورية تتارستان، ولا سيما الجامع الكبير في مدينة قازان عاصمة تتارستان الذي كان قد صُودر إبان الحكم السوفياتي.

وفي شهر أيلول عام ٢٠١٥ افتتح الرئيس بوتين مسجد موسكو الكبير الذي يعد من أكبر مساجد أوروبا، وشارك في الافتتاح العديد من زعماء العالم بمن في ذلك الرئيس التركي رجب طيب أردوغان. وكشف رئيس مجلس المفتين الروس الشيخ رافيل عين الدين في كلمة ألقاها أثناء افتتاح مسجد موسكو عن وجود مخططات لبناء مسجدين جديدين في إطار مشروع «موسكو الجديدة» الذي يهدف إلى توسعة مدينة موسكو، علماً أن مساحة أحد هذين المسجدين ستكون أكبر من جامع موسكو الكبير بمقدار الضعف، ويستوعب عشرين ألف مصلٍ.

إن مساجد روسيا اليوم لا تمثل ثقافة المجتمع الإسلامي في هذا البلد فقط، بل هي تجذب أيضاً السياح الأجانب والمحليين بسبب عمارتها المميزة وأبعادها المثيرة للإعجاب، كما أنها تتميز بالكُبر والاتساع والجمال العمراني.

ومن أشهرها:

مسجد قلب الشيشان، وهو أحد أكبر مساجد أوروبا والعالم، والمسمى أحمد قاديروف، وهو اسم أول رئيس لجمهورية الشيشان. يستوعب هذا المسجد أكثر من عشرة آلاف مصلٍ، وتبلغ مساحة الكلية مع المجمع الإسلامي التابع له حوالى أربعة عشر فداناً، ويبلغ ارتفاع مآذنه الأربع المحيطة به ٦٣ متراً.

مسجد كول شريف، بني هذا المسجد في القرن السادس عشر في مدينة قازان عاصمة تتارستان. وتم افتتاحه في الذكرى الألفية لمدينة

قازان، وهو أحد أكثر مساجد العالم إثارة بحسب صحيفة (هافينجتون بوست) الإلكترونية.

وتستوعب قاعة المسجد ١٥٠٠ مصلٍ كما أن ساحته المجاورة يمكنها استيعاب ١٠,٠٠٠ مصلٍ.

تم بناء هذا المسجد من التبرعات، حيث توجد في ساحة المسجد كُتبٌ نقشت فيها أسماء ٤٠,٠٠٠ شخص ومنظمة ممن تبرعوا لإنشائه.

مسجد الجمعة، وهو أقدم مسجد في أراضي روسيا الاتحادية ورابطة الدول المستقلة، في مدينة دربنت، وهي واحدة من أقدم المدن في العالم، تقع ضمن جغرافية روسيا الاتحادية، ويعود تاريخها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، ثم تأسست بشكلها الحالي في القرن الخامس (عام ٤٣٨). ومسجد الجمعة فيها هو أقدم مسجد في روسيا بني في العام ٧٧٣م، وتم إنشاؤه لأداء صلاة الجمعة. بعد إنشائه، أصبح المسجد أحد أكبر المساجد في المدينة، وأعيد ترميمه في القرن الرابع عشر إثر زلزال ضرب المنطقة.

في ثلاثينيات القرن الماضي إبان الحقبة الستالينية تم إغلاق هذا المسجد واستخدم سجناً في المدينة. لكن في أواسط القرن العشرين أي في عهد نيكيتا خروتشوف أُعيد المسجد إلى رجال الدين في المدينة، واليوم تم إدراجه ضمن قائمة اليونيسكو للتراث العالمي.

مسجد نور كمال، يقع في أحد أجمل مواقع مدينة نوريلسك في القطب الشمالي، لذلك يقال عنه، المسجد الذي يقع في نهاية العالم.

وقد تم إدراج المسجد في كتاب غينيس للأرقام القياسية باعتباره المسجد الأبعد في شمال الكرة الأرضية. الهندسة المعمارية لهذا المسجد تختلف عن هندسة المساجد التقليدية حيث بني وفق تصميم خاص بسبب الظروف المناخية في الشمال الأقصى.

مسجد لالاتوليب، المسجد الكبير ومدرسة لالاتوليب، هو المركز الإسلامي الرئيس في جمهورية (بشكيريا)، تم تشييده بتمويل من تبرعات المسلمين ومن مساهمة حكومة (بشكيريا). يثير المسجد الاهتمام بسبب مظهره غير العادي، حيث أن شكل المبنى الرئيس وألوانه يشبهان زهرة التوليب، ومئذنتيه تشبهان برعمي هذه الزهرة، ويصل ارتفاعهما إلى ٥٢ متراً.

مسجد مختاروف، يقع هذا المسجد على الضفة اليسرى لنهر تيريك، وهو أحد رموز فلاديقفقاز عاصمة جمهورية أوسيتيا الشمالية – آلاتيا القوقازية.

تمّ بناء المسجد في الفترة الممتدة بين ١٩٠٥ – ١٩٠٨، وقد موّل البناء مليونير النفط في مدينة باكو عاصمة أذربيجان، مرتضى آغا مختاروف، لأن أصل زوجته يعود إلى فلاديقفقاز. وقد تم بناء المسجد على النمط المصري، وهندسته المعمارية تشبه نمط جامع الأزهر، وقد بني من حجر الجير الأبيض الذي جلب من ضواحي باكو.

في العام ١٩٣٤، إبان العهد الستاليني، قرر مجلس المدينة السوفياتي تدمير هذا المسجد، ولكن رداً على ذلك أمر (بيتكينيف، قائد

شركة تتار ٢٥، رجاله بحماية المسجد، ما اضطر السلطات حينذاك إلى التراجع عن قرار هدمه وأُعطي على إثر ذلك صفة نصب معماري).

(محمود علي، مجلة البديل المصرية، سبتمبر ٥١٠٢).

إذاً رغم انهيار الاتحاد السوفياتي وتفككه في العام ١٩٩١ وخروج دول آسيا الوسطى الإسلامية وأذربيجان من تركيبته السياسية الديموغرافية، إلا أن الهمّ الإسلامي بقي عاملاً ضاغطاً في إطار جغرافية روسيا الاتحادية المعاصرة البالغ عدد سكانها حوالى ١٤٠ مليون نسمة، بحيث يزيد عدد المسلمين الروس بينهم على ٢٠ إلى ٢٣ مليون نسمة، يتوزعون في جمهورية تتارستان ذات الحكم الذاتي وباشكيريا وفي شمال القوقاز، وكذلك في القرم والأورال وسيبيريا.

حاول الرئيس بوريس يلتسين تحييد المسلمين الروس عن الصراع المستجد على السلطة في روسيا من خلال تعاونه مع روسلان حسب اللاتوف الذي عينه رئيساً لمجلس الدوما الروسي، وهو من أصل شيشاني وصاحب القبضة الحديدية على الشيشان في مواجهة جوهر دوداييف الذي كان يطالب بانفصال الشيشان عن روسيا الاتحادية. وحسب اللاتوف الذي استمر ممسكاً بالدوما بين عامي ١٩٩٢-١٩٩٣ أطاحه يلتسين لدى هجومه على البيت الأبيض في العام ١٩٩٣، بعد تنازع ضمني، كان يلتسين خلاله يشد بروسيا نحو الخصخصة والتعاون المفتوح مع الغرب عبر مجموعة عمله المكونة من غيدار وتشوبايس وأندريه كوزريف من جهة، وحسب اللاتوف من

جهة ثانية الذي كان يحاول إقناع يلتسين بأن استقرار روسيا ونموها لا يمكن إلا أن يستندا إلى التعاون مع دول آسيا الوسطى الحديقة الخلفية لروسيا الاتحادية.

وبعد ذلك التاريخ، انفتحت حرب لا هوادة فيها بين السلطة المركزية الروسية والشيشانيين استمرت أكثر من عشر سنوات، وكان لتدخل بوتين بعد وصوله إلى سدة الرئاسة في العام ٢٠٠٠ الدور الأكبر في إخمادها إلى حين.

لقد شهدت روسيا بين نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين مرحلة النهضة الروحانية الجديدة بما في ذلك الإسلام. فاستعادت الكنيسة الأرثوذكسية دورها كحاضن للسلطة الروسية وأحد مرتكزاتها الأساسية، في حين غاب أي دور للمسلمين في تركيبة السلطة الروسية المركزية والذي ترافق مع عمليات المواجهة العنيفة في الشيشان وداغستان واتساع العمليات الإرهابية ضد بعض المرجعيات الدينية المسلمة المؤيدة للسلطة في أستراخان وقازان وبشكيرستان.

في التسعينيات من القرن الماضي، واستكمالاً لحربهم ضد الروس في أفغانستان، تسلل العديد من الأئمة المسلمين الوهابيين المتطرفين مع أموال ضخمة إلى منطقة شمال القوقاز وراحوا يبنون المساجد ويسيطرون عليها ويغزون أناس تلك المنطقة تحديداً في الشيشان وداغستان بأدبيات الإسلام المتطرف، كما انتقلوا بعد ذلك إلى تتارستان في محاولة للسيطرة على عقول حوالى ٥ ملايين مسلم

تتاري بعدما تمكنوا من تعميم ثقافتهم على أكثر من مليونَيْ مسلم قوقازي.

لقد بدأت حركة إعادة ترميم المراكز الثقافية الدينية وتشييد المساجد الجديدة في روسيا في العام ١٩٨٥ مع وصول غورباتشوف إلى السلطة وإطلاقه عملية البيروسترويكا. وحتى العام ٢٠٠٠ بلغ عدد المساجد التي بنيت وأعيد بناؤها نصف ما كانت عليه قبل الثورة البلشفية. فحتى ذلك التاريخ تم تسجيل ٤٧٥٠ مسجداً رسمياً، ولكن في الواقع بلغ العدد الفعلي للمساجد حوالى ٧٠٠٠ في العام ٢٠٠٠.

بعد العام ٢٠٠٠ أي في العهد الأول لبوتين، خصصت السلطة الروسية ١٥ مليون يورو في السنة، لدعم الجامعات الإسلامية لمواجهة اندفاعة الإسلام السياسي الذي بدأ يعصف بشمال القوقاز، والذي أخذت تمزقه الأحداث الأمنية على خلفية دينية- سياسية.

لقد وجدت السلطة الروسية في المذهب الصوفي خياراً معتدلاً للإسلام راحت تشجع أصحابه وتدعمهم لمواجهة الإسلام المتطرف الذي تعانيه جمهورية داغستان والجمهوريات ذات الحكم الذاتي في شمال القوقاز.

ولم تخفّف من حالة عداء مسلمي القوقاز للقيادة الروسية لجوء هذه الأخيرة إلى الاعتراف باستقلال أبخازيا وجنوب أوسيتيا عن جمهورية جورجيا.

إن أحداثاً مؤلمة تجتاح داغستان منذ أكثر من عقد من الزمن،

حيث تتوسع، يوماً بعد يوم، عمليات الاغتيال لرجال البوليس، وتفجير مقار السلطات المحلية الموالية لموسكو، واغتيال رجال الدين الموالين أيضاً، وهذه العمليات الإجرامية تعود في جزء كبير منها إلى خلفيات إثنية وأحقادٍ تاريخية، وأعمال قرصنة سببها الفقر المدقع وانتشار البطالة بشكل واسع في هذا الإقليم.

وفي مواجهة تلك المجموعات المتطرفة والممولة من دول خارجية، قررت السلطات الروسية دعم ومساعدة رجال الدين وقيادات الحركات الإسلامية المعتدلة في سبع جامعات إسلامية. موسكو، تتارستان، باشكيرستان، وفي الجمهوريات القوقازية الأربع بما في ذلك داغستان.

في السياق نفسه اختار الكرملين سياسة التقارب مع المسلمين الشيعة أكان في الشيشان من خلال دعمه لقاديروف أم في دعمه لسورية بقيادتها العلوية أم دعمه لإيران.

فإلى أي مدى ستجد سياسة الإغواء والاحتواء التي يحاول بوتين إغراء مسلمي روسيا بها للحد من قلقهم بشأن مستقبلهم في ظل تنامي الجهد لدى القيادة الروسية لإعادة إحياء روسيا القيصرية الأرثوذكسية؟ وفي ظل اشتداد القبضة الحديدية على أمور السلطة في البلاد وطغيان دور سلطة الأجهزة على دور السلطات المفترض أنها منتخبة ديموقراطياً!!؟، وأيضاً في ظل استشراء حالة الفساد في البلاد، والتهميش الاقتصادي للأطراف وتحديداً شمال القوقاز!!؟؟.

هواجس روسيا الإسلامية اليوم

منذ انفجار الربيع العربي واندلاع الحرب الأهلية في سورية يخيم على السياسة الروسية الخوف والقلق من نهوض الإسلام الراديكالي وتمدّده.

ويسود اعتقاد قوي لدى القيادة الروسية اليوم أن سقوط نظام الأسد في دمشق سيكون من نتائجه المباشرة، حتماً، تصاعد دور الحركات الإسلامية المتطرفة في بلدان آسيا الوسطى (السوفياتية سابقاً)، وتالياً في جمهوريات روسيا الإسلامية نفسها. ويزيد من منسوب القلق هذا، احتمال انسحاب قوات الحلف الأطلسي من أفغانستان، ما سوف يؤدي إلى تسرب الجهاديين الإسلاميين من أفغانستان إلى طاجيكستان وقرغيزستان وأوزبيكستان ومنها إلى القوقاز.

ويعود مصدر الهواجس المقلقة للروس أيضاً، إلى ما شهدته روسيا خلال العقدين الأخيرين من تصاعد عمليات المجابهة بين القوى الأمنية الروسية من جهة والمجموعات الإسلامية المتطرفة من جهة أخرى، في أكثر من مدينة وبلدة روسية. وكانت أكثر الحالات المعروفة في هذا المجال، الاشتباكات في يانديكي في أستراخان في حوض نهر الفولغا. في آب/ أغسطس عام ٢٠٠٥، وفي كوندبوغا (جمهورية كاريليا) في أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٦، وفي ساحة مانجنايا في موسكو في كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠١٠ وفي ساراتوف عام

٢٠١٣... مثل هذه الأحداث التي راحت تتنامى وتتوسع، زادت من شعبية الشعار لدى القوميين الروس (كفى إطعام القوقاز).

وبسبب كل تلك التراكمات، يكشف الواقع الروسي عن اختمار حالة العداء بين الأعراق والأديان المكونة للمجتمع الروسي، كما يكشف عن تنامي كراهية الروس للأجانب. ففي العام ٢٠١٢، ووفقاً لمعهد علم الاجتماع التابع للأكاديمية الروسية للعلوم، فإن ما بين ١٠ و١٥ في المائة من المواطنين الروس يؤيد شعار (روسيا للروس)، وحوالى ٣٠ في المائة يعتقدون بوجوب تمتع العرق الروسي بحقوق ومزايا أسمى من تلك التي تتمتع بها الأعراق الأخرى.

إن الخطاب الروسي بشكل عام بات يتسم بالسلبية تجاه صورة معينة من المسلمين الروس، وخصوصاً مسلمي شمال القوقاز. فوفقاً لاستطلاع أجراه مركز (ليفادا) في كانون الثاني/ يناير من العام ٢٠١١ حول قضية الهجوم الإرهابي في مطار (ديميديدوفو) بموسكو، تبين أن ٢٤ في المائة من المشاركين في الاستطلاع يفضلون فرض حظر على دخول وإقامة سكان القوقاز في الأجزاء الوسطى من روسيا، و١٩ في المائة من الذين شملهم الاستطلاع أيدوا إغلاق الحدود الإدارية بين جمهوريات شمال القوقاز وروسيا.

وتظهر نتائج هذا الاستطلاع، أن الدعاية القومية المرتكزة على مبدأ المسؤولية الجماعية لشعوب شمال القوقاز، أصبحت أكثر تجذراً في وعي المواطن الروسي. وبدون أدنى شك، فإن حصول عمليات

إرهابية على أراضي روسيا وخارجها، يُتهم بها إسلاميون، مترافقة مع سياسة تصادمية للقيادة الروسية مع تيارات إسلامية في الداخل والخارج، لا بد من أن تزيد تأجيج الرأي العام الروسي بمكوناته المختلفة الإسلامية والمسيحية. وفي دراسة لمركز (ليفادا) أيضاً أجريت في العام ٢٠١٢ حول تحديد هوية أعداء البلاد، أظهرت أن المتمردين الشيشان والإسلاميين المتطرفين هم الأكثر شيوعاً (في المرتبة الثانية والثالثة مع ٣٩ و٢٠ في المائة على التوالي)، في حين احتلت الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي المرتبتين الأولى والرابعة. وبعد اثنين وعشرين عاماً على انهيار الإمبراطورية السوفياتية لم تعالج مسألة الخدمة العسكرية للمجندين في شمال القوقاز ذي الغالبية المسلمة في الجيش الروسي.

من هذه الخلفية تُثار بقوة الصراعات العرقية داخل ثكنات الجيش الروسي. ففي العام ٢٠٠٠ أقدمت القيادة العسكرية الروسية على نقل حوالى ٢٠ جندياً شيشانياً إلى فوج بالقرب من موسكو، غير أن وجودهم قد أثار الصراعات داخل الثكنة، ما دفع السلطات الروسية إلى اعتبار هذه التجربة فاشلة.

وفي العام ٢٠١٢ سُحب ١٥٠ شيشانياً من الكتيبة ٢٤٩ الخاصة بالمحركات، التابعة لأحد الأفواج المتمركزة بشكل دائم في الشيشان، خوفاً من تمردهم.

ونقلاً عن مصادر مجهولة في وزارة الدفاع الروسية، نشرت وكالة

نوفوستي في حزيران/ يونيو ٢٠١٢ ما مفاده أن ٨٠,٠٠٠ شاب شيشاني وأعداداً أخرى مشابهة في جمهوريات شمال القوقاز لن يخضعوا بعد اليوم للتجنيد في الجيش خوفاً من تمردهم. هذا غيض من فيض، من الأمثلة التي تقض مضاجع القيادة الروسية والمجتمع الروسي برمته عن حال الصراع بين المكونين الأساسيين، الإسلامي والمسيحي، من بين مكونات المجتمع الروسي المتعدد القوميات والأعراق.

لذا كان لا بد من الإضاءة في هذا الكتاب على أبعاد وتداعيات هذا الصراع وما يرافقه من هواجس لدى القيادة الروسية، عبر الغوص في بحث موضوعي لتلمس الجذور التاريخية لأسباب هذا الصراع في أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك الإضاءة على النشأة الإسلامية في جغرافية روسيا الاتحادية المعاصرة، وعلى علاقة الروس المسلمين بالسلطة الروسية في حقبة العهد القيصري، والحقبة السوفياتية وحقبة البيروسترويكا.

فإلى أي حد ستمنع منظومة الأمن الجماعي التي شكلها بوتين وتشمل خمس دول بالإضافة إلى روسيا (أرمينيا، غرغيزستان، كازاخستان بيلاروسيا وطاجيكستان)، نهوض حركات التغيير في عدد من تلك البلدان، الآسيوية منها بالتحديد، مع اندفاعة (الربيع العربي)، ومع تفاقم الأزمات الاقتصادية في تلك البلدان واستشراء حالة الفساد وإمساك الأجهزة الأمنية بالسلطة فيها؟؟.

وهل ما تتخذه القيادة الروسية من تدابير إغوائية وقمعية في

الداخل، وما تنتهجه من سياسة تصادمية مع الإسلام السياسي في الخارج سيبعد خطر تفجر أحقاد تاريخية فتتت يوغسلافيا سابقاً، وهي تمعن تفتيتاً في العالمين العربي والإسلامي على خلفيات مذهبية وإثنية؟ أم إنّ الحل هو بانتهاج الخيار الديموقراطي بكل أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إدارة جمهورية روسيا الاتحادية، وبدل تشديد القبضة الأمنية وحدها من ضمن منظومة الأمن الجماعي في دول آسيا الوسطى اللجوء إلى مساعدة هذه البلدان أيضاً على حل مشاكلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال ولوج الخيار الديمقراطي وخيار التنمية ومحاربة الفساد؟ على أية حال نترك للتاريخ ليقول كلمته في آخر المطاف....

التعددية والانقسام في المجتمع الروسي المسلم

إن ما تشهد به بعض المرجعيات الروسية الإسلامية المعاصرة حول حجم الحريات التي يتمتع بها المسلمون في ممارسة طقوسهم وعباداتهم، يجب أن لا يخفي ما شهدته روسيا في السنوات الأخيرة ولم تزل تشهده من توتر مكشوف أو مكتوم داخل الجماعة الإسلامية الروسية، بين ما يعرف بالإسلام الروسي المعتدل والإسلام الروسي الراديكالي أو السلفي المتشدد، والذي يعرّف عنه في روسيا بالإسلام الوهابي. وأحد مظاهر تجليات هذا التوتر هو ما أقدم عليه أنصار الإسلام الراديكالي في صيف العام ٢٠١١ باغتيال رجل الدين المعتدل مدير «معهد علوم الدين» في جمهورية داغستان الروسية

مقصود صديقوف، واغتيال الشيخ سعيد أفندي في العام ٢٠١٢، وهو أحد أبرز شيوخ الطريقة الصوفية في داغستان. وقد قتل الشيخ سعيد أفندي وسبعة من مريديه على يد فتاة فجّرت نفسها بحزام ناسف.

ولا يخفى على أحد، أنه منذ انهيار الدولة السوفياتية قبل ربع قرن تقريباً، يشهد شمال القوقاز الروسي، ما يشبه الحرب الدينية الناجمة عن انقسام عقائدي بشأن تفسير الشريعة الإسلامية، وبشأن العلاقة مع الدول الروسية.

لقد أصبح التطرف الإسلامي سمة من سمات شمال القوقاز منذ انهيار الدولة السوفياتية، وتَغلغُل من يسمى بـ«المجاهدين العرب».

إن مناهضي التيار الراديكالي الإسلامي في شمال القوقاز الروسي هم بشكل أساسي أنصار الطريقة الصوفية. فالمذهب السني الحنفي قليل الانتشار تقليدياً في بعض مناطق شمال القوقاز الروسي، لكنه ينتشر بشكل واسع، في حوض نهر الفولغا وموسكو، وهو لا يشكل بيئة حاضنة للتطرف الإسلامي. في حين أن المذهب الأكثر انتشاراً في شمال القوقاز هو المذهب الشافعي، الذي قد يكون معتنقوه أقرب إلى أن يشكلوا بيئة حاضنة للأصولية والتطرف خصوصاً في المناطق الأكثر فقراً من هذا الإقليم.

لقد امتدت عمليات تصفية الرموز الدينية الإسلامية المعتدلة من شمال القوقاز إلى جمهورية تتارستان في وسط روسيا والواقعة على نهر الفولغا. ففي العام ٢٠١٢ تعرض مفتي تتارستان أيلدوز فايزوف

إلى محاولة اغتيال في قلب العاصمة قازان أصيب من جرائها بجروح بالغة، وفي اليوم نفسه لقي نائب المفتي ولي الله يعقوبوف مصرعه في حادث اغتيال آخر.

وتعليقاً على تكرار عمليات اغتيال أو محاولة اغتيال رجال الدين المسلمين المعتدلين في روسيا، تقول الباحثة الروسية يانا إميلينا، «إن أسباب تلك العمليات تكمن في الصراع المحتدم، الذي تخوضه العناصر الإسلامية المتطرفة من السلفيين والوهابيين وأمثالهم ضد رموز الإسلام المعتدل، حيث أن خطة الإسلاميين المتطرفين تهدف، في نهاية المطاف إلى تدمير الدولة العلمانية واستبدالها بدولة الخلافة الإسلامية». وتشير الوقائع في الساحة الإسلامية الروسية إلى ميل متعاظم لدى القوى الإسلامية الروسية الراديكالية لتشكيل جبهة إسلامية توحد الجهاديين تنظيمياً في شمال القوقاز وحوض نهر الفولغا في وسط روسيا، وهذا الاتجاه يتطور بالتناغم مع ما يجري من تحركات للجهاديين الإسلاميين في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا...

وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى أن الصعود الملحوظ لتيارات الإسلام الراديكالي في الساحة الإسلامية الروسية، والذي قد يتعاظم مع التدخل الروسي العسكري في الحرب الدائرة على الأراضي السورية إلى جانب النظام وضد التيارات الإسلامية، لا بد من أن يدفع إلى تغذية مشاعر الغضب لدى الحركات الروسية القومية الراديكالية، في أوساط المسيحيين الأرثوذكس الروس.

وفي هذا المجال، يؤكد الباحث الروسي روسلان قوربانوف «أن الروس المسلمين المسنين من أبناء منطقتي القوقاز والفولغا يؤيدون تأييداً كاملاً نهج الدولة الروسية تجاه الوضع في سوريا. لكن في مقابل هؤلاء هناك قوى اجتماعية أخرى مؤثرة مكونة من النشطاء الشباب المتدينين يجنحون نحو التطرف».

ويضيف قربانوف وهو من أصل داغستاني، تعليقاً على هذا الوضع بالقول: «إن الوضع في شمال القوقاز خطير جداً، حيث ينضم الشباب إلى المسلحين في غابات داغستان». وهو يعتقد أن الانقسام داخل المجتمع القوقازي، خصوصاً في داغستان وأنغوشيا وقبردينو-بلقاريا، يتسم بالتعقيد والخطورة. ويقول: «إن دعم المعارضة السورية من قبل النشطاء المسلمين في جمهوريات شمال القوقاز ومنطقة نهر الفولغا يتخذ أشكالاً مختلفة منها نشر مقالات، والكتابة عبر مواقع التواصل الاجتماعي وتنظيم تظاهرات احتجاجية، بالإضافة إلى الانخراط المباشر في القتال في سوريا». ويلفت العديد من الباحثين والمعلقين الروس إلى أن حجم التعاطف في صفوف شباب التيارات الإسلامية في روسيا مع ما يجري في سوريا يتفوق على ما كان عليه الأمر في الحالة الأفغانية، حيث أن عدداً كبيراً من عائلات شمال القوقاز يربط نفسه وأصله ببلاد الشام.

ويتفق رأي هؤلاء الباحثين الروس إلى حد بعيد مع وجهة النظر الرسمية للدولة الروسية، المتخوفة جداً من نتائج الأحداث في سوريا.

لذلك يفسر ويؤيد البعض التدخل العسكري الروسي في سوريا من خلفية أن أحد أهدافه هو منع خطر تدفق الإرهاب إلى الأراضي الروسية، خصوصاً مع الكشف عن انخراط الآلاف من أبناء القوقاز في صفوف تنظيم داعش وغيره من التنظيمات الإرهابية في سوريا. ويرى فريق آخر من الباحثين الروس أن مواجهة تزايد الأعمال الإرهابية وجنوح الشباب الروسي المسلم نحو التطرف تقضي بضرورة معالجة الأسباب الاقتصادية والاجتماعية المسؤولة بشكل أساسي عن تنامي ظاهرة التطرف الإسلامي في شمال القوقاز، وفي غيره من المناطق الروسية. وهذا خيار ينبغي اعتماده ليس في روسيا فقط، بل في مختلف بلدان العالم حيث تتفشى البطالة ويتفشى الفقر وتنعدم التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي البشرية، ما يولد بيئات حاضنة للتطرف والإرهاب من المستحيل معالجتها باستخدام القوة العسكرية، إنما يقتضي استئصالها، حكماً، استئصال الفقر عن طريق انتهاج سياسة التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بوتيرة متسارعة.

الحريات الدينية في روسيا ما بعد الحقبة السوفياتية

شهدت روسيا في العقدين الأخيرين بعد تفكك الاتحاد السوفياتي ملامح أولية لنهضة إسلامية ناشطة، حيث جرى تشييد العديد من المساجد (٤٠,٠٠٠) مسجد، وتزايد عدد المسلمين الروس الذين يؤدون فريضة الحج كل عام، والذي بلغ في السنوات الأخيرة ما بين ٢٥ إلى ٣٠ ألف حاج في السنة. كما شهدت غير منطقة إسلامية في

روسيا إنشاء محال ومطاعم وعيادات استشارية نسائية واعتماد طريقة دفن الموتى نفسها حسب الشريعة الإسلامية. ومثّل باكورة النشاط الإسلامي السياسي ظهور حزب النهضة الإسلامية في حزيران ١٩٩١، الذي تشكل في مؤتمر للإسلاميين في أستراخان جنوب روسيا.

وتبرز بقوة ملامح الصعود الإسلامي لدى مسلمي شمال القوقاز خصوصاً في الشيشان وداغستان وأنغوشيا وهم من أتباع المذهب السني الشافعي. هذه البلدان التي تقع على أطراف روسيا بالقرب من آسيا الوسطى، التي تموج بحركات إسلامية عدة والقريبة بدورها من أفغانستان. فالحركات الإسلامية تنشط في شمال القوقاز بهدف إعادة الهوية الإسلامية لشعوب تلك المنطقة بخلاف منطقة الفولغا والأورال التي تضعف في غالبية جمهورياتها الإسلامية ملامح التعصب الديني، وهم من أتباع المذهب السني الحنفي، وترتبط بمعظمها بالنشاط الرسمي للدولة الروسية لوقوعها في الوسط الروسي من الناحية الجغرافية بعيداً عن التأثير الإسلامي المجاور كما هي حالة شمال القوقاز.

يوجد في روسيا حالياً ما يقارب (٤٠) إدارة دينية للمسلمين، وأكثر هذه الإدارات نفوذاً هي إدارات الشطر الأوروبي من روسيا التي تتبع بمجملها الخط الروسي الرسمي في توجيهاته السياسية. من جهتها، تقوم أجهزة الدولة الروسية بالإشراف على هذه الإدارات وعلى متابعة أنشطتها ورسم توجهاتها.

ويبلغ عدد الروس من المسلمين اليوم أكثر من عشرين مليون نسمة حسب إحصاء العام ٢٠١٤ ولهم في موسكو سبعة مساجد، أكبرها المسجد التتاري الحجري الذي يعود أساس بنائه إلى سنة ١٨٠١م حيث بني من الحجر، وكان مسجداً صغيراً يستوعب ٢٥٠ مصلياً، وجدد بناءه التتاري الثري المسلم (صادق برزي) وذلك سنة ١٩٠٤م، وما إن علم لينين بعد الثورة البلشفية بثراء هذا الرجل، وأنه هو من كان وراء بناء المسجد حتى صادر أملاكه ومات وهو يعمل حارس مبنى.

أما عدد السكان المسلمين في موسكو فيبلغ حوالى مليوني نسمة- (زار المسجد وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل سنة ١٩٩١، كما زاره الوزير عبد العزيز الخوجة، عندما كان سفيراً لبلاده في موسكو في حقبة التسعينيات من القرن الماضي).

لقد أعيد تجديد بناء مسجد موسكو وأصبح يتسع لعشرين ألف مصلٍ، وهو مؤلف من ست طبقات مع ملحقات بالمسجد. وكلفت إعادة البناء والتوسعة ١٠٠ مليون دولار تبرع بها أحد الأثرياء السعوديين. وقد تم حصر المساجد التي جرى تدميرها في العهد السوفياتي، وتمت إعادة بنائها من جديد في جميع الأقطار الروسية وخصوصاً في جمهورية تتارستان التي حصل رئيسها شايمييف، وهو كان يشغل هذا المنصب منذ العهد السوفياتي، على جائزة الملك فيصل في خدمة الإسلام، وذلك من خلال نشاطه الإسلامي في بلاده،

المتمثل في إعادة إعمار ألف مسجد في بلاد تتارستان وبخاصة الجامع الكبير في قازان.

وكان لسياسة الانفتاح التي ينتهجها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الأثر الإيجابي في توطيد ربط المسلمين بوطنهم روسيا، وفي تأكيد ولائهم كجزء من تكوين الأمة الروسية، في وجودها وتاريخها وحضارتها وقوميتها. كما كان لمفتي روسيا الشيخ راوي عين الدين ونائبه الشيخ مراد مورتازين دور مهم في إدارة الحوار الإيجابي والبناء مع الحكومة الروسية في كل ما يعود بالمنفعة على مصلحة المسلمين من جهة، ومصلحة بلدهما روسيا التي ينتمي إليها المسلمون من جهة أخرى.

لم يسبق لزعيم أو لرئيس روسـي في العهدين القيصري والشيوعي أن زار مفتي روسيا أو أماكن العبادة الإسلامية الروسية، أما اليوم، فقد قام الرئيس الروسي السابق والرئيس الحالي للحكومة الروسية مديفيدف بزيارة مجلس المفتين لعموم روسيا الاتحادية، وكانت خير سابقة في تاريخ روسيا. كما رعى الرئيس بوتين في العام ٢٠١٦، بحضوره شخصياً، افتتاح جامع موسكو الكبير بحضور العديد من الشخصيات الإسلامية العالمية وعدد من رؤساء الدول من البلدان الإسلامية.

إن مثل هذا الانفتاح للقيادة الروسية على المرجعيات الإسلامية الروسية، جعل المسلمين والنصارى من الروس على تواصل حواري دائم على خلفية تدعيم أسس مفهوم المواطنة وتصليبها.

ففي العام ١٩٩٩، عقد أول لقاء علمي في العهد الروسي الجديد من قبل مجلس المفتين، أي جمعية العلماء في روسيا، وبالاشتراك مع هيئة تحرير مجلة (بورفي) لدراسة قضايا التطرف القائم على أساس ديني، وكان عنوان اللقاء «الإسلام وقضايا أمن الدولة الروسية»، خرج على أثره المؤتمرون بتوصيات تؤكد تطوير الحوار والتواصل بين أبناء الوطن الواحد.

وفي العام ٢٠٠٠، وبمناسبة مرور ١٤٠٠ سنة على دخول الإسلام إلى روسيا قدّمت الحكومة الروسية ١٠ ملايين روبل لمجلس المفتين لتغطية احتفالات تلك المناسبة.

أما في مجال الإعلام، فتخصص القناة التلفزيونية الرسمية الروسية مدة نصف ساعة يومياً للحديث عن الإسلام والمسلمين في روسيا. وهناك صحف إسلامية إخبارية تصدر عن جمعيات إسلامية، منها صحيفة (الإسلام في روسيا) وهي صحيفة تحمل أخبار مسلمي روسيا وتروجها، ويقدر حجمها بعشر صفحات. وبسبب ذلك، وإن كانت المرجعيات الإسلامية الروسية تنظر بعين الرضى إلى هذا المستوى من القدرات والحريات الإعلامية، إلا أنهم، أي المسلمون الروس، يرغبون ويتمنون اهتماماً أكبر من قبل الإعلام الرسمي.

ظاهرة التغلغل الشيعي في بعض المناطق الروسية الإسلامية

يجمع المؤرخون على أنه ومنذ قيام الدولة الصفوية (٩٠٦هـ-١٥٠٠م) لم تتوقف المحاولات الفارسية لنشر المذهب الشيعي في

منطقة شرق الأناضول وفي شمال القوقاز وفي خراسان وأيضاً في بلاد ما وراء النهر، الأمر الذي دفع الدولة الصفوية إلى خوض حروب متصلة في الشرق مع خانات آسيا الوسطى، وفي الغرب مع سلاطين آل عثمان. وبينما كان الشاه إسماعيل الصفوي يخوض معاركه مع ممالك ما وراء النهر دخل في حرب واسعة ضد السلطنة العثمانية في العام ١٥١٤ في عهد السلطان سليم الأول.

وما تجدر الإشارة إليه هو أن العثمانيين في تصديهم للخطر الفارسي تحالفوا مع الأوزباك السنة في بلاد آسيا الوسطى، بينما تحالف الفرس الشيعة مع الروس، حيث شهد القرن السابع عشر الميلادي علاقات وطيدة سياسية وعسكرية بين الدولة العثمانية وممالك آسيا الوسطى الإسلامية، كان من نتائجها إلحاق ضربات قاسية بالحكم الشيعي في فارس وإضعافه، ورغم أن هذا الضعف كان يصب في مصلحة حليفه الروسي.

وتبرز علاقات إيران بروسيا منذ عهد روسيا القيصرية، خصوصاً عندما بدأ الغزو الروسي لمنطقة آسيا الوسطى الإسلامية، حيث امتدت الحدود الروسية لتلامس الحدود الإيرانية. لقد كانت السلطنة العثمانية هي العدو المشترك للفريقين، وكانت العلاقات بين الروس والإيرانيين تحمل روح المودة بينهما والرغبة المتبادلة في التعاون المشترك وحسن الجوار. من جهتهم، شجع القياصرة الروس وعملوا على تعميق الخصومة بين العثمانيين والإيرانيين.

تعود بداية التوتر في العلاقات الروسية الفارسية إلى عهد انتصار الثورة البلشفية في روسيا، حيث لجأ الاتحاد السوفياتي بعد ذلك إلى إحكام قبضته على وسط آسيا، وأظهر رغبته في الوصول إلى منطقة الخليج العربي عبر إيران، ما جعل العلاقات بين الجانبين تتجه نحو التأزم والعداء.

وبعد سقوط الاتحاد السوفياتي شهدت العديد من الجمهوريات الإسلامية في روسيا الاتحادية حالة من التنافس بين جهات مختلفة لاستقطاب المسلمين فيها. وبرز هذا التنافس بشكل أساسي بين الإدارات الدينية الرسمية لمسلمي روسيا التي تشرف وتسيطر عليها أجهزة الحكومة الروسية وبعض الطرق الصوفية التي كانت تنشط وسط مسلمي الاتحاد السوفياتي قبل انهياره من جهة، وبين بعض الجماعات الإسلامية التي بدأت تنشط إثر تفكك الاتحاد السوفياتي سعياً منها وراء محاولة إحياء الهوية الإسلامية المفقودة داخل البيئات الإسلامية الروسية من جهة ثانية.

في ظل هذه الأجواء تدخلت إيران، وهي العالمة بحالة الفراغ والتيه التي عاناها مسلمو روسيا وراحت تتغلغل في أوساط المجتمع الروسي المسلم بكل الطرق المتاحة لتعميم التشيع ومد النفوذ الشيعي الفارسي إلى بيئة إسلامية جنينية.

لقد سعت إيران في السابق، وهي تسعى اليوم، مستفيدة من قدراتها الاقتصادية ومستغلة الجوار الجغرافي والصلات التاريخية مع

الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، لتكون بمثابة المركز لكتلة إقليمية تضم الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا وشمال القوقاز بالإضافة إلى منطقة الخليج، ما يمكّنها من لعب دور ضابط التوازنات بين منطقة آسيا الوسطى وأفغانستان والقوقاز من جهة، والعالم العربي من جهة أخرى.

ومن هذه الخلفية تستغل إيران علاقاتها الاقتصادية المتطورة مع روسيا ونفوذها على القوى الشيعية من الآذريين في موسكو، وهم من أصل أذربيجاني (جمهورية سوفياتية سابقة)، لنشر التشيع وسط مسلمي روسيا عبر أشكال وطرائق متنوعة أبرزها:

١- التحرك لنشر التشيع من خلال الجمعيات الصفوية المنتشرة في موسكو والتي تحمل أسماء مثل: أهل البيت، فاطمة الزهراء... إلى جانب ذلك، إقامة المعارض وتنظيم المؤتمرات وإنشاء محطات إذاعية تخدم الدعوات الصفوية.

٢- التأثير في من أسلموا حديثاً، وتقديم المال لهم والمنح الدراسية التي تقوم إيران بتمويلها.

٣- نشر الدعاة الشيعة في العديد من المساجد ودعوة روادها إلى التشيع.

٤- التعاون مع الكنيسة الروسية، حيث أسست لجنة للحوار بين الكنيسة الروسية وإيران في العام (٢٠٠٥). وقامت هذه اللجنة بتنظيم مؤتمر لممثلي مختلف الديانات في العالم في مدينة موسكو في العام (٢٠٠٦).

٥- التعاون الاقتصادي مع بعض الجمهوريات ذات الكثافة السكانية الإسلامية مثل داغستان في شمال القوقاز المجاورة لجمهورية أذربيجان ذات الغالبية الشيعية (جمهورية سوفياتية سابقة)، والتي تشترك معها في بحر قزوين ذي الثروة النفطية الكبيرة.

(ياسر البعلبكي، الخطر الصفوي الشعيوي على مسلمي روسيا مجلة الفرقان)

العهد البوتيني ينفتح على المسلمين

انطلاقاً من اعتبارهم جزءاً من تكوين الأمة الروسية في وجودها وتاريخها وحضارتها وقوميتها، كان لسياسة الانفتاح على المسلمين التي اعتمدتها إدارة الرئيس بوتين الأثر الكبير في بعث الأمل في نفوسهم مقارنة بما عانوه من أسر وظلم وقهر في العهود السابقة، وذلك من خلال سياسة تؤكد ربطهم بوطنهم روسيا.

ويساعد على ذلك وجود علماء روس مسلمين من أهل العلم والحكمة، كالمفتي الشيخ راوي عين الدين ونائبه الشيخ مراج مورتازين، ما سهّل فتح حوار شفاف بين الحكومة الروسية والمرجعيات الدينية الروسية المسلمة للوقوف على مصلحة المسلمين في روسيا من جهة، وما ينفع بلدهم روسيا التي ينتمون إليها من جهة أخرى.

وقد ترتب على هذا الانفتاح إعطاء الحرية الدينية للمسلمين في ممارسة شعائرهم الدينية بحرية كاملة، وترافق ذلك مع إعادة بناء

المعاهد والمدارس والجامعات الإسلامية التي تدرّس الإسلام باللغة العربية. كما جعل المسلمين والنصارى من الروس على تواصل حواري دائم على أساس المواطنة.

إن جمعية المفتين في روسيا التي يشارك في عضويتها ممثلون عن جميع أنحاء مسلمي روسيا قد قامت بالتوسط بين مسلمي الشيشان والحكومة الروسية إبان الحرب التي نشبت بينهما في تسعينيات القرن الماضي بهدف الحد من تفاقم الأمور بينهما، خصوصاً وأن منطقة القوقاز تعد حداً جغرافياً أمنياً لا يمكن لروسيا أن تسمح بالتفريط فيه.

ومن أهم مظاهر الانفتاح الرسمي الروسي على المسلمين، عودة العلاقات الديبلوماسية بين روسيا الاتحادية والمملكة العربية السعودية في العام ١٩٩١ بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، وبعدما كانت قد انقطعت في العام ١٩٣٧ في العهد الستاليني. وعلى وقع إقامة العلاقات الديبلوماسية بين البلدين استضافة المملكة العربية السعودية عدداً كبيراً من حجاج روسيا لتأدية فريضة الحج.

وزار خادم الحرمين الشريفين الراحل الملك عبدالله بن عبد العزيز موسكو وكان لا يزال ولياً للعهد في شهر أيلول من العام ٢٠٠٣. وبعد ذلك زار الرئيس بوتين الرياض في شهر شباط عام ٢٠٠٧م، وهكذا تطورت العلاقات بين البلدين في زيارات ديبلوماسية وزيارات عمل لكبار المسؤولين فيهما، وكذلك عقدت بين الدولتين العديد من الاتفاقات التجارية والاتفاقات ذات الطابع الاستثماري

بمليارات الدولارات، ونشأت مجدداً علاقة نفطية جديدة بينهما تلعب دور الضابط للأسواق النفطية العالمية.

ومن ثمرات هذه العلاقة المستجدة بين موسكو والرياض افتتاح أكاديمية الملك فهد في موسكو، وهي تعنى بتدريس من يلتحق بها من المواطنين الروس الذين يتعلمون العلوم الإسلامية واللغة العربية. والمسلمون الروس لا يخفون اغتباطهم وسرورهم بتوثيق هذه العلاقات بين دولتهم روسيا وحاضنة الحرمين الشريفين المملكة العربية السعودية ذات التواصل الديني والروحي مع شعوب روسيا المسلمة وإخوانهم من شعوب العالم الإسلامي في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى.

« عبد الكريم السمك/ الألوكة ١٩/٩/٢٠١٣- المسلمون في روسيا، التاريخ والنشأة»

الفصل السابع

الكيانات الإسلامية في روسيا الاتحادية

الأقاليم الروسية المسلمة

يتوزع المسلمون في روسيا اليوم في العديد من الأقاليم الروسية المسلمة الملحقة بجمهورية روسيا الاتحادية وكلها ذات حكم ذاتي وهي:

١- جمهورية تتارستان
٢- جمهورية بشكيريا
٣- مقاطعة (أستراخان)- (استرخان أوبلاست)
٤- جمهورية داغستان
٥- جمهورية الشيشان
٦- جمهورية أوسيتيا الشمالية.

إضافة إلى هذه الجمهوريات توجد مناطق إسلامية عديدة في روسيا مشمولة بالحكم الذاتي، ويبلغ عددها نحو سبع جمهوريات، والمسلمون فيها يزيد أو يقل عددهم عن عدد من يسكنها من غير المسلمين من أبناء الطوائف الأخرى، وهي: أنغوشيا، قرتشاي الشركسية، أدمونيا، (ماري أيل) تشوفاشيا، شكالوف (أورنبرغ)، سيبيريا.

وما تجدر الإشارة إليه أن ظاهرتين جغرافيتين تفصلان القسم الأوروبي من الاتحاد الروسي وهو (الأصغر) عن قسمها الآسيوي وهو الأكبر: سلسلة جبال الأورال من جهة ونهر الفولغا الذي يعتبر أطول أنهار أوروبا من جهة أخرى، والذي يمتد من الشمال إلى الجنوب ويصب في بحر قزوين.

وتعيش في منطقة حوض نهر الفولغا بعض الشعوب والقبائل الإسلامية التي كانت لها دول وإمارات عريقة في الماضي، وتتوزع اليوم في إطار سبع جمهوريات أو أقاليم تتمتع بنوع من الحكم الذاتي ضمن دولة روسيا الاتحادية المترامية الأطراف. وتتكون التركيبة السكانية في هذه الجمهوريات من خليط من السكان الأصليين المسلمين ومن سكان ذوي أصول روسية وأوكرانية قدموا إلى هذه المنطقة من مناطقهم الأوروبية.

وفيما يلي نبذة مكثفة عن تاريخ وواقع كل من هذه الجمهوريات، ونبدأ بأقاليم وجمهوريات حوض الفولغا.

إن تسليط الضوء في هذا الكتاب على الجغرافيا السياسية والاقتصادية للأقاليم الروسية المسلمة هو لتبيان أهمية هذه الأقاليم ودورها في الجغرافيا السياسية، والأمن الاستراتيجي، وكذلك في الاقتصاد الروسي بشكل عام.

أولاً: الكيانات المسلمة في حوض نهر الفولغا

١ -جمهورية بشكيريا أوبشكيرستان

الجغرافيا السياسية والموارد والمعالم الطبيعية

هي أحد الكيانات الفدرالية في روسيا الاتحادية. وهي جمهورية ذات حكم ذاتي، وتنسب إلى شعب البشكير أحد شعوب الأمة التركية. عاصمتها مدينة (أوفا). وهي تقع في القسم الجنوبي من جبال الأورال، وتحدها من الغرب جمهورية تتارستان، ومن الشرق تشيليابينسك ومن الجنوب أورنبرج، ومقاطعتا بيرم وسفيردلوفسك من الشمال. تبلغ مساحتها ١٤٢٩٤٧ كلم٢. ويبلغ عدد سكانها، ٤,٠٦٠,٩٥٧ نسمة حسب التقدير الروسي الرسمي لعام ٢٠١٣.

الإسلام هو الديانة الأكثر انتشاراً في بشكيرستان، حيث أن ٣٨٪ من سكان الجمهورية يدينون به، بينما يدين بالمسيحية الأرثوذكسية حوالى ٢٥٪.

يتكون المجتمع البشكيري من قوميات عدة أهمها: روس ٣٦٪، باشكير ٢٩,٥ ٪، تتار ٢٥,٤٪، تشوفاش ٨,٧٪، ماري ٢,٦٪، أوكرانيون ١,٥٪، قوميات أخرى ٢,٧٪.

وجمهورية بشكيرستان هي من أهم مناطق إنتاج النفط في روسيا. ويمثل القطاع الصناعي الأساس الاقتصادي للبلاد، إذ إنه يشكل أكثر من ٦٠٪ من عائدات الدولة. وتحتل الصناعات الثقيلة وتوليد الطاقة

الكهربائية واستخراج المعادن وتصنيعها مكانة بارزة في اقتصاد الجمهورية، وكذلك تصنيع الماكينات. وتتميز هذه الجمهورية أيضاً بزراعتها المتطورة، حيث تتم فيها زراعة القمح والذرة والتبغ وزهرة عباد الشمس، بالإضافة إلى زراعة العديد من أنواع الخضر والفاكهة على أطراف الجبال. كما تجري تربية المواشي فيها على نطاق واسع حيث تمتد المراعي الخصبة في القرى الجبلية.

الإسلام في جمهورية بشكيريا

بلغت الدعوة الإسلامية بلاد الخزر في النصف الأول من القرن الهجري الأول. وقد وصل الإسلام إلى بشكيريا بعد فتح مدينة باب الأبواب (دربنت)، التي أصبحت في تلك الحقبة ثغراً إسلامياً. واستمر التوسع في الدعوة الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي، فوصل إلى بلاد الصقالبة في حوض نهر الفولغا.

وقد أرسل الخلفاء العباسيون الدعاة إلى هذه المنطقة لتفقيه أهلها بالدين. ووصل ابن فضلان الجغرافي المشهور إلى بشكيريا موفداً من الخليفة العباسي المقتدر بالله، فساهم في إدخال أهلها في الإسلام. ومع حلول القرن الرابع عشر الميلادي وفي عهد (أوزيك خان) أصبح معظم سكان بشكيريا مسلمين، وكانوا قبل ذلك يعبدون الأوثان والطبيعة. وظل البشكير محافظين على ديانتهم بعد تعرضهم لغزو المغول الذين جندوهم في جيوشهم وهم ما زالوا على عقيدة

الإسلام، وكذلك جند المماليك لاحقاً عدداً منهم وهاجر بعضهم إلى العالم العربي ولقد بقي البشكيريون على علاقة بالدولة العثمانية.

وفي عهد إمبراطور روسيا إيفان الرابع الذي عرف بإيفان الرهيب، احتل الروس أرض البشكير في العام ١٥٥٣م وحاولوا زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوسهم، وكان ذلك سبباً لقيام ثورات ضد الروس استمرت حتى العام ١٧٧٣م. وفي عهد الإمبراطورة كاترين الثانية واجه المسلمون في روسيا عموماً وفي بشكيريا بصفة خاصة شتى أنواع الاضطهاد، وأصدرت الإمبراطورة في العام ١٧٧٨ العديد من القوانين التي تقيد حرية العبادة وترغم السكان على اعتناق المسيحية. وبسبب ذلك عانى المسلمون البشكيريون اضطهاد السلطات الروسية لهم ودفع الضرائب وانتزاع الأراضي منهم، وإعطاءها إلى المهاجرين الروس، وإكراه المسلمين على اعتناق الديانة النصرانية، كما هُدِمت المساجد وجرى تحويل عدد منها إلى كنائس. ولكن البشكيريين قاوموا تلك الإجراءات وراحوا ينشطون بصورة سرية في نشر الدعوة الإسلامية. فأسلمت على أيديهم قبيلة (الشيريميس) رغم القوانين التي كانت تعاقب على هذا النوع من التحول في العقيدة الدينية. ومع صدور قانون التدين في روسيا القيصرية في العام ١٩٠٥، نشط البشكيريون في الدعوة الإسلامية علانية وبلغ عدد المساجد في بشكيريا في تلك الحقبة حوالى ألف مسجد وأكثر من ست مدارس دينية إسلامية.

وفي أعقاب الحرب الأهلية التي شهدتها روسيا بين أعوام ١٩١٨

و١٩٢٠ مُنح إقليم بشكيريا في العهد السوفياتي حق الحكم الذاتي في شهر آذار من العام ١٩١٩م.

وفي الحقبة السوفياتية التي امتدت من العام ١٩١٧ إلى العام ١٩٩١ مورست ضد المسلمين البشكير شتى أنواع الاضطهاد من القهر والتعذيب والتشريد والتهجير الإجباري وتقسيم الأراضي والاقتطاع منها. واستُقدم الروس و(الأوكرانيون) إليها بهدف تغيير تركيبة بشكيريا الديموغرافية والعرقية والدينية.

لقد هدَمت السلطات السوفياتية العديد من المساجد، وألغت المدارس الإسلامية، وفرضت على سكان هذا الإقليم اللغة الروسية كلغة رسمية وكلغة للتعامل في كل نواحي الحياة، ما دفع من بقي من علماء المسلمين في هذه البلاد إلى تعليم الإسلام سراً لمن تيسر له ذلك.

قاوم البشكيريون هذا التحدي من السلطات السوفياتية، وأمام مواقفهم الصلبة أصبحت مدينة (أوفا) مقراً للإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفياتي ومسلمي سيبيريا منذ العام ١٩٤٣.

وما تجدر الإشارة إليه هو أنه كانت قد تأسست في الماضي البعيد إدارة دينية في بشكيريا، وتحديداً في العام ١٧٨٨ وكانت تقوم بإصدار الفتاوى للمسلمين الروس. وغالباً ما كان المفتي في هذه الإدارة من خريجي المدرسة الدينية في مدينة بخارى في أوزباكستان الآسيوية.

والجدير بالإشارة أيضاً، أنه في العهد السوفياتي، وإن منحت بشكيريا تسمية جمهورية ذات حكم ذاتي، فإن ذلك لم يكن يمثّل سوى تسمية شكلية، لأنه في الواقع، هم موظفون تابعون لموسكو، حيث كانت السياسة الروسية تقضي بأن يكون السكرتيران الأول والثاني في كل جمهورية إسلامية ذات حكم ذاتي روسيين وليسا محليين. «الأقليات الإسلامية في آسيا وأستراليا – سيد عبد المجيد بكر»

وبعد تفكك الاتحاد السوفياتي، شهدت بشكيريا وسائر الكيانات الإسلامية في روسيا صحوة إسلامية جرى التعبير عنها بظهور حركات إسلامية ناشطة، وأقيمت فيها مشاريع عدة، منها، بناء مجمّع مدرسي، والعديد من المساجد في المدن والقرى إضافة إلى المراكز الإسلامية.

وبدعم من النواب المسلمين في جمهورية بشكيرستان، أطلقت الإدارة الروحية للمسلمين مبادرة لفرض حظر بيع المشروبات الكحولية في البلاد، وبشكل خاص منع بيع الكحوليات لطلبة المدارس أثناء الدراسة. ومنع استخدام صور الرموز والشعارات الوطنية على زجاجات الكحول، وقد صرّح مفتي بشكيريا أن الخمر والقمار من المحرمات، وأنهما من كبائر الذنوب في الإسلام.

وقد أقرّ برلمان جمهورية بشكيريا قانون حظر بيع الكحوليات، ورحب بهذا القانون «راشدي فايرولين» رئيس المجلس الاستشاري في لجنة الصناعة والابتكار وأعمال التنمية في بشكيريا.

٢-جمهورية تتارستان

الجغرافيا السياسية، والموارد والمعالم الطبيعية

جمهورية تتارستان هي أحد الكيانات الفيدرالية في روسيا. تقع على السفوح الغربية لجبال الأورال الفاصلة بين آسيا وأوروبا، وتبلغ مساحتها ٧٠ ألف كلم٢. أرض تتارستان لا تجاور أي دولة أجنبية، وهي تقع في قلب روسيا الاتحادية من السهل الأوروبي الشرقي. تتكون من ٥٧ وحدة إدارية، وتحتل موقعاً مهماً على نهر الفولغا الذي يعتبر شريان الحياة الرئيس لوسط روسيا.

مدينة قازان هي عاصمة جمهورية تتارستان، وهي ثالث أكبر مدن روسيا الاتحادية بعد موسكو وسان بطرس برغ.

ومن هذه الجمهورية الاتحادية يبدأ خط أنابيب البترول إلى شرق أوروبا المعروف باسم خط الصداقة. والأراضي التتارية غنية بالموارد المعدنية والزراعية المتعددة، الأمر الذي ينعكس إيجاباً على درجة معيشة السكان التي تبدو أفضل من نظيراتها في كثير من الأقاليم الروسية. ونظراً لما تختزنه من ثروات مائية وغابات وتميّزها بتربة خصبة، تعد تتارستان مركزاً صناعياً مهماً لروسيا. وفي العهد السوفياتي شكل إقليم تتارستان الحصن الذي انتقلت إليه الصناعات السوفياتية إبان الهجوم النازي على الاتحاد السوفياتي ومحاصرته مدينة لينينغراد واقترابه من احتلال مدينة موسكو.

السكان في تتارستان

يبلغ عدد التتار الذين يعيشون في تتارستان حوالى أربعة ملايين نسمة حسب إحصاء العام ٢٠١٤، غير أن عدد التتار المنتشرين في روسيا، والذين تحمل هذه الجمهورية اسمهم يقارب سبعة ملايين نسمة.

وتعتبر تتارستان واحدة من أكثر المناطق نمواً من الناحية الاقتصادية في روسيا. وهي تحتل المرتبة الثانية بعد (سمارا أوبلاست) أو مقاطعة سمارا من حيث الإنتاج الصناعي. والمصدر الرئيس للثروة في هذه المنطقة هو النفط الذي بدأ استخراجه في القرن السابع عشر، وكانت حقوله هي الأكبر في البلاد كلها حتى أواسط القرن العشرين. تنتج تتارستان ٣٢ مليون طن من النفط الخام سنوياً، وتحتل شركة (تات نفط) التتارية اليوم، المرتبة السادسة في روسيا من حيث حجم استخراج البترول. ويقدر احتياطي النفط فيها بأكثر من مليار طن. ويشكل الإنتاج الصناعي في هذه الجمهورية ٣٠٪ من ناتجها المحلي الإجمالي. والصناعات التحويلية الأكثر تطوراً فيها هي صناعة البتروكيماويات، وبناء الآلات. ومن أكبر المشاريع الصناعية فيها، مصنع شاحنات الكاماز حيث يعمل فيه خُمس القوة العاملة التتارية.

وشركة «كازانيوسينتيز»، وهي أكبر الشركات الكيميائية الروسية ومقرها في مدينة قازان. كما يوجد في تتارستان أهم مصانع الطائرات،

فهي تنتج الطائرات من طراز توبوليف ٢١٤، وهي طائرة ركاب، كما تنتج طائرات الهليكوبتر. وتعتبر شركة إنتاج المروحيات في قازان واحدة من أكبر الشركات المصنّعة لطائرات الهليكوبتر في العالم.

إلى هذه الصناعات الثقيلة، تنتشر في تتارستان مصانع النسيج والملابس وتجهيز الأخشاب والصناعات الغذائية... إلخ.

ومن بين أهم القطاعات الصناعية النشطة في تتارستان، صناعة تكرير النفط، وصناعة السيارات، مثل مصانع شركة لادا لتجميع سيارات فيات الإيطالية.

يشكل التتاريون من سكان جمهورية تتارستان نسبة ٥٠٪ من إجمالي عدد السكان فيها، بينما تبلغ نسبة السكان الروس ٤٠٪، والنسبة الباقية هي لقوميات أخرى مثل التشوفاش، الأدمـورت والماريين وغيرهم.

وبينما يتمركز الروس في المدن، يعيش غالبية التتار في المناطق الريفية. هذه التركيبة السكانية تؤثر دون شك في التوجهات المستقبلية للجمهورية خصوصاً في ما يخص النزاعات الاستقلالية التي يثيرها القوميون التتار.

اللغة، التعليم والثقافة

ينص دستور جمهورية تتارستان على وجود لغتين رسميتين، هما: اللغة التتارية واللغة الروسية. وتعتمد الأبجدية السيريلية في الكتابة.

يتكلم التتار اللغة التتارية وهي فرع من عائلة اللغات التركية.

وهي لغة رسمية في تتارستان كالروسية ومستخدمة في عدة أقطار أخرى مثل: بشكيريا، موردوفيا، أوزبكستان وكازاخستان وأذربيجان وقيرغيزستان وطاجيكستان، ويعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادي. استخدم التتار الحروف العربية حتى العام ١٩٢٧، ثم استبدلت بالأحرف اللاتينية حتى العام ١٩٣٩ حيث استعمل بعد ذلك الحرف الكيريلي، بعد ذلك، أعيد استعمال الحرف اللاتيني.

لقد بلغ تطور العلم والتعليم في تتارستان مستوى عالياً جداً، وأقيمت أول جامعة في قازان عاصمة تتارستان في سنة ١٨٠٤، وقد ترأسها في القرن التاسع عشر عالم الرياضيات الروسي المعروف نيقولاي لاباتشيفسكي. كما عمل فيها عالما الكيمياء الشهيران نيقولاي زينين وألكسندر بوتليروف. وتخرج في كليتها الشرقية الكاتب الروسي الشهير ليوتولستوي الذي درَس فيها اللغات الروسية والفرنسية والألمانية والإنجليزية والتتارية والعربية.

ويوجد في مدينة قازان اليوم حوالى ٣٠ مؤسسة تعليمية عليا، بما في ذلك معهد الموسيقى العالي، الذي تعلم فيه العديد من الموسيقيين المعروفين منهم: المؤلفة الموسيقية صوفيا غوبايدولينا، وعازف البيانو ميخائيل بليتنيوف. تُقام في مدينة قازان دورياً المهرجانات والمسابقات الموسيقية الدولية من ضمنها مهرجان الأوبرا الذي يحمل اسم المغني الروسي المعروف فيودور شاليابين، وهو من مواليد هذه المدينة.

لمحة عن التاريخ السياسي لتتارستان

منذ القرن السابع الميلادي عُرف التتار كأحفاد لبلقار الفولغا الذين اعتنقوا الإسلام عبر الدعوات الدينية التي حملتها القوافل التجارية والرحلات من آسيا الوسطى إلى إقليم تتارستان وبالعكس.

وقد اعتنق بلقار الفولغا الإسلام بفضل الدعوة التي حملها إليهم أحمد بن فضلان موفداً من الخليفة المقتدر، في العام ٩٢١م. وبعد ذلك التاريخ حلت الأحرف العربية محل الأحرف التركية المستخدمة من قبل بلقار الفولغا. وأول دولة إقطاعية شكلها في شمال شرقي أوروبا بلقار الفولغا كانت في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وقد تعرّض بلقار الفولغا للغزو المغولي في العام ١٢٣٧. وقد تفككت الإمبراطورية المغولية في منتصف القرن الخامس عشر إلى أربع قبائل من بينها القبيلة الأكثر أهمية، وهي القبيلة القازانية نسبة إلى مدينة قازان.

ومع حلول القرن السادس عشر، وبالتحديد في العام ١٥٥٢ تمكن القيصر الروسي إيفان الرابع (إيفان الرهيب) من حصار مدينة قازان وإسقاط القبيلة القازانية.

لقد كان الإسلام منتشراً بين سكانها، فاضطهد أهلها، وحاول الروس في تلك الحقبة اجتذاب التتار إلى المسيحية بالقوة، لكنهم فشلوا. ومنذ العام ١٧٧٨م بذلت الإمبراطورة كاترين الثانية جهوداً جبارة لاستمالة التتار إلى المسيحية، ومن أجل ذلك أمرت بأن يوقّع كل واحد من المرتدين الذين اعتنقوا المسيحية إقراراً كتابياً يتعهد فيه

بترك خطاياه ويتجنب الاتصال بالكفار (المسلمين)، وأن يبقى على الدين المسيحي.

غير أن التتار الذين اعتنقوا المسيحية تعسفاً، واجهوا لاحقاً حملات التنصير بقوة وثبات. واستمر هذا الصراع طويلاً، حيث شهد القرن التاسع عشر الميلادي صدور عدة قوانين تحد من انتشار الدعوة الإسلامية. ودعا القانون الجنائي الروسي إلى معاقبة كل شخص يتسبب بتحويل مسيحي روسي إلى الإسلام بالأشغال الشاقة، الأمر الذي جعل الدعاة المسلمين يقومون بدورهم بصورة سرية. وشهدت روسيا بعد ذلك، وتحديداً ما بعد العام ١٩٠٥، دخول الآلاف من الروس التتار في الإسلام على أثر صدور قانون حرية التدين في روسيا القيصرية. وسارت الدعوة الإسلامية على ضوء ذلك قدماً وبحماسة بالغة، وتحول كل مسلم إلى داعية. ولقد أثمرت دعوة التتار تلك بوجود أنصار لهم في سيبيريا وغيرها من المناطق الروسية.

وقبل استيلاء السوفيات على السلطة بعد ثورة العام ١٩١٧، كان في مدينة قازان عاصمة جمهورية تتارستان جامعة إسلامية ضمت سبعة آلاف طالب في العقد الأول من القرن العشرين. وكان فيها مطبعة أصدرت مليون نسخة من مائتين وخمسين كتاباً إسلامياً في العام ١٩٠٢، كما كان فيها مكتبة إسلامية يزورها آلاف المسلمين سنوياً. وقد تجاوز عدد المساجد في تلك الحقبة في جمهورية تتارستان الألف مسجد، تقلص عددها في العهد السوفياتي إلى ثلاثة عشر مسجداً.

إن الدعوة الإسلامية التي توسعت إثر صدور قانون حرية التدين في العام ١٩٠٥ ووصلت إلى تتار سيبيريا، سرعان ما أُخمدت بعدما استولى السوفيات على السلطة، حيث واجه التتار حرباً قاسية على معتقداتهم. فأُغلقت المدارس الدينية ودُمّرت المكتبات والمطابع الإسلامية في قازان عاصمة تتاريا. وواجه المسلمون التتار مواقف مؤلمة في ثورتهم ضد الاضطهاد الديني وقدموا العديد من الشهداء، ومنهم من الذين تعاونوا في البداية مع الشيوعيين مثل السلطان علي أوغلي الذي عرف أيام السوفيات باسم (عالياف) وهو الذي نادى بتوحيد المسلمين في روسيا في كيان دولة واحدة تتحد مع السوفيات. فقُبض عليه سنة ١٩٢٣م وأُعدم سنة ١٩٣٧. ورفض السوفيات وحدة الأراضي الإسلامية واجتهدوا في توزيع المسلمين إلى قوميات للقضاء على وحدتهم.

لقد أدمج الروس كل المناطق الإسلامية التي توجد في روسيا الأوروبية في إدارة دينية واحدة مقرها مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية بشكيريا، وتشرف على المسلمين بمن فيهم مسلمو سيبيريا، وجّردوا هذه الإدارة من كل السلطات وأصبح وجودها شكلياً. ولكن في الآونة الأخيرة تغيّرت الأمور مع تنامي دعوات الحرية والانفتاح التي شهدتها جمهورية روسيا الاتحادية.

وفي هذا المجال لا بد من الإشارة إلى أنه في العام ١٩٢٠ ضُمّت تتارستان كجمهورية ذات حكم ذاتي ضمن حدود جمهورية روسيا السوفياتية. وفي نهاية فترة حكم الرئيس غورباتشوف، أعلنت تتارستان

استقلالها في ٣٠ آب عام ١٩٩٠. وبعد تفكك الاتحاد السوفياتي تم التوقيع بين قازان وموسكو على مذكرة تفاهم في آذار عام ١٩٩٢، تضمّنت صيغة جديدة من الاستقلال، ولكن ضمن الفيدرالية الروسية. وفي شباط عام ١٩٩٤ جرى تطوير مذكرة التفاهم إلى مستوى معاهدة، وقّعها الجانبان التتاري والقيادة المركزية لروسيا الاتحادية.

نصت هذه المعاهدة على التفويض المتبادل للسلطة بين موسكو وقازان، واعتبرت مثالاً يحتذى بين موسكو وسائر الأقاليم الإدارية، فيما صار يعرف باسم «المسار التتارستاني». ويجمع العديد من المحللين الروس على أن ما تضمّنته هذه المعاهدة يحدّ، لا بل يعطّل، إلى حدٍ كبير دعوات المطالبين باستقلال بعض الأقاليم أو الجمهوريات الإسلامية عن جمهورية روسيا الاتحادية. وما يجب لفت النظر إليه، أن عرفاً قد ساد في جمهورية تتارستان في توزيع السلطات منذ الحقبة السوفياتية، ولا يزال معمولاً به حتى اليوم.

هذا العرف يقضي بأن يكون رئيس الجمهورية مسلماً ونائبه مسيحياً أرثوذكسياً، في حين يكون رئيس الحكومة مسيحياً أرثوذكسياً ونائبه مسلماً.

٣- إقليم أستراخان

يقع إقليم أستراخان في جنوب غربي روسيا الاتحادية ويمتد على طول المجرى الأدنى لنهر الفولغا ورافده «أختوبا»، وينتهي عند دلتا النهر العريضة.

تبلغ مساحة هذا الإقليم ٤٤١٠٠ كم٢، ويبلغ عدد سكانه (١,٢٠٠,٠٠٠) نسمة حسب إحصاء العام ٢٠١٠. يعيش معظم سكان الإقليم في منطقة الدلتا وفي مدينة أستراخان العاصمة وحولها.

تشتهر سهول الإقليم المحيطة بنهر الفولغا وروافده بالخصب، وتنتج فيها الخضر والفاكهة على أنواعها، إضافة إلى أنواع نادرة من النباتات وفي مقدمتها نبات «اللوتس»، كما تعيش فيها أعداد كبيرة ومتنوعة من الطيور، أهمها البجع والكركي. أما المناطق البعيدة عن النهر فمعظمها سهلية جافة وشبه صحراوية، وتصلح نباتاتها كمراعٍ. ويشتهر الإقليم بثروته السمكية على الرغم من التلوث وانخفاضه عن مستوى البحر، ويستخرج الملح من البحيرات في الإقليم المتعدد الجزر.

وتعد أستراخان مركزاً مهماً لصيد السمك وتعليبها وحفظ الكافيار. ومن أهم الصناعات الأخرى فيها، صناعة الألبسة والأحذية، وإصلاح السفن. وكذلك تشتهر أستراخان بصناعة الفرو الثمين الذي يسمى «الفرو الأستراخاني»، وبمعاهد إعداد المدرسين والمعاهد الطبية، والمعاهد التقنية التي تهتم بتصنيع السمك والأغذية.

وفي أستراخان أهم تقاطع للسكك الحديد الروسية، حيث تصل جبال القوقاز بوادي الفولغا وجبال الأورال وهي في الوقت نفسه ميناء نهري مهم.

مدينة أستراخان، عاصمة الإقليم

تقع مدينة أستراخان عاصمة الإقليم على دلتا نهر الفولغا، وقد ضمت تاريخياً عواصم الخزر والقبيل الذهبي. وقد مر بها ابن بطوطة سنة ١٣٣٣م وسماها مدينة (حاجي طُرخان) وهو أحد الأولياء الصالحين. دخلها تيمورلنك في العام ١٣٩٥م وأحرقها تماماً. ومن العام ١٤٥٩ إلى العام ١٥٥٦ كانت (حاجي طرخان) عاصمة خانية أستراخان وهي تقع على بعد ٦٣ كلم من ساحل بحر قزوين أو (الخزر) وعلى ارتفاع ٧,٦ م عن سطحه. وتبعد عن موسكو مسافة ١٢٨٠كلم إلى جهة الجنوب الشرقي، وهي تمتد على عدة جزر نهرية على الضفة الشرقية لمجرى نهر الفولغا، وقد أسسها المغول كنقطة جمع الضرائب من الروس.

وفي العام ١٥٥٦ غزا إيفان الرهيب خانية أستراخان وبنى فيها قلعة جديدة أو « كريملين» على ربوة شاهقة تظل على نهر الفولغا، وحاصرها العثمانيون في العام ١٥٦٩ ثم ما لبثوا أن تراجعوا عنها بعد عام واحد.

وبعد ذلك التاريخ فُتح نهر الفولغا للملاحة أمام السفن الروسية. وفي القرن السابع عشر تطورت مدينة أستراخان كبوابة لروسيا على الشرق، وقد استقر فيها تجار من أرمينيا وبلاد فارس والهند وحيفا، ما أعطاها طابعاً متعدد القوميات، يبرزه التنوع الهندسي في مبانيها.

توالى على حكم إقليم أستراخان، المغول والتتار والقلموق

والقوزاق، وأُخضع للسيادة الروسية مرة، وجعل منه القيصر بطرس الأكبر حاكمية خاصة عام ١٧١٧، ثم أُلحق بمنطقة شمالي القوقاز في الفترة ما بين عامي ١٧٨٥ و١٨٣٢، ومُنح الاستقلال الذاتي عام ١٨٦٠. ثم أُلحق عام ١٩١٩ بجمهورية روسيا الاتحادية وأعيد النظر في حدوده عام ١٩٤٣ بعد فصل إقليم القلموق عنه.

في نهاية القرن التاسع عشر كان في المدينة ٣٠ كنيسة أرثوذكسية و٦ كنائس أرمنية وكاثوليكية ولوثرية ومسجد واحد للمسلمين، ومعبد واحد لليهود.

وفي العام ١٨٨٥ بلغ عدد المصانع والمعامل فيها ٦٢ مصنعاً، وكان أهلها يعملون في صيد الأسماك والزراعة خصوصاً زراعة (العنب). وبعد تطور صناعة النفط في مدينة باكو عاصمة أذربيجان القوقازية في ستينيات القرن التاسع عشر، أصبح ميناء أستراخان من أكبر الموانئ الروسية على نهر الفولغا.

ومدينة أستراخان اليوم، هي مدينة عصرية، تتقدم كمركز صناعي وسياحي، وتقع على تقاطع الطرق التجارية القديمة بين أوروبا وآسيا. وفيها وسائل نقل بحرية وبرية وجوية متطورة وحديثة. والمدينة مقسمة إلى إحدى عشرة جزيرة في نهر الفولغا تبلغ مساحتها ٥٠٠ كيلو متر مربع، عدد سكانها نصف مليون نسمة، يمثلون أكثر من مئة قومية وطائفة دينية من مسيحيين ومسلمين وبوذيين ويهود وغيرهم، ونسبة المسلمين بينهم تقارب الـ١٥٪.

تعتبر خطوط النقل في المدينة جزءاً من شبكة النقل العالمية نظراً غلى موقعهِا الجغرافي حيث أنها تغطي الجزء الروسي من الممر الدولي «شمال - جنوب» الذي يسمح بتقليص الوقت في نقل البضائع من جنوب شرقي آسيا إلى أوروبا الغربية قياساً بالطريق التقليدي عبر البحر المتوسط إلى قناة السويس.

وتوجد فيها إضافة إلى مصانع المواد الغذائية، مصانع كبيرة لإنتاج الحفّارات التي تستخدم في حفر آبار التنقيب عن النفط والغاز في منطقة الجرف القاري، وأيضاً مصانع بناء السفن وصيانتها، ومصانع إنتاج مختلف أنواع مواد البناء.

ويعتبر كرملين المدينة (١٥٨٠-١٦٢٠) من الأماكن السياحية الشهيرة. وتوجد في داخله: كاتدرائية صعود العذراء الشهيرة (١٦٩٠-١٧١٠) وكاتدرائية الثالوث (١٦٠٠-١٨٠٠)، وغيرها من المباني التاريخية القديمة، مثل كنيسة القديس فلاديمير وقصر غوين...

(موسوعة روسيا اليوم، بوابة تجمعات سكانية، بوابة روسيا).

٤- جمهورية الجوفاش: أو التشوفاش

تبلغ مساحتها ١٨,٠٠٠ كيلومتر مربع ويصل عدد سكانها إلى مليوني نسمة، نسبة المسلمين بينهم حوالى ٦٠٪.

والجوفاش عرق خاص لا ينتمي إلى الجنس التركي. وعاصمة هذه الجمهورية هي مدينة (شبوقساري).

٥ـ جمهورية موردوف

تبلغ مساحتها ٢٥,٠٠٠ ألف كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها مليون نسمة تقريباً ونسبة المسلمين بينهم ٥٥٪ وعاصمتها هي مدينة (سارانسك).

٦ـ جمهورية أدمورت أو أدمورنيا

تبلغ مساحتها ٤٢,٠٠٠ ألف كيلومتر مربع، وعدد سكانها حوالى مليون ونصف المليون نسمة، نسبة المسلمين بينهم ٥٥٪. وعاصمتها مدينة (إيجيفسك).

٧-جمهورية ماري إل

تبلغ مساحتها ٢٤,٠٠٠ ألف كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها حوالى مليون نسمة، ونسبة المسلمين بينهم ٥٢٪ وعاصمتها مدينة (يوشكار -أولا).

٨-إقليم أورنبرغ

مساحته ١١٢,٠٠٠ كيلو متر مربع، وعدد سكانه مليونان ونصف المليون نسمة، وهم مزيج من التتار والبشكير، والروس والأوكران، وتبلغ نسبة المسلمين بينهم ٥٢٪ وعاصمته مدينة (أورنبرغ) ATTP://ARABIC,S[EST,OLMEWS.COM

ثانياً: الكيانات المسلمة في منطقة القوقاز

القوقاز، أوالقفقاس أو بلاد القبق، هي منطقة جغرافية سياسية تقع عند حدود أوروبا وآسيا. وهي تعرف بموطن جبال القوقاز.

ويعود أصل الكلمة إلى إسم قوقاز ابن توغايا حفيد يافت وهو ثالث أبناء نوح. وبعد سقوط برج بابل وتقسيم البشرية إلى لغات مختلفة استقر توغايا مع أبنائه ومنهم قفقاس (قوقاز) في مملكة إيغريسي الواقعة بين جبلين من المستحيل الوصول إليهما في ذلك الزمان، وهما جبل ألبروز وجبل آرارات.

والقوقاز هو الاسم الشائع للمصطلح الروسي «القفقاس»، وكلاهما من الأصل اللاتيني « قوقاموس».

وعلى الرغم من أن إقليم القوقاز يمثل بموقعه حضارة أور-آسيوية، فإن التأثير الثقافي الآسيوي فيه أكثر وضوحاً، ويقطنه أكثر من خمسين شعباً يتحدثون لغات مختلفة. وأهم الكيانات ذات الأكثرية المسلمة في القوقاز هي: داغستان، الشيشان، أنغوشيا، أوسيتيا الشمالية وآلانيا، قبردينوبلقاريا، (قرة تشاي شركيسيا) أديغيا.

١ -داغستان/

جغرافيا، موارد، ومعالم طبيعية

جمهورية داغستان الروسية هي أحد الكيانات الفيدرالية في

روسيا الاتحادية. تقع في الجزء الأوروبي من روسيا في منطقة شمال القوقاز على طول ساحل بحر قزوين. تحدها من الجنوب والجنوب الغربي الجمهوريتان السوفيتيتان السابقتان أذربيجان وجورجيا، وتحدها غرباً وشمالاً أقاليم روسيا الاتحادية، وهي جمهورية الشيشان وإقليم ستافروبل وجمهورية كالميكيا.

وتعني كلمة داغستان باللغة التركية، (بلاد الجبال). وفي الواقع، فإن جبال القوقاز تؤلف قسمَيْ الجمهورية الجنوبي والأوسط، وهي مصدر ينابيع أنهار داغستان العديدة التي يبلغ عددها ستة آلاف نهر. وتجري عبر أراضي داغستان أنهار كبيرة، مثل أنهار تيريك وسولاك وسامور التي تشكل المصدر الأساسي في إمداد منطقة القوقاز بالمياه، فضلاً عن دورها في توليد الطاقة الكهربائية، مثل سلسلة المحطات الكهرومائية الواقعة على نهر سولاك التي تزوّد إقليم جنوب روسيا بالطاقة الكهربائية.

تشكل الجبال ثلاثة أرباع مساحة جمهورية داغستان، وتحيط مياه بحر قزوين الغني جداً بالموارد الطبيعية بالقسم الشرقي منها، وتستخدم منطقة الجرف القاري فيها لاصطياد الأسماك. ويُصطاد في بحر قزوين تسعة أعشار من ثروة سمك الحفش الذي يستخرج منه الكافيار في العالم وسمك السلمون الذي يعد من أفضل الأسماك في العالم.

وتحتوي منطقة الجرف القاري في بحر قزوين على كميات كبيرة من النفط، حيث يتم التنقيب عنه في الوقت الحاضر. ويحتل

النفط والغاز مكان الصدارة بين الثروات الطبيعية المستخرجة من جوف أرض داغستان التي تشتهر بمعالمها الطبيعية المميزة، وبينها (ساري كوم)، وهو أكبر الكثبان الرملية في العالم. وكذلك غابة النباتات الاستوائية المتسلقة الوحيدة في روسيا التي تقع في دلتا نهر سامور، والوادي الذي يشكله نهر السولاك والذي يزيد عمقه عن ١٩٠٠ متر عن هوة كولورادو المشهورة. ومن أهم المعالم الطبيعية في داغستان أيضاً المدينة الطبيعية العجيبة الواقعة بالقرب من قرية (كوغ)، وهي عبارة عن منشآت صنعتها الرياح على شكل أبراج وأعمدة وأقواس.

تعتبر الزراعة وتربية الحيوان أهم النشاطات الاقتصادية في جمهورية داغستان، حيث تزرع الحبوب والعنب وبعض أشجار الفاكهة الأخرى. وقد تطورت الزراعة بسبب مد شبكات الري ضمن الجمهورية.

تعد داغستان مركزاً صناعياً أيضاً. وأهم الصناعات فيها هي الصناعات الاستخراجية للنفط والغاز الطبيعي الموجود حول بحر قزوين. كما توجد الصناعات الكيميائية وصناعة الآلات وإنتاج الطاقة الكهربائية والصناعات المعدنية والصناعات الغذائية. وكذلك تستحوذ داغستان على ثروة خشبية مهمة من خلال الغابات الصنوبرية التي تحتل مساحات واسعة من أراضيها، إضافة إلى العديد من الصناعات اليدوية، أهمها صناعة السجاد.

الديموغرافيا والثقافات

تبلغ مساحة داغستان ٥٠,٣٠٠ ألف كلم٢، وعاصمتها مدينة محج قلعة، ويبلغ عدد سكانها حسب إحصاءات عام ٢٠١٤، ٢,٩٦٣,٩١٨ نسمة وتبلغ نسبة الكثافة السكانية فيها: ٥١,٢ نسمة في الكلم٢.

وداغستان هي جمهورية ذات حكم ذاتي تتبع روسيا الاتحادية، وهي تحتل المرتبة الأولى بين أقاليم روسيا من حيث عدد القوميات التي تقطنها. وهذا ما دعا إلى تسميتها في السابق بلد (جبل اللغات) إلى جانب (بلاد الجبال)، ويقطنها ما يزيد عن ٦٠ شعباً وقومية، بما فيها، أكثر من ٣٠ قومية تختلف لغاتها عن اللغات التي تعود إلى الأسر اللغوية الأساسية الأربع، وهي اللغة الإيرانية واللغة السلافية واللغة التركية واللغة الداغستانية. وبموجب دستور الجمهورية، فإن اللغة الروسية وجميع اللغات الداغستانية تعتبر لغات رسمية في داغستان. إلا أنه توجد ١٤ لغة فقط لها كتابتها الخاصة بها من بينها اللغات الآفارية والأذربيجانية والكوميكية واللاكية والليزيفية والنوغاي والروسية والروتوليه والتابسارانية والتاتية والشيشانية.

كانت اللغات الداغستانية تكتب بحروف عربية، وقد صدرت بها عدة مجلات في مختلف العلوم، وأضافوا إلى حروف الهجاء العربية عدة حروف، ودخلتها كلمات عربية كثيرة. كما كان أهل داغستان يتحدثون العربية إلى جانب لغتهم، ولا سيما علماء الدين الإسلامي. وأسس الداغستانيون مطابع عديدة طبعت فيها العديد من

الكتب الإسلامية. كما صدرت عدة مجلات وصحف باللغة العربية والداغستانية قبل استبدالها باللغة الروسية.

يعد شعب (آفار) أكبر شعوب داغستان، ويليه شعب (دارغين)، ويأتي في المرتبة الثالثة شعب (قموق) وتليهم بقية شعوب داغستان.

الديانات في داغستان

داغستان دولة علمانية، حيث لا يوجد دين رسمي للدولة؛ فالدستور الروسي والداغستاني يؤمّن حرية المعتقد والدين، وغالبية السكان تدين بالإسلام، ويشكل المسلمون فيها ٩٤٪ من عدد السكان. وتعتبر الكنيسة الأرثوذكسية أكبر الطوائف المسيحية في داغستان ويشكل أتباعها ٥٪ من سكان هذه الجمهورية التي يقطنها أيضاً يهود الجبال، وهم يشكلون ١٪ من تعداد السكان، وقد تم تسجيل العدد الأكبر منهم مواطنين ينتمون إلى قومية «التاب» أي الفرس «القوقازيين» الذين هاجر قسم كبير منهم في الآونة الأخيرة إلى إسرائيل.

أقدم مسجد في روسيا هو مسجد مدينة (دربند) أودربنت، الذي بني في العام ٧٣٣م. ويوجد في (محج قلعة) عاصمة داغستان (مسجد الجمعة) وهو ثاني أكبر مسجد في أوروبا.

وتدير شؤون المنشآت الإسلامية وأئمة المساجد والدعاة في جمهورية داغستان، الإدارة الدينية لمسلمي داغستان التي تأسست في العام ١٩٧٥، وهي تقوم بإدارة نحو ٢٠٠٠ مسجد في البلاد. أما

المنشآت المسيحية فتتمّ إدارتها من قبل أبرشية (فلاديقفقاز ومحج قلعة) التابعة للكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

أهم المحطات في تاريخ داغستان

نشأت أول دولة في تاريخ داغستان في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي دولة ألبانيا القوقازية التي كانت دولة تتألف من ٢٦ دويلة على مساحة جنوب داغستان وشمال أذربيجان. وكان يقطنها أسلاف القوميات الناطقة باللغة الليزغينية. وفي مختلف مراحل تاريخها كانت تلك الدولة تقيم أفضل العلاقات مع حكام إيران الساسانية والخلفاء المسلمين. وبقيت دولة ألبانيا القوقازية تحتفظ بكيانها حتى القرن السابع عشر الميلادي حيث دمرها الروس.

شكلت دولة ألبانيا القوقازية ملتقى الحضارات ودروب القوافل والهجرة. لذلك كانت تخوض الحروب من أجل الاستقلال مع الفرس والروم والهنود والخزر والروس الذين دمروها في نهاية المطاف.

داغستان في العهد الإمبراطوري الروسي

كانت روسيا في الفترة ما بين ١٥٨٨ و١٦٠٧ تخوض الحرب مع الإمارة الشملخية. وانتهت الحرب بتبادل الأسرى عام ١٦٠٧، وعقدت اتفاقية الهدنة بوساطة شاه إيران عباس الأول.

يعود تاريخ أول اجتياح روسي لداغستان إلى العام ١٥٩٤ في عهد القيصر فيودور إيفانوفيتش. وبعد حروب طويلة دامت سنوات

عدة لم يتمكن الروس من إحكام سيطرتهم على هذه المنطقة، إلى حين قامت قوات القيصر بطرس الأكبر في العام ١٧٢٢ بالحملة التي انتهت بضم شاطئ قزوين الشمالي إلى روسيا.

اتسمت سياسة الروس في القوقاز بالشراسة والقسوة تجاه شعوب تلك المنطقة التي كانت تشتعل بالثورات من وقت إلى أخر ناشدة الحرية ورافضة الاندماج في روسيا.

في القرن الخامس عشر، سيطر العثمانيون على داغستان والمناطق المجاورة، ودخل الإسلام تدريجاً في النسيج السكاني الداغستاني. ومع ظهور بوادر الضعف على الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، راحت ثلاث قوى تتنازع على النفوذ في منطقة شمال القوقاز هي: العثمانيون، الروس والفرس. وفي العام ١٨١٣، تم توقيع اتفاق غولستون بين الروس والفرس، الذي منح الروس حق السيطرة على الإقليم.

في العام ١٨٢٩، اندلعت الثورة ضد الحكم الروسي في المناطق الجبلية من داغستان، وقاد هذه الثورة غازي محمد الغيمراوي الذي انتخب من قبل علماء داغستان إماماً لهم.

وبعد استشهاد الإمام غازي محمد الغيمراوي في قرية (غيمري) وهي مسقط رأسه، انتخب وريثه (حمزة بيك) إماماً ثانياً لداغستان، الذي قُتل بعد عدة أشهر من توليه الإمامة، وجاء بعده (الإمام الشيخ شامل الغمراوي) من قرية غيمري الداغستانية، الذي حمل راية الجهاد

وقاد النضال ضد الغزاة الروس قرابة خمس وثلاثين سنة وألحق الهزائم بهم. وهو الإمام الذي استطاع أن يؤسس دولة (الإمامة) في شمال داغستان والشيشان.

في العام ١٨٦٠ تم تشكيل إقليم داغستان تحت الإدارة العسكرية الروسية. وفي العام ١٨٧٧ شهدت داغستان ثورة جديدة ضد القوات الروسية تزعّمها وقادها نجل الإمام (شامل الغمراوي) ودعمته، بإنزال ناجح، القوات العثمانية الموجودة في أبخازيا المجاورة. إلا أن الروس تمكنوا من التغلب على الثورة وقمعوها بقسوة شديدة انتهت إلى إعدام الكثيرين وتهجير آخرين إلى سجون في أقاليم روسيا الباردة.

كان لانضمام داغستان إلى الإمبراطورية الروسية دور إيجابي للروس في تطوير تداول السلع والأموال وتوسيع علاقات روسيا الاقتصادية والتجارية. لكن مستوى معيشة الشعب الداغستاني استمر متدنياً جداً حتى انهيار الإمبراطورية الروسية في مطلع القرن العشرين.

لقد أيدت داغستان ثورة أعوام ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ثم ثورة تشرين الأول/ أكتوبر في روسيا في العام ١٩١٧.

داغستان في العهد السوفياتي

شارك الداغستانيون والقوقازيون بشكل عام في الحرب العالمية الثانية في القتال في الجبهة الشرقية ضد الألمان، وقضى الآلاف من الداغستانيين بسبب البرد والقتال. وفي السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية شهدت داغستان نهضة اقتصادية كبيرة صبت في خدمة

الاقتصاد الروسي. وفي خمسينيات وستينيات القرن الماضي شهدت داغستان هجرة كبيرة لأهالي الجبال إلى الوديان بحثاً عن ظروف معيشية أفضل، بسبب فرض الأنظمة الشيوعية (نظام السوفخوزات)، الأمر الذي أدى إلى انحطاط نظام الزراعة الجبلي التقليدي القائم على زراعة الخضر في حقول واقعة على سفوح الجبال، وفقدان التقاليد والعادات الشعبية العريقة. وتجدر الإشارة إلى أن عدد المساجد قد تقلص في العهد السوفياتي في داغستان من (١٠٠٠ إلى ٢٧) مسجداً، كما تلاشى التعليم الإسلامي كذلك. وإلى حد ما غابت ممارسة الطقوس الدينية.

داغستان ضمن روسيا الاتحادية

بعد تفكك الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١ تغيّر الوضع القانوني لداغستان وصارت تدعى جمهورية داغستان، وهي جمهورية ذات حكم ذاتي في روسيا الاتحادية.

يرتكز دستور الجمهورية على القانون الأساسي للكيان الفيدرالي الروسي، والسلطات في الجمهورية تتوزع على: مجلس تشريعي من ٩٠ عضواً ينتخبون من الشعب لمدة ٥ سنوات، وهيئة تنفيذية أي الحكومة وهي تتألف من ممثلي ١٤ مكوناً من شعوب داغستان ورئيس الجمهورية الذي يعينه رئيس الدولة الاتحادية من بين ثلاثة مرشحين تقدمهم الهيئة التشريعية.

الإسلام في جمهورية داغستان

كانت منطقة داغستان قبل وصول الإسلام إليها تتبع الإمبراطورية الساسانية، وكان يتولى الحكم فيها الملك شهر براز ومقره مدينة (باب الأبواب). أما ديانة السكان فكانت المجوسية والنصرانية وأقلية يهودية.

ويعود أول اتصال للمسلمين بهذه المنطقة إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، الذي وجه إليهم حملة بقيادة (سراقة بن عمرو) التي وصلت إلى مدينة باب الأبواب في سنة ٢٠ هجرية. ويجمع المؤرخون أنه لم يقع قتال في المدينة بسبب ذلك، بل أسفرت الحملة عن توقيع صلح فريد في نوعه، حيث قبل قائد الجيش المسلم ما ارتضاه ملك المدينة (شهربراز)، وهو الانخراط في القتال في صفوف الجيش المسلم عوضاً عن الجزية، الأمر الذي أفضى إلى جعل مدينة باب الأبواب مركز انطلاق جيش المسلمين في الحملات ضد أعدائهم. وقد أجاز عمر بن الخطاب نصوص هذا الصلح ووافق عليه.

ومن مدينة باب الأبواب اتجهت الحملات الإسلامية إلى بلاد الخزر، وبقية بلاد (الراز) و(أرمينيا). فقاد بكر بن عبد الله حملة إلى (القرقاز)، وقاد حبيب بن مسلمة حملة إلى (تبليسي)، وقاد حذيفة بن أسيد حملة إلى جبال اللان، وقاد سلمان بن ربيعة حملة إلى حدود (أرمينيا). وأمر الخليفة عمر بن الخطاب عبد الرحمن بن ربيعة بغزو بلاد الخزر، فوصلت الجيوش الإسلامية إلى مدينة (بلنجر)، وتقدمت

شمالاً إلى مدينة البيضاء. وهكذا أصبحت مدينة باب الأبواب ثغراً متقدماً للدولة الإسلامية في الشمال الشرقي من إقليم الرحاب في مواجهة أعداء الدولة الإسلامية من الخزر والروس.

وتتابعت حملات الدعوة الإسلامية في هذه المنطقة في عهد الخليفة عثمان بن عفان، إلا أنها سرعان ما أصيبت بالجمود في بداية العصر الأموي، ولكنها استؤنفت خلال خلافة هشام بن مروان، حيث شهدت منطقة الرحاب تصعيداً للصراع بين الإسلام والقوى المعادية من الروس والخزر، وجرى تحشيد قوات إسلامية عظيمة بقيادة (سعيد الحرشي) الذي تمكن من هزم الخزر والران وتعقبهم بعيداً خارج حدود إقليم الرحاب.

وفي العهد الأموي اتُبعت سياسة إبعاد العناصر المشتبه فيها، وتشجيع العناصر العربية على استيطان المنطقة. وقد أسكن مسلمة بن عبد الملك ٢٤ ألف نسمة من أهل الشام في مدينة باب الأبواب، الأمر الذي أدى إلى تغيير التركيب البشري للمنطقة، وأصبحت العناصر العربية هي العمود الفقري في الدفاع عنها.

وفي عهد أبي جعفر المنصور العباسي، تولى حدود هذه المنطقة يزيد بن أسيد السلمي الذي وسع الدعوة الإسلامية نحو الشمال في بلاد الران وطبّق فيها سياسة استيطان المسلمين، ما زاد في نسبة معتنقي الدين الإسلامي. وسيطر الأتراك السلاجقة على منطقة الرحاب وما حولها، فازداد عدد الجماعات الإسلامية التي تنتمي إلى أصول تركية،

غير أن هذه المنطقة دُمرت لاحقاً على يد المغول، ثم عاد وتحول الأمر إلى مصلحة المسلمين بعد أن اعتنق المغول الإسلام.

٢-جمهورية الشيشان

الجغرافيا السياسية والسكانية

تقع جمهورية الشيشان على السفوح الشمالية لسلسلة جبال القوقاز الكبرى ويتاخمها سهل الشيشان ومنخفض تيريك قوم. يحدها من الجنوب كل من داغستان وجورجيا، ومن الشمال داغستان وكراي وستافروبول، ومن الغرب أوسيتيا الشمالية وأنغوشيا. يبلغ عدد السكان في الشيشان حوالى مليون وثلاثمائة ألف نسمة، منهم مليون نسمة من الشيشانيين يدين معظمهم بالإسلام.

وبعد تفكك الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٩١، جرى تقسيم جمهورية الشيشان أنغوشيا الذاتية الحكم إلى قسمين، جمهورية الشيشان وجمهورية أنغوشيا. وأطلق على جمهورية الشيشان: جمهورية إشكيريا الشيشانية التي سعت للاستقلال عن روسيا الاتحادية.

بعد الحرب الشيشانية الأولى ضد روسيا حصلت الشيشان على الاستقلال بحكم الأمر الواقع. لكن السلطة الروسية أعادتها إلى الاتحاد الروسي بعد الحرب الشيشانية الثانية التي انتهت في العام ١٩٩٩.

تبلغ مساحة الشيشان حالياً ١٥,٧٠٠ كيلومتر مربع، علماً أن

مساحة بلاد الشيشان كانت أكبر من ذلك، لكن الروس قاموا باقتطاع مساحات كبرى منها وضموها إلى جمهوريات داغستان وجورجيا وأوسيتيا. ويقول بعض المؤرخين إنّ الحدود الشرقية للشيشان كانت تمتد حتى بحر قزوين.

الشيشان في التاريخ

شعب الشيشان من الشعوب القديمة في العالم وفي منطقة القوقاز تحديداً. وهو جزء من مملكة (سيرير) ٦٠٠م. و١١٠٠م. ويتألف الشعب الشيشاني منذ القدم من مجموعة من العشائر يفوق عددها المئة، وهي تنقسم إلى قسمين: «الخالص» وهي العشائر الأصيلة في القوقاز التي قَدِمت من الجنوب وتوجهت نحو الشمال وانتشرت في اتجاه البحر الأسود وأرض الشيشان. و«المختلط»، وهي العشائر التي تشكلت من اختلاط عدد من العشائر بعضها مع بعض، أو من اختلاط الشيشان بالبولنديين والأوكرانيين في معسكرات الإبعاد الجماعية (١٩٤٤-١٩٥٧)، في حين اختلطت بعض العشائر الشيشانية بالألمان وشكلت عشيرة جديدة.

وتعود جذور الطباع الصعبة والقاسية عند الشيشانيين إلى تلك العادات العشائرية التي تغذت بها نفوس منتسبيها. لذلك يقولون: من الصعب أن تكون رجلاً شيشانياً لما في ذلك من أعباء يجب على الرجال أن يتحملوها. وفي محاولة لطمس تاريخ الشيشان قام الروس في حرب القوقاز الأولى بإلقاء كل المخطوطات الشيشانية في

بحيرة (كازن – أم). وجرت المحاولة مرة أخرى إبان حملة الإبعاد في العام ١٩٤٤ في عهد ستالين، غير أن الشيشانيين تمكنوا من إنقاذ مخطوطاتهم بأعجوبة.

لقد وُجِدت كتابات شيشانية في مراجع الكتابات المسمارية التي كان يستخدمها الآشوريون.

إن منطقة القوقاز هي من المناطق الي خضعت لجميع الإمبراطوريات التي قامت عبر التاريخ: اليونانيون، الرومان، الفرس، الصينيون. وبعد سقوط الساسانيين، حكم الرومان القوقاز ثانية، إلى أن جاء الفتح الإسلامي، الذي حكم هذه المنطقة حوالى خمسة قرون، كما حكمها السلاجقة، ثم المغول والتتار،الذين استمر حكمهم حتى سيطرة روسيا القيصرية عليها.

الشيشان تحت السيطرة الروسية

قبل الغزو الروسي لمنطقة القوقاز، كان جنوب القوقاز تحت السيطرة العثمانية عدا (أذربيجان)، التي كانت خاضعة لسيطرة الصفويين الإيرانيين.

أما منطقة شمال القوقاز ومنها الشيشان، فكانت تحت النفوذ العثماني. وقد كانت شعوب هذه المنطقة راضية بهذا النفوذ بسبب العقيدة والمذهب، كون الدولة العثمانية هي بمثابة المرجع الديني لها باعتبارها «حاملة راية الخلافة الإسلامية».

بدأ القياصرة الروس غزو القوقاز في العام ١٧٢٢م في عهد

القيصر بطرس الأكبر. وأول صدام مسلح حصل بين الروس والشيشان كان قرب قرية تشتشين. وهذه القرية تبعد حوالى ١٥ كلم عن غروزني عاصمة الشيشان اليوم، وهي لم تكن قائمة في ذلك الوقت، لذلك أطلق الروس على الشعب الشيشاني اسم تشتشين نسبة إلى هذه القرية.

وقاد الإمام منصور، إمام الشيشانيين حرباً ضد الغزو الروسي امتدت من العام ١٧٨٠ حتى العام ١٧٩١ حيث وقع في الأسر ومات في سجن سبلسبرغ عام ١٧٩٤.

ثم قاد الحرب ضد الروس الإمام غازي محمد الداغستاني في العام ١٨٢٤ حتى العام ١٨٣٢م وفي العام ١٩٣٩ بدأت جميع شعوب شمال القوقاز حرباً ضد الروس بزعامة الإمام شامل الداغستاني. وفي العام ١٨٥٩احتل الروس قرية (فيدينو) آخر معقل للشيشانيين، واستسلم الإمام شامل للروس. وعلى الرغم من ذلك قام الشركس بثورتهم ضد الروس في العام ١٨٦٢ الذين تمكنوا من إخمادها في العام ١٨٦٤.

غير أن الثورات الشيشانية ضد الروس لم تهدأ، ومن بينها الحركة القادرية التي استمرت حتى العام ١٩١٧. وبعد انتصار الثورة الشيوعية في روسيا وفي السنوات التي تلت، تجددت المقاومة الشيشانية بوسائل مختلفة، فكانت ثورة ١٩٢٨ بقيادة الشيخ شيتا استاميلوف واستمرت حتى العام ١٩٣٥، وانتهت بإعدام مجموعة كبيرة من القادة الدينيين وحتى الشيوعيين الشيشان.

في العام ١٩٤٠ بدأت مقاومة مدنية سياسية في الشيشان بقيادة الكاتب الشيوعي حسن إسرائيلوف والمحامي الشيوعي مايربك شريبوف، واستمرت حتى العام ١٩٤٢ حيث جرى قمعها وقضي عليها بقصف جوي ومدفعي لمختلف مناطق الشيشان.

في الحرب العالمية الثانية تم نفي وتهجير مئات آلاف الشيشانيين الذين توفي منهم ما لا يقل عن مئة ألف خلال سنتين من التهجير بسبب الظروف السيئة التي عاشوها في التهجير. وأُلغيت جمهورية الشيشان أنغوش، وأسس ستالين جمهورية الشيشان ذات الحكم الذاتي عام ١٩٤٤ ونفى شعبها عام ١٩٤٥ بعد أن اتهمهم بالتعاون مع النازية الهتلرية. استمر اعتقال الشعب الشيشاني في سيبيريا حتى العام ١٩٥٧. وبعد وفاة ستالين، وتولي نيكيتا خروتشوف الحكم في الاتحاد السوفياتي، أمر هذا الأخير بعودة الشيشانيين إلى بلادهم والعيش فيها تحت حكم روسي مباشر.

الشيشان بعد انهيار الاتحاد السوفياتي

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١، انتُخب القائد الجنرال جوهر دوداييف رئيساً للشيشان في الانتخابات العامة التي جرت بتاريخ ٢٧ تشرين الأول من العام ١٩٩١ وحصل فيها على نسبة ٨٥٪ من الأصوات. إثر ذلك أعلن دوداييف استقلال الشيشان، ما أشعل الحرب الضارية بين الروس والشيشان التي استمرت من العام ١٩٩٤ حتى العام ١٩٩٦.

ومن القادة الميدانيين في الحرب الشيشانية الأولى (١٩٩٤-١٩٩٦) شامل باسييف وسامر بن صالح بن عبدالله السويلم (سعودي الجنسية)، وطلعت خطاب وكان قائد المقاتلين العرب في الشيشان.

وإبان هذه الحرب قام القائد الشيشاني الميداني شامل باسييف مع مجموعته باحتلال مبنى مستشفى، وهدد بقتل كل من فيها من أطباء وعاملين ومرضى، وانتهت العملية بقبول السلطات الروسية شروطه. كذلك قام القائد الشيشاني الميداني سلمان رادوييف مع مجموعة من رجاله باحتجاز ثلاثة آلاف من الرهائن من مدينة كزليار بجمهورية داغستان جنوب القوقاز. وقُتل في العملية بعد تدخل القوات الروسية المسلحة ٢٠٠ شخص بينهم ٧٠ جندياً روسياً. تمكن بعدها دوداييف ورجاله من الانسحاب بعد أن أصيب بجروح خطيرة.

وفي ١٦ نيسان عام ١٩٩٦ قاد (خطاب) مجموعة من الشيشانيين مكونة من ٥٠ مقاتلاً وهاجم طابوراً تابعاً للجيش الروسي مكوناً من ٥٠ سيارة أثناء مغادرتها الشيشان. قُتل في هذا الهجوم ٢٢٣ جندياً روسياً من بينهم ٢٦ ضابطاً كبيراً ودمرت السيارات برمتها. وبعدها بشهور نفذت هذه المجموعة عملية ضد معسكر للجيش الروسي نجم عنها تدمير طائرة هليكوبتر.

وهكذا استمرت المعارك بين الطرفين حتى تمكنت القوات الروسية من قتل الرئيس الشيشاني جوهر دوداييف بغارة جوية في ٢١/ ٤/ ١٩٩٦، وتولى الرئاسة مكانه سليم خان يندباييف وبقي رئيساً حتى انتخاب أصلان مسخادوف.

وبناء على الظروف الميدانية والظروف السياسية الدولية رأت روسيا أن أفضل حل للخروج من مأزق الشيشان هو وقف الحرب. لذلك بادرت القيادة الروسية إلى توقيع اتفاقية مع الشيشانيين في ٣١/٨/١٩٩٦، وقعها عن الشيشانيين سليم خان وعن الروس الجنرال الكسندر ليبيد. وتنص الاتفاقية على وقف القتال وخروج الروس من الشيشان، وإجراء استفتاء في الشيشان في ٣١/١٢/١٩٩٦ لتقرير المصير.

وفي ٢٨/١/١٩٩٧ أُعلن فوز أصلان مسخادوف برئاسة جمهورية الشيشان بأغلبية ٦٨,٩٪، وقد تولى الرئاسة رسمياً في ١٢/٢/١٩٩٧.

وبعد ذلك، قام الرئيس الشيشاني الجديد بتوقيع معاهدة سلام مع الروس وقعها عن الجانب الروسي الرئيس بوريس يلتسين في ١٢/٥/١٩٩٧، وهي تنص على بناء العلاقات بينهما وفق القانون الدولي، وأنه لا يجوز استخدام السلاح ولا التهديد باستخدامه، كما تنص المعاهدة على اعتراف روسيا باستقلال الشيشان.

غير أن هذه الاتفاقية لم تدم طويلاً، حيث توالت العمليات ضد الجيش الروسي، ووقعت عدة انفجارات في أماكن مختلفة من روسيا وداغستان أودت بحياة ٢٥٠ شخصاً، فكانت بسببها الحرب الشيشانية الثانية في العام ١٩٩٩ وكان الرئيس بوتين يتولى رئاسة الحكومة الروسية حينذاك. وبعد معارك عدة تمكنت القوات الروسية من احتلال العاصمة غروزني بعد تدميرها بشكل كامل.

ومع ذلك استمرت العمليات الإرهابية في روسيا وكان أفظعها عملية احتجاز المدنيين في مسرح البولشوي في موسكو التي أنهتها القوات الروسية بإدخال الغاز إلى المسرح والتي قضى بسببها العديد من المدنيين. وكذلك عملية مدرسة بيسان في أوسيتيا الشمالية في العام ٢٠٠٤ التي استولى عليها مقاتلون شيشان وقُتِل فيها العديد من الأطفال بعدما قام الجيش الروسي بتحريرها.

السكان والدين في الشيشان

في العام ١٨٨٩ كانت بلاد الشيشان مؤلفة من جمهورية الشيشان أنغوش، وكان عدد سكان الجمهورية في تلك السنة مليوناً ومائتين وخمسين ألف نسمة.

وللإضاءة على تبدلات الواقع السكاني للشيشان، تجدر الإشارة إلى أن العاصمة غروزني التي أُنشئت في العام ١٨١٨ كقلعة عسكرية بلغ عدد سكانها حوالى ٤٠٠ ألف نسمة. وأصبح في العام ٢٠١٠ (٢,٧١٥,٧٣٠) نسمة.

الإسلام هو الديانة الأكثر انتشاراً بين الشيشانيين الذين عرفوا الإسلام قبل ألف عام تقريباً عن طريق التجار العرب. ويوجد في غروزني أحد أكبر مساجد أوروبا. وتغلب على معظم السكان النزعة الصوفية وأهمها القادرية والنقشبندية.

كما توجد في الشيشان أقليات روسية الأصل من المسيحيين

الأرثوذكس يصل عددهم إلى حوالى (٢٥٠٠٠ نسمة)،هذا فضلاً عن أقلية أرمنية وعدد من المسلمين الذين تحولوا إلى المسيحية.

اللغة الشيشانية إلى جانب الروسية هي اللغة الرسمية للشيشان. ويتحدث بها نحو ١,٥ مليون نسمة في جمهوريتي الشيشان وداغستان، وهي تنسب إلى مجموعة لغات « الناخ» المتفرعة من لغات شمال شرقي القوقاز.

الاقتصاد الشيشاني

كان قطاع البترول أول ما تم إعادة بنائه بعد الحرب، حيث أنتجت الشيشان في العام ٢٠٠٣ مليوناً ونصف المليون طن متري أي بمعدل ٣٠ ألف برميل يومياً، وهو معدل إنتاج منخفض مقارنة بما كانت تنتجه قبل الحرب حيث بلغ ٤ ملايين طن متري سنوياً.

وبحلول العام ٢٠٠٦ أُعيد بناء ٩٠٠ مبنى سكني في مدينة غروزني من أصل ما يزيد عن ٦٠,٠٠٠ مبنى تم تدميرها خلال الحرب. وفي العام ٢٠١٣ أعلنت الحكومة أن عدد العاطلين عن العمل سينخفض إلى ١٧٠ ألفاً، بعد أن كان ٢٩٨،٥٠٠ عاطل عن العمل في العام ٢٠٠٨.

إن الثروة الطبيعية الأساسية المتوافرة في باطن أراضي جمهورية الشيشان هي النفط. ومنذ أمد بعيد كان سكانها يستفيدون من مكامن «الذهب الأسود» في الأغراض المنزلية والطبية وكانوا يستخرجونه من آبار النفط الطبيعية والمحفورة خصوصاً لذلك.

وفضلاً عن النفط والغاز توجد في أراضي الشيشان كميات كبيرة من المواد الخام المعدنية التي تستخدم في الصناعات الإنشائية. كما تجدر الإشارة إلى وجود منابع المياه المعدنية التي تحتوي على المواد الكيميائية الكثيرة جداً وذات درجات الحرارة المختلفة التي توفر الفرصة لبناء شبكة متنوعة من المنتجعات الصحية ذات التخصصات الواسعة.

ومن ثروات الشيشان الطبيعية غاباتها الواسعة التي تصنع منها أكثر أنواع الأخشاب انتشاراً وهي تستخدم في صنع الأثاث والآلات الموسيقية....

ما هي الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الشيشان؟

إن منطقة القوقاز الكبرى الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين على كلا جانبي سلسلة جبال القوقاز، كانت معروفة لدى الكثير من الرحالة والبحارة الذين لم تجذبهم بجمالها وأصالتها فحسب، بل بذيوع صيتها كمنطقة ذات ثروات لا تحصى، وقد توجه إليها البحارة اليونانيون القدامى على سفينة (أرغو) الأسطورية بحثاً عن الثروة الذهبية. وكذلك قصدها بحارة بيزنطة والبندقية. ومر بأراضي القوقاز الكبرى في الماضي البعيد، طريق الحرير الكبير، الذي تم شقه منذ القرن الثاني قبل الميلاد.

وأثار ترسيخ روسيا لأقدامها في منطقة القوقاز والبحر الأسود مقاومة شديدة من قبل الدول الأوروبية الغربية الكبرى، علماً أن

اهتمامها بهذه المنطقة كان يعزى بين أمور أخرى إلى العثور على حقول النفط في بحر قزوين. وقد بذلت محاولات عديدة لسلخ هذه المناطق الاستراتيجية الغنية بالثروات الطبيعية من روسيا، وحاولت بريطانيا أولاً القيام بذلك على مدى القرن التاسع عشر كله، ومن ثم ألمانيا الهتلرية في القرن العشرين.

ويبقى شمال القوقاز اليوم بمثابة جسر يربط ما بين روسيا وما وراء القوقاز من جهة، وما بين أوروبا وآسيا من جهة أخرى. من هنا تعتبر أراضي جمهورية الشيشان ممراً هاماً من خلال النقل، حيث ترتبط الجمهورية بأكبر المناطق الاقتصادية في روسيا وكومنولث الدول المستقلة بطرق السكك الحديد التي تنقل عبرها مشتقات النفط والمواد الخام الزراعية والماكينات، هذا فضلاً عن أنه تمر في أراضيها طريق السيارات بين موسكو وروستوف وباكو، وتتفرع منها شبكة خطوط الأنابيب.

الشيشان اليوم

كان العالم يعرف في عهد يلتسين زعماء شيشانيين كسبوا التعاطف الدولي والدعم المادي والسياسي، منهم جوهر دوداييف الذي اغتيل في الشيشان، وسليم خان يندبابييف الذي اغتيل في قطر وأصلان مسخادوف الذي اغتيل في الشيشان. لكن في عهد الرئيس بوتين خطف شامل باسييف قيادة (المقاومة) الشيشانية وقام بممارسات يائسة صنعت مذبحة بيسلان عام ٢٠٠٤ وساهمت في

عزل (المقاومة) الشيشانية وسمحت للجيش الروسي باكتساب مظلة إعلامية دولية مكنته من السيطرة على الوضع في الشيشان. وهكذا تمكنت السلطة المركزية في روسيا في فترة رئاسة بوتين الثانية من أن تصنع من مذبحة بيسلان أسطورة قومية، وجعلها رمزاً للاتحاد الوطني أمام الأعداء الخارجيين.

وتحافظ الإدارة الروسية اليوم برئاسة بوتين على وضعية الشيشان والقوقاز بشكل عام كنطاق عازل لا يحسب استراتيجياً ضمن الأراضي الروسية ولكنه لا هوية وطنية له. واستعارت القيادة الشيشانية الحالية المدعومة من موسكو النموذج العربي في التوريث بتولي رمضان قاديروف نجل أحمد قاديروف (الرئيس المغتال في أيار عام ٢٠٠٥) منصب رئاسة جمهورية الشيشان، الأمر الذي قد يؤدي إلى تعميق الحكم القبلي، وإضفاء الولاء في الجمهورية الشيشانية على شخص الرئيس بتغليب حكم الأجهزة الأمنية والعسكرية.

وفي العام ٢٠٠٣، جرى استفتاء في الشيشان على الدستور الجديد الذي يعيد ربط جمهورية الشيشان بروسيا الاتحادية. وكانت نتائج الاستفتاء الذي شاركت فيه نسبة عالية من الشيشانيين لمصلحة انضمام جمهورية الشيشان إلى روسيا. وقد أجاب عن السؤال الأول! هل توافق على دستور الجمهورية الشيشانية؟ ٩٥,٥٪ من المشاركين في التصويت بنعم فيما عارض ٤,١ منهم.

وأيد حوالى ٩٦٪ السؤالين المتعلقين بالقوانين حول انتخابات

رئيس الجمهورية والبرلمان التي تعطي المركز في موسكو حق اختيار المرشح للرئاسة. «وكالة انترفاكس الروسية ٣٢/ ٣/ ٢٠٠٢.»

وعلق الرئيس بوتين على نتائج الاستفتاء في كلمة أوردتها وكالة إيتارتاس الروسية في ٣١/ ٣/ ٢٠٠٣ قائلاً: «إن نتيجة الاستفتاء الدستوري تؤكد أننا أقفلنا ملف المسألة الخطيرة المرتبطة بوحدة أراضي روسيا. وإن الدستور الذي تم تبنيه الأحد بغالبية كبيرة من الشيشانيين يؤكد انتماء الجمهورية الشيشانية غير القابل للتصرف إلى روسيا».

ورغم الاستقرار الذي تشهده جمهورية الشيشان منذ العام ٢٠٠٩، وعملية إعادة البناء (البطيئة نسبياً)، وتوسع نشاط الحركات والمؤتمرات الصوفية فيها، إلا أن مخاطر أمنية كبيرة لا تزال تحدق بها وبمنطقة القوقاز بشكل عام على خلفية تنامي التطرف الديني في القوقاز وفي البلدان المجاورة في آسيا الوسطى، والشرق الأوسط ومشاركة مقاتلين من الشيشان وداغستان وأوزباكستان وغريزستان وأفغانستان في تنظيم القاعدة وفي داعش.

٣ - جمهورية أوسيتيا الشمالية- ألانيا

هي جمهورية ذات حكم ذاتي في إطار روسيا الاتحادية وعاصمتها مدينة (فلاديقفقاز) تقع في النطاق الشمالي لجبال القوقاز. تحدها من الشرق، الشيشان وأنغوشيا، ومن الغرب قبردينوبلقاريا وجورجيا من الجنوب، وبقية روسيا الاتحادية من الشمال.

تبلغ مساحتها ٨ آلاف كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها ٧٠٣٤٧٠ نسمة حسب إحصاء ٢٠١٦.

أرض أوسيتيا الشمالية جبيلة، تنبع منها العديد من الروافد التي تغذي نهري تيريك والدون وغيرهما، وهي غنية بالموارد النفطية.

سكان هذا الإقليم غالبيتهم من الروس والأوسيتيين. وينقسم الأوسيتيون إلى أيرون وكوارد وديجور، وهم ينتمون إلى العرق الآري الشديد البياض. ويشكل المسلمون الأوسيتيون ٣٣٪ من عدد سكان الإقليم.

وصل الإسلام إلى أوسيتيا من قبردينو بلقاريا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. ودخلت في حلف طوعي مع قياصرة الروس في سنة ١٧٧٤، وتم تأسيسها كجمهورية ذات الحكم الذاتي في العهد السوفياتي سنة ١٩٣٦. «ويكيبيديا الموسوعة الحرة».

الأهمية التاريخية والاستراتيجية لفلاديقفقاز عاصمة أوسيتيا الشمالية

تأسست مدينة (فلاديقفقاز) في العام ١٧٨٤ في عهد إمبراطورة روسيا كاترينا الثانية التي أطلقت عليها اسم قلعة فلاديقفاز أي (مالكة القفقاز)، وجعلتها مخفراً أمامياً بالقرب من بلدة دزاوجيكاو الأوسيتية على الضفة اليمنى لنهر تيريك. وقد ارتبط بناء القلعة بنمو العلاقات بين روسيا وأوسيتيا بعد الانضمام الطوعي لهذه الأخيرة إلى الإمبراطورية الروسية عام ١٧٧٤.

وازدادت الأهمية الاستراتيجية للقلعة في أواسط القرن التاسع

عشر بعد إنشاء الطريق التي تربط موسكو بجورجيا عبر الأراضي الأوسيتية والتي تقطع سلسلة جبال القوقاز. كما ازدادت أهميتها التجارية والاقتصادية بالنسبة إلى روسيا سواء في ذلك الوقت أو في الوقت الحاضر. وفي العام ١٨٦٠ أصبحت القلعة تسمى مدينة فلاديقفقاز، وهي منذ تأسيسها كانت مركزاً للتعدد القومي والديني، الأمر الذي تشهد عليه المباني التاريخية في المدينة، مثل الكنائس والكاتدرائيات الروسية والأوسيتيّة والأرمنية واليونانية والألمانية والكنائس الكاثوليكية والكنيس اليهودي والمساجد السنية والشيعية التي تعتبر من الآثار المعمارية للمدينة. وما تجدر الإشارة إليه حول سحر هذه المدينة وجمالها، أنه تغنى بها وبطبيعتها كبار الشعراء والكتاب أمثال: بوشكين وكريبويدوف وليرمنتوف وتولستوي وغيرهم.

ويعمل في المدينة التي يقطنها نصف سكان الإقليم أكثر من ١٠٠ مؤسسة صناعية بعضها ذات صفة فيدرالية مثل مصنع «إيليكترونك» و«ماغنيت» و(إيليكترو كونياكتور)، وغيرها من المصانع التي تنتج بضائع ذات جودة عالية ومطابقة للمواصفات العالمية. ويوجد في المدينة مؤسسة صناعية لإنتاج الأجهزة والمعدات التي تستخدم في صناعة الغاز واستخراجه. كما يوجد فيها أحد أضخم معاهد البحوث العلمية التابع لأكاديمية العلوم الروسية المختص بدراسة البوليميرات المستخدمة في الصناعات الإلكترونية والطبية.

ويوجد في المدينة ٤ جامعات حكومية، جامعة أوسيتيا الشمالية، وجامعة شمال القوقاز التكنولوجية والأكاديمية الأوسيتية الطبية والجامعة الزراعية، إضافة إلى عدد غير قليل من الجامعات والمعاهد الاختصاصية ومعاهد الأبحاث. ولذلك تُعرف هذه المدينة بمدينة العلماء والطلاب.

خلال الحرب العالمية الثانية بين أعوام ١٩٤١- ١٩٤٥ وفي المعارك التي جرت في هذه المنطقة تمكن أهلها مع الجيش السوفياتي من إيقاف جحافل الدبابات النازية ومنعها من التقدم بهدف الاستيلاء على منطقة ما وراء القوقاز وبحر قزوين والوصول إلى حقول النفط في الشرق الأوسط والسيطرة عليها، وقد هُزمت القوات الفاشية المهاجمة التي مُنيت بخسائر فادحة في الأرواح والمعدات. وفي عام ١٩٩٠ مُنحت صفة «مدينة تاريخية».

ما هي العلاقة بين أوسيتيا الشمالية وأوسيتيا الجنوبية؟

إن جمهورية أوسيتيا الجنوبية هي جزء من جمهورية جورجيا. تفصلها عن أوسيتيا الشمالية التي هي جزء من روسيا الاتحادية حدود مشتركة عبر إقليم القوقاز الجبلي.

معظم سكان أوسيتيا الجنوبية هم من إثنية الأوسيتيين الذين يتحدثون لغة تنتمي تاريخياً إلى اللغة الفارسية.

يبلغ عدد سكان هذا الإقليم ٧٠ ألف نسمة وعاصمته مدينة

تسخانفيلي، ولغات سكانها الرسمية هي: الأوسيتية، الجورجية، والروسية. وديانة أكثرية السكان هي المسيحية.

ويُعتقد أن الأوسيتيين هم أحفاد قبائل هاجرت من آسيا إلى بلاد القفقاس قبل مئات السنين واستقرت فيما يعرف اليوم بأوسيتيا الشمالية.

وعندما بدأت الإمبراطورية الروسية بالتوسع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لم ينضم الأوسيتيون إلى بقية سكان شمال القوقاز لمقاومة الروس، لا بل بعضهم قاتل إلى جانب الروس في مواجهة جيرانهم الذين كانوا أعداء لهم لفترة طويلة، في حين اتجه بعضهم الآخر جنوباً عبر الجبال للفرار من القتال.

وتاريخياً كان للأوسيتيين علاقات جيدة مع الروس واعتُبروا مواطنين موالين للإمبراطورية الروسية ومن ثم للاتحاد السوفياتي حيث وقفوا إلى جانب البلشفيك في بداية عشرينيات القرن الماضي.

وكجزء من إعادة تشكيل المنطقة في مرحلة استقرار الدولة السوفياتية، تم إنشاء إقليم أوسيتيا الجنوبية ليتمتع بحكم ذاتي ضمن جمهورية جورجيا السوفياتية.

ومع تراجع نفوذ الاتحاد السوفياتي وبروز نجم القائد القومي الجورجي زياد قامساخورديا في تبليسي، عبرت أوسيتيا الجنوبية عن نزعتها الانفصالية عن جورجيا، ما اضطر موسكو إلى إرسال قوات عسكرية لحفظ الأمن في المنطقة بعد اندلاع مواجهات عنيفة بين الجورجيين والأوسيتيين في العام ١٩٨٩ في العاصمة تسخانفيلي.

ثم اندلع العنف مجدداً في العام ١٩٩٠ عندما أعلنت أوسيتيا الجنوبية رغبتها في الانفصال عن جورجيا.

وتعاظمت رغبة الأوسيتيين في الانفصال عن جورجيا عام ١٩٩١ بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. واندلع قتال متقطع بين الجانبين استمر حتى صيف العام ١٩٩٢، وتوقف بعد الاتفاق على نشر قوات حفظ سلام جورجية وأوسيتية وروسية. في شهر تشرين الثاني من العام ٢٠٠٦ صوت الأوسيتيون في استفتاء شعبي غير معترف به بأغلبية ساحقة لمصلحة الاستقلال عن جورجيا، وفي استفتاء متزامن صوت الجورجيون في أوسيتيا الجنوبية لمصلحة البقاء ضمن جمهورية جورجيا. ولا تزال روسيا تحتفظ بقوات لحفظ السلام في أوسيتيا الجنوبية على الرغم من الدعوات المتكررة للبرلمان الجورجي لاستبدالها بقوات دولية. وكانت القوات الروسية قد اقتحمت الإقليم في العام ٢٠٠٨ وردعت القوات الجورجية التي حاولت فرض سيطرتها عليه بالقوة.

تحتفظ روسيا بعلاقات قوية مع الانفصاليين الأوسيتيين الذين يرحبون بدعم موسكو ويطالبون بالانضمام إلى روسيا الاتحادية. ومما يزيد من قلق جورجيا، أن معظم الأوسيتيين الجنوبيين لديهم جوازات سفر روسية، والروبل الروسي يستخدم في الإقليم على نطاق واسع.

٤-جمهورية قبردينو- بلقاريا

تقع جمهورية قبردينو- بلقاريا في شمال القوقاز في حوض نهر

التيرك، ويحدها شمالاً إقليم ستافروبل وشرقاً أوسيتيا الشمالية وجنوباً جورجيا وغرباً (قراتشاي- شركس)، وتقع فيها أعلى جبال القوقاز، وهي قمة جبل البروز.

تبلغ مساحتها ١٢,٤٧٠ كليومتراً مربعاً، وعدد سكانها حسب إحصاء ٢٠١٣ يبلغ ٨٩٨,٩٤٦ نسمة، يشكل المسلمون ٦٦٪ منهم، وعاصمتها مدينة نالتشيك.

وفي ١٨ كانون الأول من العام ١٩٩١ أعلن المجلس القومي لشعب البلقار استقلال البلقاريين وإنشاء جمهورية ضمن الفدرالية الروسية. وفي ٣١ من الشهر نفسه أُعلن استقلال قبردينو بلقاريا. وخلال عام ١٩٩٥ جرى التوقيع على اتفاقية ثنائية مع المسؤولين الفيدراليين الروس.

يُمثّل القطاع الصناعي الأساس الاقتصادي للبلاد، إذ إنه يشكل نسبة ٦٠٪ من عائدات الدولة. وتحتل الصناعات الثقيلة وتوليد الطاقة الكهربائية واستخراج المعادن وتصنيفها مكانة بارزة في القطاع الصناعي بما في ذلك تصنيع الماكينات.

صفحة قبردينو- بلقاريا في Geo Names ID. www.gks.ru/free-doc/ .neco-site/ population/demo/popul2016.xls

٥-جمهورية أنغوشيا

تقع جمهورية أنغوشيا في شمال القوقاز وتحدها جورجيا وأوسيتيا الشمالية والشيشان. تبلغ مساحتها ٣٥١٣ كيلومتراً مربعاً.. وعدد سكانها حسب إحصاء ٢٠١٣، حوالى نصف مليون نسمة

غالبيتهم العظمى من الأنغوش بالإضافة إلى ٩٠ ألف شيشاني، وجميعهم يدينون بالإسلام، إلى جانب حوالى ٥٠ ألف نسمة من المسيحيين الأورثوذكس الروس، وعاصمتها مدينة ماغاس. أنغوشيا هي من أقدم المناطق التي جرى استيطانها في منطقة شمال القوقاز حيث تشير بعض المخطوطات التي عثر عليها في تلك المنطقة إلى أن الإنسان عاش فيها منذ الألفية الأولى قبل الميلاد.

في الأول من تشرين الأول من العام ١٩٩١ أصدر السوفيات الأعلى الروسي قراراً يقضي بفصل أنغوشيا عن الشيشان. وتأسست جمهورية أنغوشيا ذات الحكم الذاتي في العام ١٩٩٢.

صفحة إنغوشيا في Geonames ID

٦-جمهورية قرتشاي شركيسيا

هي جمهورية ذات حكم ذاتي في الاتحاد الروسي، تقع في شمال غربي القوقاز، تحدها قبردينو-بلقار من الغرب، وجورجيا من الجنوب، وإقليم ستافروبل من الشمال. تبلغ مساحتها ١٤,١٠٠ كيلومتر مربع، وعدد سكانها حوالى ٤٠٠ ألف نسمة حسب إحصاء العام ٢٠١٣، نسبة المسلمين بينهم ٦١٪. وعاصمتها تشرتيسك.

وصل الإسلام إلى هذه المنطقة في القرن الثاني الهجري أثناء فتح العرب أرمينيا وبلاد الخزر، وحكمها التتار والفرس والأتراك العثمانيون، واستولى عليها القياصرة في القرن الثامن عشر. وأمام قسوة الحكم القيصري والحروب الطويلة بينهم هاجر الشركس من

موطنهم تحت الضغوط القاسية ونقلوا إلى مناطق أخرى في تركيا والأردن وسوريا ومصر.

وفي العام ١٩٩١ أصبحت قرتشاي- تشركيسيا تتمتع بحكم ذاتي في إطار روسيا الاتحادية.

قرتشاس – تشركيسيا GEO Name,ID

٧-جمهورية أديغيا

هي إحدى جمهوريات روسيا الاتحادية ذات الحكم الذاتي. تقع في منطقة القوقاز، ويحيط بها بالكامل إقليم كرسنادار، وهي قريبة من البحر الأسود. تحدها من الجنوب جورجيا، وقرتشاي من الشرق وبقية أقاليم روسيا الاتحادية من الشمال والشمال الشرقي. تبلغ مساحتها ٧٨٠٠ كيلومتر مربع وعدد سكانها يقارب نصف مليون نسمة، ونسبة المسلمين بينهم ٥٠٪. عاصمتها مدينة مايكوب. وصل الإسلام إلى هذه المنطقة في فترة مبكرة، وظهر بينهم العديد من الدعاة المسلمين في أواخر القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين. استولى عليها القياصرة الروس في العام ١٨٧٩. تعرّض سكان هذا الإقليم للتعصب الديني في عهد القياصرة. وفي مرحلة الحكم السوفياتي تحولت منطقة الأديغيا إلى إقليم ذاتي الحكم في سنة ١٩٢٢. معظم سكان الإقليم هم من الشركس المسلمين. أعيد تأسيس هذه الجمهورية في العام ١٩٩١ بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، وأصبحت جمهورية ذات حكم ذاتي ضمن الاتحاد الروسي.

صفحة أُديغيا في GEONames ID.

ثالثاً: الدولة الأولى الإسلامية الخالصة نشأت في سيبيريا

المسلمون في سيبيريا

الجغرافيا السياسية والثروات والمعالم الطبيعية

سيبيريا هي الجزء الشرقي والشمالي الشرقي من روسيا.

تعد سيبيريا من أوسع المساحات الجغرافية في روسيا الاتحادية التي تنتمي إلى القارة الأوروبية، ومساحتها أكبر من مساحة القارة الأوروبية بكاملها. تبلغ مساحتها ١٢,٦٧٥,٠٠٠ كم٢ وتمثل ٧٧٪ من مساحة روسيا الاتحادية ويقدر عدد سكانها بـ٣٩ مليون نسمة، وهو يمثل ٢٧٪ من عدد سكان روسيا الاتحادية واللغة الروسية هي اللغة الرسمية في هذه البلاد، إلى جانب بعض اللغات الأخرى.

يوجد العديد من الديانات في سيبيريا أهمها: المسيحية الأورثوذكسية، الإسلام، البوذية، وطوائف مسيحية متعددة (الإنجيلية)، ويعيش في سيبيريا حوالى ٧٠,٠٠٠ ألف يهودي.

والشعب السيبيري متعدد القوميات والأجناس أهمها: الروس وغالبيتهم من المسيحيين: التتار وغالبيتهم من المسلمين، الكازاخ وهم مسلمون، قومية الناي ومعظمهم وثنيون ومنهم مسلمون إضافة إلى قوميات أخرى صينية ومنغولية ومن جمهوريات آسيا الوسطى.

أما أصل كلمة سيبيريا وتعني باللغة التتارية:(أكنس) أي ما يعني (الرياح تعصف بالمكان وتكنسه). ولما كانت سيبيريا تتميز برياحها القوية أرجع البعض منشأ كلمة سيبيريا إلى الكلمة التتارية التي تعني (أكنس). وهناك من اعتقد أيضاً أن تسمية سيبيريا تعود إلى كلمة سيبير، وهي اسم واحدة من قبائل الأغروف القديمة. وتنسب بعض المصادر التسمية إلى «التوركية» وتعني (الأرض النائمة)، وتنسبها مصادر أخرى إلى قبائل التتار التي كانت تعيش في هذه المنطقة.

الأرض السيبيرية متعددة التضاريس، فهي تضم السهول والهضاب والجبال، ولذلك يمكن تصنيفها في ثلاثة أقسام:

١- القسم الأول، السهول الغربية السيبيرية، وهي أكبر سهول روسيا. وهي تقع بين جبال الأورال في الغرب ونهر ينسي في الشرق، وبين المحيط المتجمد الشمالي شمالاً وتلال كازاخستان في الجنوب، وتزيد مساحة هذه السهول على مليونين ونصف المليون كيلومتر مربع. وأبرز أنهارها، أوب وروافده أرتش.

٢- القسم الثاني: هضبة سيبيريا الوسطى، وتشمل المنطقة الواقعة بين نهري ينسي ولينا، ومتوسط ارتفاعها ٦٠٠م، وتنحدر نحو الشمال، وتضم رواسب معدنية مهمة. وفي هذه الهضبة تقع بحيرة (بيكال) وهي من أكبر البحيرات العذبة في العالم، إذ تبلغ مساحتها ٣٠،٥٠٠ كلم٢.

٣- القسم الثالث: المرتفعات الشرقية السيبيرية، وهي تمتد بين نهر لينا من جهة الغرب والمحيط الهادي من جهة الشرق، وبين نهر آمور في الجنوب والمحيط المتجمد الشمالي، وقد أطلق عليه الروس اسم الشرق الأقصى.

جيولوجية سيبيريا

يتكون معظم السهل الغربي لسيبيريا من الرواسب الغرينية التي تكونت نتيجة سدود الجليد التي شكلت أيضاً بحيرة جليدية كبرى. ومن منتصف العصر الحجري إلى نهايته سَدّت هذه البحيرة تدفق نهري أوبي وينسي من ناحية الشمال ما أدى إلى إعادة تدفق المجاري إلى الجنوب الغربي لتصب في بحر قزوين وبحر أورال.

أما هضبة سيبيريا الوسطى فهي عبارة عن غلاف صخري قديم شكّل قارة مستقلة قبل حدوث العصر البرمي. هذه الهضبة غنية بشكل خاص بالمعادن حيث تحوي الكثير من رواسب الذهب والنيكل والكوبالت والموليبدنوم. جزء واسع من هذه المنطقة يحوي مصاطب سيبيريا. وكان أكبر ثوران بركاني معروف في تاريخ الأرض قبل ٢٥٠ مليون سنة قد أدى إلى انقراض العصر البرمي الترياسي الذي يقدر أنه قتل ٩٠٪ من الأنواع الموجودة في ذلك الوقت.

خلال هذه الحقبة تجمد الجزء الشمالي الغربي من سيبيريا وطمر كل شيء تقريباً في أعماق الجليد، وكانت الشجرة الوحيدة التي يمكن أن تزدهر على الرغم من الصيف الحار هي أرزة سيبيريا. أما شجرة

الألتياغا فهي المهيمنة في القسم الشمالي الغربي وتغطي جزءاً كبيراً من مجمل سيبيريا.

وتحوي أراضي سيبيريا موارد ضخمة غير مستغلة من النفط والغاز الطبيعي. كما تحوي حوالى ٤٠٪ من موارد العالم المعروفة من النيكل في منطقة نوريلسك. أما الزراعة في سيبيريا فإنها مقيدة بموسم الزراعة والنمو القصير في معظم أنحاء الإقليم. ومع ذلك فإن مناطق جنوب غربي البلاد ذات التربة السوداء والخصبة والمناخ الأكثر اعتدالاً، تنتج محاصيل واسعة من القمح والشعير والبطاطا، وهي تزخر بتربية المواشي من الأغنام والأبقار. وما تجدر الإشارة إليه هو أن سيبيريا تملك أكبر الغابات في العالم، وتبقى الأخشاب مصدراً هاماً للدخل، كما تنتج أكثر من ١٠٪ من كمية الصيد السنوي من الأسماك في العالم.

التركيبة السكانية لسيبيريا

يبلغ عدد سكان سيبيريا ومنطقة الشرق الأقصى الفيدرالية حوالى ٣٠ مليون نسمة حسب التعداد السكاني للعام ٢٠١٠. تبلغ الكثافة السكانية في هذا الإقليم ٣ أشخاص في الكيلومتر المربع الواحد. معظم سكان سيبيريا هم من الروس، كما يعيش في هذه المنطقة حوالى ٤٠٠ ألف ألماني، بالإضافة إلى المغول والترك والبورياتيين والتوفانز والياقوت والتتار. يُذكر أنّ ٧٠٪ من السيبيريين يعيشون في المدن، وتعتبر مدينة نوفو سيبيرسك أكبر مدن سيبيريا حيث يبلغ عدد سكانها

١,٥ مليون نسمة، وأهم مدن الإقليم، توبولسك، تومسك، تيومين، كراسنويارسك، إيركونسك وأومسك وهي من المراكز التاريخية القديمة.

تاريخ سيبيريا

تعتبر سيبيريا منطقة ذات أهمية تاريخية في أعمال الحفريات، حيث أنها تحتوي على جثث لحيوانات ما قبل التاريخ وهي تعود إلى العصر الجليدي. ووجدت في هذه المنطقة عينات من أشبال أسد الكهوف والماموث، ووحيد القرن وأحصنة من منطقة يوكفير.

قبل حوالى ٤٠,٠٠٠ سنة عاشت ثلاثة أنواع من البشر أقلّه في جنوب سيبيريا، الإنسان العاقل، إنسان تياندرتال، وإنسان دينيسوفا، وتم تحديد النوع الأخير في سنة ٢٠١٠ من أدلة الحمض النووي.

ومنطقة سيبيريا كانت مأهولة بمجموعات مختلفة من البدو ذوي الأصول التركية مثل الهون والتيتس والسكوثيون والأويغور. وفي القرن الثالث عشر غزا المغول جزءاً كبيراً من منطقة خانات سيبيريا. ومع تفكك القبيلة الذهبية أو ما يعرف بمغول الشمال أُنشئت خانات سيبيريا المستقلة في أواخر القرن الخامس عشر، وهاجر اليقوتيون الذين يتكلمون اللغة التركية شمالاً من بحيرة بايكال جراء الضغط الذي مورس عليهم من قبل قبائل المغول خلال الفترة الممتدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر...

ويجمع العديد من المؤرخين أن منطقة سيبيريا بقيت منطقة ذات كثافة سكانية منخفضة. وفي هذا المجال كتب المؤرخ جون. ف. ريتشاردز «أنه لمن المشكوك فيه أن إجمالي أوائل سكان سيبيريا الحديثة تجاوز ٣٠٠,٠٠٠ شخص».

ومع نمو القوة الروسية في القرن السادس عشر وانطلاقها باتجاه الشرق، بدأ التجار والجنود القوزاق الدخول إلى سيبيريا، وأقام الجيش الروسي فيها القلاع والمدن. وتم الإعلان في ذلك الوقت عن مدينة توبولسك عاصمة لسيبيريا. وبحلول القرن السابع عشر وصلت السيطرة الروسية إلى المحيط الهادئ. وبلغ عدد السكان الروس في العام ١٧٠٩ في سيبيريا حوالى ٢٥٠,٠٠٠ نسمة.

بقيت سيبيريا عدة قرون غير مكتشفة وغير مأهولة إلا من الحملات الاستكشافية والسجناء والمنفيين من روسيا الغربية والأقاليم التابعة لها كبولندا تحديداً. ولكن بعد انتشار سكة الحديد التي ربطت موسكو بسيبيريا في عهد القيصر نيكولا الثاني (١٩١٦)، واكتشاف الثروات الطبيعية، انتشرت المدن الصناعية فيها وازداد عدد السكان، حيث انتقل إليها نحو سبعة ملايين شخص من روسيا الأوروبية بين عامي ١٨٠١ و١٩١٤. وخلال العقود الأولى للاتحاد السوفياتي وخصوصاً الفترة الممتدة بين ١٩٣٠ و١٩٤٠، تمّ استبدال نظام المعسكرات القديم الذي كان يفرض العمل الجزائي، بآخر جديد يدار من قبل معسكرات العمال (الكولاغ). ووفقاً للتقديرات السوفياتية شبه الرسمية فإن

أكثر من ١٤ مليون نسمة أُدخلوا إلى هذه المعتقلات والسجون في سيبيريا، إضافة إلى نحو ٧ إلى ٨ ملايين نسمة تم ترحيلهم إلى المناطق النائية في الاتحاد السوفياتي. وبين عامي ١٩٤١ و١٩٤٣ مات أكثر من ٥١٦٨٠٠ سجين في المعسكرات بسبب نقص الغذاء الناجم عن الحرب العالمية الثانية.

المسلمون في سيبيريا

تجاور سيبيريا كما هو معروف إقليم منطقة وسط آسيا أو التركستان، لذلك كان من الطبيعي أن يتخذ الدعاة المسلمون طريقهم إلى سيبيريا. ومنذ أن دخل الإسلام إلى آسيا الوسطى، راح الدعاة ينشرون الإسلام بين القبائل البدوية التي كانت تعيش في سيبيريا. ونتيجة قسوة الظروف المناخية في هذه المنطقة استشهد معظم هؤلاء الدعاة.

وعندما خضعت سيبيريا للحكم الإسلامي في عهد (كوتشيم) في سنة (٩٧٨هـ- ١٥٧٠م) استقدم علماء الإسلام من بخارى لتعليم سكان سيبيريا قواعد الإسلام.

أما المحور الغربي لسيبيريا، فقد قدم الدعاة المسلمون إليه من قازان عاصمة جمهورية تتارستان عبر القوافل التجارية، وبقي هذا المحور نشطاً حتى بعد سقوط دولة (كوتشيم خان). ورغم احتلال روسيا القيصرية لسيبيريا استمرت الدعوة الإسلامية تتقدم بين سكان سيبيريا خصوصاً في المنطقة الواقعة بين نهري أترش وأوب.

أما الطريق الآخر الذي دخل منه المسلمون إلى سيبيريا فقد تمثّل بسياسة النفي التي استخدمها الروس القياصرة والسوفيات لاحقاً، حين نقلوا شعوباً بأكملها من التتار ومن التركستانيين إلى سيبيريا، وكان من الطبيعي أن يشد هذا من أزر الدعوة الإسلامية، رغم أن الهدف من النفي كان عقابياً.

ويجمع المؤرخون على أن أول رسالة سماوية تُعتنق في سيبيريا هي الإسلام. حيث حلت الذكرى ٦٢٣ لدخول الإسلام إلى سيبيريا في بداية العام ٢٠١٧.

وتكونت أول جالية إسلامية فيها في النصف الثاني من القرن الهجري الأول أي بعد ٧٥ عاماً من الهجرة فقط. وقد وجدت آثار لبعض المساجد الصغيرة التي بنيت وفقاً للبنية السيبيرية. كما وجدت قبور لبعض الدعاة الأوائل وهؤلاء قدموا من بخارى وسمرقند في آسيا الوسطى وقازان وعملوا على نشر الإسلام بين قبائل الإسكيمو.

وقد أدت الهجرات التي تلت ذلك التاريخ حتى القرن الثالث الهجري إلى ظهور حضارة إسلامية في منطقة السهول الغربية لسيبيريا وحول بحيرة بيكال وفي شبه جزيرة كومتشا. ولعل أول دولة إسلامية خالصة قامت عام (٩٧٨هـ-١٥٧٠م) في عهد الإمبراطور كوتشيم خان، ودام حكمها عشر سنوات حتى احتل الروس القياصرة عاصمتها سيبيريا سنة ٩٨٨هـ ورفضوا إقامة أي كيان سياسي لها، فبقيت حتى اليوم إقليماً تابعاً لجمهورية روسيا الاتحادية. وقد قام الروس القياصرة

بحملات ضد المسلمين في الأعوام اللاحقة التي تلت إسقاط الإمبراطور كوتشيم خان، وعملوا على تحويل جماعي قسري للمسلمين ليكونوا مسيحيين. ولكن بعد صدور قانون التسامح الديني في العام ١٩٠٥ الذي ضمن حرية الاعتقاد، عاد الكثير من سكان سيبيريا إلى الإسلام.

وفي العهد السوفياتي حيث مُنع التدين وشمل ذلك الإسلام، احتال مسلمو سيبيريا على قانون منع تأدية الشعائر الدينية، وهو الذي كان قد أعاق حركة الدعاة والدعوة الإسلامية، بصوغهم أناشيد فيها أحكام الدين والمبادئ الإسلامية، وكانوا يرددونها دون إثارة شكوك الحكام.

يزيد عدد المسلمين اليوم في سيبيريا على أربعة ملايين نسمة وهم من قوميات التتار والمغول والأوردية، ومن القوميات الأخرى المنتشرة في بلاد التركستان بالإضافة إلى سيبيريين من أهل المنطقة.

ومن أهم الإدارات في سيبيريا اليوم، هي الإدارة الدينية ودار الإفتاء والمعاهد والمدارس الإسلامية. أما اللغات المنتشرة في هذه المنطقة فهي الروسية والتتارية والأوردية. وقد تُرجم القرآن إلى هذه اللغات الثلاث.

ويؤكد الشيخ طاهر عبد الرحمنوف «مفتي المسلمين» في سيبيريا في حديث له إلى مفكرة الإسلام بتاريخ ١٩/ ٠٣/ ٢٠١١، «أن الأقلية المسلمة في بلاده حافظت على هويتها العقائدية رغم الضغوط كافة التي مارسها الروس عبر المراحل التاريخية المختلفة؛ فكلمة المسلمين واحدة ولا توجد بينهم خلافات مذهبية أو سياسية، حتى

انصهروا جميعاً في بوتقة الدين الإسلامي الحنيف». وأضاف مفتي سيبيريا أن مؤسساتهم الإسلامية قد نجحت في تزويد المسلمين بالزاد الثقافي الوفير، وأنهم تعاملوا مع القوانين السوفياتية كافة بذكاء فطري؛ فحين وضعت العراقيل أمام تحركات الدعاة وحُظرت تلاوة القرآن صاغ المسلمون قيم الإسلام وتعاليمه، وأوامره ونواهيه في هيئة أناشيد شعبية تتردد في كل وقت دون أن يقع مسلم واحد في سيبيريا تحت طائلة القانون الجائر الذي بمقتضاه مُنع المسلمون من تأدية شعائر دينهم في حرية وعلنية».

مخاطر الهجمة الإنجيلية والنشاط التنصيري
في سيبيريا في مقابل القلق من الأسلمة

تعتبر منطقة سيبيريا منطقة مثالية للنشاط التنصيري، ففيها يعيش وثنيون يسهل استقطابهم وإقناعهم بتعاليم الدين الجديد، والكنيسة الروسية غائبة عن الفعل أو عاجزة عن حماية رعاياها الأرثوذكس من التحول إلى البروتستانتية.

وقد نجح معهد الإنجيل في السنوات العشر الأخيرة في تخريج نحو مائتي منصّر وشماس وقسيس من أبناء المنطقة. ويدرس فيه كل سنة نحو مائة طالب من الجنسين، خصوصاً في كرسنيارسك والمدن المحيطة.

وتعد مدارس يوم الأحد، أحد أهم الأنشطة التنصيرية التي يقوم بها المعهد. ويراوح عدد تلك المدارس ما بين خمسين وسبعين مدرسة

في مدينة كرسنيارسك وحدها. وتعتمد خطة معهد الإنجيل على تشكيل قوة عمل محلية للتخلص من شكوى المنصّرين المتطوعين من الولايات المتحدة وكندا ودول شرق أوروبا من قسوة المناخ السيبيري. وفي ظروف انخفاض مستوى التنمية في هذه المنطقة الروسية، تلعب الكنائس الجديدة دوراً هاماً في تقديم الخدمات الطبية والتعليمية والإعانات المالية، والخدمات الترفيهية التي يحتاج إليها السكان.

وقد تم خلال السنوات العشر الأخيرة زرع أكثر من ثمانين كنيسة إنجيلية جديدة بعد أن كان الرقم لا يتجاوز ثلاثين كنيسة في الأعوام الأولى من سقوط الاتحاد السوفياتي. ويأتي هذا العمل دعماً للخطة المعلنة الساعية لإقامة خمسمائة كنيسة إنجيلية على الأراضي الروسية. فهل هذا يشكل خطراً على محاولة تغريب سيبيريا في المستقبل؟

يهتم الكثيرون ولا يحذّرون لما تقوم به عمليات التنصير الإنجيلي من محاولات التغلغل بين سكان المنطقة الإسلامية في سيبيريا الواقعة على نهر أوب. فهناك المزيد من الكنائس التي تزرع في مدينتي تيومين وأومسك على الرغم من قدم المراكز الإسلامية التاريخية في سيبيريا.

فالكنائس الإنجيلية تُخفي ما تعلنه من نشاطات بين مسلمي سيبيريا، وتعترف هيئة تنصّرية كبرى مثل سيند (send)، بأن عملها في المناطق الإسلامية بسيبيريا وغيرها من مناطق تركّز المسلمين، يتم في سرية تامة خوفاً من التصادم. وفي ضوء المعلومات المتوافرة، ليس مبالغاً القول إنّ انتشار ديانات مثل البوذية والهندوسية والمسيحية

البروتستانتية في سيبيريا لا يسبب قلقاً للكنيسة أو للحكومة الروسية بقدر ما يمثله انتشار الأنشطة الدعوية الإسلامية خصوصاً في السنوات الأخيرة.

الفصل الثامن

إطلالة على الديانات التوحيدية الأخرى في روسيا الاتحادية

المجتمع الروسي متعدّد الديانات

كما سبق وذكرت، فإن أهم الديانات الأربع في روسيا هي: الديانة المسيحية الأورثوذكسية، الإسلام، اليهودية والبوذية. وبعد أن تطرقت بشكل واسع إلى تاريخ المسلمين وحاضره في روسيا والاحتمالات المرتقبة لمستقبلهم في هذه البلاد المهمة، لا بد من الإطلالة على واقع الديانات الأخرى وإن باختصار وتكثيف ليكون القارئ على إلمام بواقع الديانات التوحيدية في روسيا الاتحادية وعلاقات أتباعها بعضهم ببعض، والأدوار التي لعبوها في تاريخ وتطور هذا البلد المترامي الأطراف والقوة العالمية العظمى، خصوصاً، أنه في حقبة ما بعد الاتحاد السوفياتي، يحاول البعض في روسيا، أن يقدم هذه الدولة العظمى ذات النظام العلماني كدولة مسيحية أرثوذكسية وعاصمة للكنيسة الأرثوذكسية في محاكاة لتاريخ روسيا الأرثوذكسي القيصري، ما يؤثر سلباً في اللحمة بين مكونات المجتمع الروسي المتعدد الأعراق والأديان في مرحلة التحديات الكبرى التي تواجهها روسيا في زمن صراع الهويات.

وسوف أتطرق بشكل مفصل أكثر إلى حالة اليهود الروس في

التاريخ والحاضر، لما لهذا الموضوع من أهمية وعلاقة بقضيتنا العربية بالتحديد، ليس بما يخص الماضي فحسب، بل بما له علاقة بالحاضر والمستقبل تحديداً.

متى وكيف تنصّرت روسيا؟

يحكي كتاب «أخبار الأعـوام الغابرة»، الذي يُنسب تأليفه إلى الراهب نيستور من دير «كييفو- بيتشورسكايا»، رواية «اختبار الأديان»، من قبل الأمير فلاديمير عبر مبعوثيه الخاصين إلى مختلف الأديان ومراقبة كيف تجري فيها عبادة الرب. وقد سبق ذلك لقاء جمع الأمير فلاديمير بالمبعوثين من أتباع مختلف الأديان السماوية: الإسلام واليهودية والكاثوليكية. وفي إحدى الروايات أنه في العام ٩٨٨ جاء إلى الأمير فلاديمير وفد من بلاد البولغار (التتار القدماء) من أتباع العقيدة المحمدية وحدثوه عن دينهم. أُعجب الأمير فلاديمير بحديثهم عن الدنيا الآخرة والجنة، لكنه لم يكن راضياً قطّ عن تحريمهم أكل لحم الخنزير، وخصوصاً تحريم شرب الخمر، لأنه في روسيا القديمة لم يكن من المعقول مطلقاً إقامة المآدب وتنظيم الاحتفالات من دون أن تكون المشروبات الكحولية سيدة الموائد. وبعد ذلك جاء إلى الأمير فلاديمير مبعوثو بابا روما من الألمان، فاستمع إلى حديثهم ثم ودعهم قائلاً لهم:» إن آباءنا وأجدادنا لم يقبلوا قانونكم». ثم جاءه وفد من يهود بلاد الخزر، وبعدما استمع إليهم قال لهم الأمير فلاديمير: «كيف تعلّمون الآخرين في الوقت الذي نبذكم الرب وجرى تشتيتكم

في أرجاء الأرض كافةً عقاباً لما ارتكبتموه من ذنوب؟ لو أحبكم الرب وأحب عقيدتكم لما شردكم في أراضي الغير. أتريدون أن يكون مصيرنا مثل مصيركم؟».

وقد بعث البيزنطيون أحد فلاسفتهم، الذي التقى الأمير فلاديمير وحدّثه عن ميلاد السيد المسيح وعن حياته وتعاليمه، وبعد كل ذلك تقول الرواية إن الأمير جمع النبلاء من أتباعه، وبعد التداول في ما بينهم، تقرر إرسال عشرة من الرجال الأذكياء والفطنين إلى البولفار والألمان والبيزنطيين من أجل مشاهدة كيف يؤدون مراسم عباداتهم الدينية. عاد المبعوثون بعد إتمام جولتهم وأبلغوا الأمير إعجابهم بمراسم وطقوس العبادة في الكنائس البيزنطية، وكذلك إعجابهم بشكل وتصميم كنائسهم وتميّزها من الديانات الأخرى.

ومما قالوه: «حين أتينا إلى بلاد الروم واقتادونا إلى كنيستهم حيث تجري طقوس عبادة ربهم، لم نعد نعرف هل نحن في السماء أم على الأرض. ولا يوجد في الأرض ما هو أكثر جمالاً منها ونحن نعجز عن وصفها، ونعلم فقط أن الرب موجود هناك مع الناس، وطقوس العبادة لديهم أفضل مما في البلدان كافة».

وهكذا شهدت روسيا تحولاً من الوثنية إلى المسيحية باعتناق الأمير فلاديمير الأول المسيحية وجعلها الديانة الرسمية لكييف روس بدءاً من العام ٩٨٨.

Svedenia a religizn organizatsia zoregstriravan v rosii federatsi po

donnem federal noi registratsonni slujbe.dekaber 2006 «كلام روسي بأحرف لاتينية».

لقد وصلت المسيحية إلى البلدان السلافية الشرقية ومنها روسيا عن طريق المبشرين اليونانيين الذين بُعثوا من الإمبراطورية البيزنطية في القرن التاسع للميلاد. والديانة المسيحية الأورثوذكسية هي الديانة التقليدية والأكثر انتشاراً في روسيا في الوقت الحالي، وهي تعتبر جزءاً من التراث التاريخي الروسي حسب القانون الصادر عام ١٩٩٧. وتشير إحصائية مركز ليفادا لعام ٢٠١٢ أن ٧٦٪ من الأبرشيات الأرثوذكسية المسجلة تنتمي إلى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، في حين أن هناك عدداً أقل من الكنائس الأرثوذكسية.

ويجمع المؤرخون على أنه في العام ٩٨٨م اعتنق فلاديمير الأول أمير كييف المسيحية على المذهب الأرثوذكسي (المعروف لاحقاً بالقديس فلاديمير)، ودعا رعاياه إلى الدخول في هذه الديانة. وفي مطلع القرن الرابع عشر استقر مقر رئيس أساقفة كييف وعموم روسيا (رئيس الكنيسة الروسية) في موسكو.

واحتفظت الإمارات الروسية الغربية بأبرشيات مستقلة، ولكنها خضعت بدورها في وقت لاحق لسلطة موسكو. اعتبر الروس الأرثوذكس موسكو بأنها روما الثالثة بعد (القسطنطينية روما الثانية) وبأنها آخر حصن للعقيدة الأرثوذكسية الحقة. ومن هذه الخلفية نال رئيس الكنيسة الروسية في العام ١٥٨٩ لقب (بطريرك)، واضعاً نفسه بمرتبة بطاركة القسطنطينية والإسكندرية وإنطاكية والقدس.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن إصلاحات البطريرك نيكيتا مينون (١٦٠٥-١٦٨١) قد تسببت بانقسام في جسم الكنيسة الروسية. وفي العام ١٧٢١ قام الإمبراطور بطرس الأول بإلغاء البطريركية جاعلاً الكنيسة من مؤسسات الدولة يدير شؤونها مجلس للأساقفة.

أعيد تأسيس البطريركية في العام ١٩١٧ قبل شهرين من بدء الثورة البلشفية، وذلك بتنصيب تيخون بطريركاً للكنيسة. ولكن في ظل الحكم السوفياتي حُرمت الكنيسة من حقوقها القانونية وتعرّضت لعملية قمع واضطهاد وخسرت الكثير من أتباعها. وفي العام ١٩٢٥ سُجن البطريرك وقُتل بأمر من السلطات السوفياتية. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي ١٩٩١م شهدت الكنيسة الروسية نهضة روحية كبيرة حيث عاد إليها الملايين من الروس. وخَلِف البطريرك تيخون عدة بطاركة لرعاية الكنيسة في تلك الحقبة الصعبة وهم:

- البطريك سيرجيوس (١٩٤٣-١٩٤٤).
- البطريرك اليكسوس الأول (١٩٤٥-١٩٧٠).
- البطريرك بيمين(١٩٧١-١٩٨٩).
- البطريرك ألكسي الثاني (١٩٩٠-٢٠٠٨).
- البطريرك الحالي كيريل الأول ٢٠٠٩.

للكنيسة الروسية اليوم ١٥٠ أسقفية و٢٤٢ ديراً. هذا وقد انفصلت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية في الولايات المتحدة الأميركية عن الكنيسة الأم في موسكو في العام ١٩٧٠، ويتبع للكنيسة الروسية

الأرثوذكسية، عدة كنائس أرثوذكسية خارج روسيا أبرزها: الكنيسة اليابانية الأرثوذكسية، الكنيسة الأوكرانية الأرثوذكسية، الكورية الأرثوذكسية. مصدر: «الموقع الرسمي للكنيسة الروسية الأثوذكسية».

دوقية موسكو

بعد دانييل ألكسندروفيتش، الابن الأصغر لألكسندر نيفسكي مؤسس إمارة موسكو (المعروفة باسم الإمارة المسكوفية) التي طردت التتار من روسيا. وقبل ذلك مَنَح التتار لقب أمير موسكو الكبير لأمراء موسكو وجعلوهم سماسرة لجمع الضرائب لهم من الإمارات الروسية.

وكانت عملية جمع الضرائب قد بدأت منذ إمارة إيفان الأول عام ١٣٣٠م والذي كان يلقب (حقيبة النقود)، لأنه كان يحتفظ ببعض نقود الضرائب لديه، ما مكّنه من شراء العديد من الأراضي. ووسع من ملكياته كثيراً وأخذ بعض الأمراء الآخرين وملاك الأرض الكبار للخدمة في الجيش المغولي والحكومة. هذا فضلاً عن أن إيفان أقنع بطريرك الكنيسة الروسية الأرثوذكسية بالبقاء في موسكو.

وبعد ازدياد نفوذ موسكو أصبح أميرها الكبير يحمل لقب القيصر. وفي عام ١٥٤٧م، أصبح إيفان الرابع الذي اشتهر بلقب إيفان الرهيب، أول حاكم على موسكو يتوج بلقب قيصر، وقد استطاع أن يجعل سلطة القيصر طاغية طغياناً كاملاً على روسيا.

كما أجرت الكنيسة الروسية في هذه الحقبة بعض التغييرات في

محتويات الكتاب المقدس والشعائر الدينية، ما أثار معارضة بعض الروس الذين ظلوا على العهد القديم حتى يومنا هذا.

العهد الإمبراطوري الروسي، العلاقة الجدلية بين الكنيسة والسلطة

بين أعوام ١٦٧٢م-١٧٢٥م، حكم بطرس الأكبر روسيا بمنطق الشخص الوحيد في البلاد، ولعب دوراً رئيساً في جلب بلاده إلى نظام الدول الأوروبية، فأصبحت روسيا في عهده أكبر دولة في العالم، بعد أن كانت قد بدأت بداية متواضعة في القرن الرابع عشر كإمارة موسكو. وفي عهده أُدمجت الكنيسة الأرثوذكسية جزئياً في الهيكل الإداري للدولة، الأمر الذي جعلها أداة لها. وفي خطوة مشابهة أقدم بطرس الأول أو بطرس الأكبر على إلغاء البطريركية واستعاض عنها بهيئة جماعية يُطلق عليها اسم «المجمع المقدس»، على رأسها مسؤول حكومي. وفي الوقت نفسه، قام بالقضاء على ما تبقى من أنظمة الحكم الذاتي المحلية، واستمر بالتركيز على العمل بمبدأ خدمة الدولة من قبل جميع النبلاء.

كانت المسيحية الأرثوذكسية الروسية هي دين الدولة الرسمي في الإمبراطورية الروسية. وكان رئيس الكنيسة الأرثوذكسية الروسية هو القيصر. وكانت سلطة الإمبراطور الروسي مشروطة بانتمائه وزوجته إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والانصياع لقوانين الخلافة التي أنشأها القيصر بولس الأول سنة ١٧٨٧م. وعلى الرغم من أن

السواد الأعظم من سكان الإمبراطورية الروسية قد اعتنق المسيحية الأرثوذكسية الروسية، انتشرت اللوثرية الإنجليكانية في أوساط سكان القسم الغربي من الإمبراطورية، أي سكان دول البلطيق. كذلك انتشر بينهم المذهب الروماني الكاثوليكي بما أنه كان المذهب السائد قبل نشوء البروتستانتية.

وما تجدر الإشارة إليه من خلفية العلاقة الجدلية بين الدين والسياسة، هو دخول القيصر نيقولا الثاني ورعاياه في الحرب العالمية الأولى بحماسة يدفعها شعورهم الوطني وإحساسهم القومي، أي الدفاع عن أخوة الروس السلاف الأرثوذكس والصرب ضد معسكر دول المحور. وقد أعاد الأباطرة الروس من أسرة رومانوف حماة المذهب الأرثوذكسي، الثنائية التقليدية، في قيادة الكنيسة بينهم وبين البطاركة، وشكّل النفوذ المتزايد للقس غريغوري راسبوتين أحد الأسباب التي هيأت لقيام الثورة البلشفية الروسية في العام ١٩١٧.

الانقسام في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية

لقد تسبب قيام الأنظمة الشيوعية بعد ثورة ١٩١٧ في الدولة الأرثوذكسية تقليدياً بهجرات واسعة إلى أوروبا الغربية ولا سيما إلى فرنسا. وحاولت بطريركية موسكو أن تفرض وصايتها على الكنائس الأرثوذكسية في الشتات وذلك في العام ١٩٢٥. غير أن هذه السياسة لبطريركية موسكو لاقت معارضة قوية من الأساقفة الذين غادروا أبرشياتهم وفروا من روسيا وحلوا ضيوفاً على الكنيسة الصربية. ثم

حولوا مركز قيادتهم إلى نيويورك باسم «الكنيسة الروسية الأرثوذكسية خارج روسيا»، ولم يقيموا أي علاقات كنسية رسمية مع البطريركيات والكنائس الأرثوذكسية؛ وكذلك وجدت الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية في الشتات نفسها في الوضع الكنسي نفسه، وانضمت مجموعات أرثوذكسية أخرى في الشتات إلى البطريركية المسكونية.

الكنيسة في العهد السوفياتي

على امتداد تاريخ الاتحاد السوفياتي، أي بين أعوام (١٩٢٢-١٩٩١م) قمعت السلطات السوفياتية مختلف أشكال التدين المسيحي وغير المسيحي وإن بدرجات مختلفة تبعاً لحقبة محددة. وسَخِرت تلك السلطات من القيادات الدينية واضطهدت ممثليها وعرّضتهم للمضايقات ونفذّت بحق عدد منهم أحكام الإعدام، وأغرقت المدارس ووسائل الإعلام بالتعاليم المادية. وبشكل عام روجت العلمانية البعيدة عن المعتقدات الروحانية على أنها الحقيقة التي يجب على المجتمع تقبُّلها. ويُقدّر العدد الإجمالي لضحايا سياسات الدولة السوفياتية ضد المتدينين من المسيحيين ما بين ١٢ إلى ٢٠ مليون ضحية.

وعلى الرغم من ذلك، استمرت المعتقدات والممارسات الدينية بين الغالبية العظمى من السكان في الأماكن المحلية الخاصة، وبعض الأحيان في الأماكن العامة المنتشرة والمسموح بها من قبل الدولة التي اعترفت في مرحلة معينة بفشلها في استئصال الدين، وساورها القلق الشديد من احتمال اندلاع حرب ثقافية لا هوادة فيها.

ومنذ انهيار الدولة السوفياتية تشهد الكنيسة الأرثوذكسية نهضة قوية في روسيا حيث عادت لتشكل رباطاً للهوية الوطنية مالئةً الفراغ الذي خلّفه سقوط الأيديولوجية السوفياتية، فعاد إليها الملايين من الروس، ويظهر ذلك في العودة إلى الدين والتردد إلى الكنائس وإقامة الشعائر والصلوات. وأصبحت الكنيسة مؤسسة روحية نافذة في روسيا. وشهد عهد الرئيس بوتين عودة الكنيسة الأرثوذكسية إلى الواجهة في العملية السياسية وباتت تتمتع بأهمية متزايدة في المجتمع الروسي. ويلاحظ أن تنامي التأثير السياسي للكنيسة الأرثوذكسية الروسية في الآونة الأخيرة وتوافقها مع سياسات الكرملين يعرّضها لعدة انتقادات في الداخل والخارج.

الديمغرافيا الأرثوذكسية الروسية

منذ القرن الثامن عشر، اعتمد العديد من أسلاف الروس الحاليين المسيحية الأرثوذكسية. ووفقاً لوزارة الخارجية الأميركية هناك حوالى مئة مليون روسي يعتبرون أنفسهم مسيحيين أرثوذكس، حيث تبلغ نسبتهم ٧٠٪ من مجموع السكان على الرغم من أن ٥٪ فقط من الروس اعتبروا أنفسهم متدينين. وعلى أية حال تضم الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في عضويتها ٨٠ مليون عضو.

ووفقاً لاستطلاع الرأي الذي أجراه مركز الأبحاث للرأي العام الروسي (ليفادا) قال: إن ٦٣٪ من المستطلعين يعتبرون أنفسهم أرثوذكس، وإن ٦٪ من المستطلعين يعتبرون أنفسهم مسلمين، وأقل

من ١٪ يعتبرون أنفسهم إما بوذيين وإما كاثوليك وإما بروتستنات وإما يهوداً. وثمة ١٢٪ قالوا إنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعتنقون أي دين، و١٦٪ من المستطلعين قالوا إنهم غير مؤمنين.

المذاهب المسيحية غير الأرثوذكسية الروسية

توجد في روسيا كنائس أرثوذكسية أخرى غير الروسية، مثل الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية، والكنيسة الجورجية الرسولية الأرثوذكسية، والكنيسة الأرمنية الرسولية، التي تشكل بمجملها حوالى ١,٤٪ أي ما يعادل (٢,١٠٠,٠٠٠) نسمة من مجموع سكان روسيا. أما أتباع البروتستانتية من مختلف الطوائف، سواء تاريخية أو إنجيلية خمسينية فيشكلون حوالى ٠,٢٪ (٣٠٠,٠٠٠) نسمة من مجمل السكان في روسيا. ويبلغ عدد أتباع الكنيسة الكاثوليكية ١٤٠,٠٠٠ نسمة من المواطنين الروس ويتركّزون في روسيا الغربية. والمسيحيون غير المنتسبين إلى طائفة معينة يشكلون ٤,١٪ (٥,٩٠٠,٠٠٠) نسمة من مجموع السكان في روسيا.

وبحسب إحصائية تعود إلى العام ٢٠١٢ تبين أن ١٧٪ من يهود روسيا يعتنقون الديانة المسيحية والغالبية منهم تتبع الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. وفي خبر نشر على موقع وكالة أنباء أنترفاكس الروسية في العام ٢٠٠٧، يقول الباحث رومان ساينتلاف، إن مليوني مسلم تحولوا إلى المسيحية الأرثوذكسية في الخمس عشرة سنة الأخيرة، بينما تحول من المسيحية إلى الإسلام أقل من ٣٠٠٠ شخص.

اليهودية في روسيا

النشأة والانتشار

يعود وجود الجماعات اليهودية في روسيا إلى القرن التاسع الميلادي بعدما توسعت مملكة الخزر اليهودية في وادي الفولغا ومناطق أخرى من روسيا.

وحسب الموروثات الشعبية الروسية فقد اشترك يهود الخزر في المناظرة الدينية التي عقدت بين ممثلي الديانات التوحيدية الثلاث عام ٩٨٨م أمام أمير كييف، الذي اعتنق بعدها المسيحية وأصبحت الأرثوذكسية هي الدين الرسمي لروسيا.

وبعدما استقر اليهود في مدينة كييف باعتبارها مركزاً تجارياً يربط بين منطقة البحر الأسود وآسيا وغرب أوروبا، وأصبح لهم فيها غيتو خاص بهم، قوبلوا بعداوة شديدة من شعب بلد اعتنق المسيحية حديثاً ويضم طبقة تجار بدائية للغاية.

وبعد غزو التتار لروسيا في القرن الثالث عشر، وتدهور إمارة كييف، زاد النشاط التجاري لأعضاء الجماعة اليهودية، لأن

الإمبراطورية التتارية جمعت اليهود كافة داخل إطار سياسي واحد ما سهّل عملية انتقالهم.

وهذا ما يؤشر إلى أن التتار كانوا يعتبرون اليهود من ذوي القربى باعتبار أن الجميع من أصل تركي.

وفي القرن الخامس عشر ظهرت مدينة متهودة بين الروس هي مدينة (نوفغورود)، ورغم أنه تم القضاء عليها، إلا أنها عمّقت مخاوف المؤسسة الدينية الأرثوذكسية من اليهود. ومع ذلك استمرت الحركة التجارية نشطة لأعضاء الجماعة اليهودية من وإلى روسيا.

إيفان الرهيب (١٥٣٣م-١٥٨٤م)، يطرد اليهود من روسيا

إن أول حاكم روسي قرر طرد الجماعة اليهودية من روسيا كان إيفان الرهيب، وذلك يعود إلى رغبة عنده في استبعاد أية عناصر تجارية أجنبية في بلاده.

وفي أعقاب الفترة التي عُرفت باسم «زمن المتاعب» في التاريخ الروسي (١٥٩٨-١٦١٣) التي شهدت اعتلاء أمير بولندي العرش الروسي، ونشوب حرب أهلية فيها، تعمّق الرفض الروسي لوجود اليهود في روسيا، حيث شكّلوا العصب الرئيس لمغتصبي العرش الروسي من البولنديين. لهذا مُنع اليهود من دخول روسيا إلا لأسباب خاصة، وفي مجال تبريرات ضيّقة. واستمر هذا الحظر باعتباره واحداً من الثوابت السياسية الروسية حتى تقسيم بولندا في أواخر القرن الثامن عشر.

وإنّ مصدر خوف روسيا القيصرية بشكل أساسي من عناصر الجماعات اليهودية هو خوف القوى الروسية الزراعية التقليدية من عنصر غريب له علاقات دولية واسعة في دولة جديدة لم تكن سلطتها قد تدعمت بعد. كما أن هناك قوى اجتماعية داخل روسيا لم يكن من مصلحتها السماح لليهود بالاستقرار، منهم فئة التجار الروس الذين كانوا يرزحون تحت عبء الضرائب، والذين كان عليهم أن يدخلوا منافسة غير متكافئة مع طبقة النبلاء الذين اشتغلوا بالتجارة وكانوا يتمتعون بمساندة البيروقراطية لهم. إلى ذلك يضاف الحجم المالي الصغير للتجار الروس في مقابل الدور النشيط للعنصر اليهودي الذي لا تكبّله القيم المسيحية أو القوانين الطبقية، والذي يتحكم في رأسمال سائلٍ وازن. واستمر التجار الروس في معارضة نشاط التجار اليهود في المطالبة بالحد منه حتى اندلاع الثورة البلشفية.

التموضع التاريخي لليهود في أوروبا الشرقية

لقد ضمّت روسيا مقاطعة روسيا البيضاء في أول تقسيم لبولندا في العام ١٧٧٢م. وضمّت في التقسيم الثاني منطقة منسك في الشمال وفولينيا في مقاطعة كييف ومنطقة بودوليا في الجنوب. وبذلك تكون قد ضمّت كل أوكرانيا، ثم ضمّت في التقسيم الثالث ليتوانيا. وهكذا أصبحت بولندا المركزية التي كانت تضم نحو ثلاثة أرباع دوقية وارسو النابولونية، تكوّن ما سمي «بولندا المؤتمر» أو «بولندا الروسية» وكان اسمها الرسمي «مملكة بولندا» حتى العام ١٨٣٠م.

لقد ضمت هذه المقاطعات أغلبية يهود شرق أوروبا الذين عرفوا بيهود «اليدشية»، والذين انطلقوا من هذه المناطق بعد ضمها، واستوطنوا المناطق الجنوبية من روسيا وساحل البحر الأسود ومقاطعة بيساربيا، وهي مناطق كانت تابعة للدولة العثمانية، وقامت روسيا بضمّها باسم « روسيا الجديدة»

وكان وضع اليهود في المناطق البولندية متميزاً جداً من النواحي الثقافية والاجتماعية والوظيفية. فأعداد كبيرة منهم كانت تعمل بنظام الأرندا (استئجار عوائد القرى ومن ضمنها الضرائب والمطاحن والغابات والحانات من النبلاء البولنديين الغائبين). كما كان بين اليهود تجار وأصحاب حوانيت وباعة جوّالون، وكذلك حرفيّون.

وكان من أهم الأعمال التي اضطلع بها اليهود والتي أصبحت جزءاً أساسياً من مشكلتهم، تقطير الخمور وبيعها في الحانات التي استأجروها من النبلاء في إطار نظام الأرندا أو الاستئجار. وكان التجار اليهود يشتغلون بتهريب بضائع ويتهربون من دفع الضرائب نظراً إلى وجودهم في المنطقة الحدودية، وبسبب استخدامهم للغة اليديشية وسيلة للتواصل، الأمر الذي يسّر لهم عمليات التهريب والتهرّب والتلاعب بالأسعار.

إذاً أدى تقسيم بولندا إلى ضم أجزاء كبيرة منها إلى روسيا، وبذلك ضمت روسيا أجزاء كبيرة من الكتلة البشرية اليهودية اليديشية. ولأن التجارة كانت محرّمة على النبلاء البولنديين بسبب تفرّغهم لأعمال

السياسة والحرب، ولأن الأقنان كانوا ملتصقين بالأرض وفئة التجار ضعيفة للغاية، اضطلع اليهود بوظيفة طبقة التجار والحرفيين وأصبحوا الوسيط الأول الممسك بزمام المبادلات التجارية.

إن الاقتصاد الروسي في ذلك الوقت لم يكن خاضعاً لأعضاء الجماعة اليهودية؛ فروسيا كانت في تلك المرحلة منطقة نفوذ للاقتصاد الإنكليزي. وبعد الحصار الذي فرضه نابليون على إنكلترا على نطاق القارة كلها، حدث تقدم صناعي وتجاري في روسيا نظراً لاضطرارها إلى الاعتماد على نفسها. بيد أن توسع الدولة القيصرية هو السبب الأساسي في ضم تلك الكتلة البشرية اليهودية البولندية إلى روسيا.

لم تكن المسألة اليهودية هي المسألة الوحيدة التي جابهت الحكومة القيصرية، فقد كانت هناك مسألة إسلامية ومسائل أخرى تترية وبولندية وأوكرانية، إذ كانت الإمبراطورية الروسية مترامية الأطراف تضم مئات الأقليات والتشكيلات الحضارية المختلفة التي كانت تحاول أن تفرض عليها صيغة من الوحدة كي تتمكن الحكومة المركزية من التعامل معها. وقسّمت الحكومية القيصرية هذه الأقليات إلى قسمين: الأقليات السلافية (أوكرانيا وبولندا وغيرهما)، والأقليات غير السلافية. وكان يطلق على الأقليات السلافية مصطلح «الأينوزودتسي inozodtsy»، وهذه كلمة روسية تشير إلى قبائل السكان الأصليين التي تقطن سيبيريا، كما اتسع نطاق هذا التعريف ليشمل كل الشعوب غير السلافية. وكانت السياسة العامة للسلطة

القيصرية تهدف إلى ترويسهم. لقد اتخذت إجراءات الترويس بالنسبة إلى الأقليات غير السلافية أكثر الأشكال راديكالية وعنفاً، وخصوصاً مع الأقليات التي لم تكن تدين بالمسيحية. وهنا تنبغي الإشارة إلى أن اللون والعرق بدآ يكتسبان دلالة محورية مع تصاعد معدلات العلمنة في الإمبراطورية الروسية وتعمّق الرؤية العرقية فيها. وحيث أن اليهود اليديشية كانوا من البيض، ومع تزايد معدلات ترويسهم، أعيد تصنيفهم بحيث أصبحوا روساً، ووطّنوا على هذا الأساس في روسيا الجديدة وفي الخانات التركية التي ضمتها روسيا، وذلك باعتبارهم عنصراً روسياً استيطانياً. وقد قيل في هذا المجال، إن الإمبراطورية الروسية كانت «سجناً للشعوب».

لقد اعترفت الحكومة القيصرية بالجماعة اليهودية اليديشية بوصفها جماعة مستقلة في المدن والقرى، كما اعترفت بالحاخام وبصلاحياته الدينية والقضائية. وفي العام ١٧٨٣ صُنِّف اليهود ضمن سكان المدن، وأصبحت لهم كامل حقوق غير اليهود. مثلاً: انتخاب مجالس المدن والبلدات وحق التمثيل فيها.

استقر بعض التجار اليهود في مدينتي موسكو وسمالنسك، فدخلوا في منافسة مع التجار المسيحيين بأساليب مشروعة وغير مشروعة. وحيث اشتكى تجار موسكو من هذا الوضع، صدر فرمان عام من الحكومة القيصرية يحظّر على اليهود الاتجار خارج روسيا البيضاء. وبعد هذا الفرمان الذي يعتبر الأساس القانوني لمنطقة

الاستيطان، سُمح لمجالس الحاخامات بأن تستثمر وأن تتابع أعمالها بكامل صلاحياتها. لقد شهدت هذه المرحلة قيام روسيا القيصرية بضم بعض الإمارات الإسلامية التابعة لتركيا على ساحل البحر الأسود، وسميت مع مناطق أخرى باسم « روسيا الجديدة».

كان ينظر إلى الجماعات اليهودية باعتبارها عنصراً ريادياً حركياً، وجماعة وظيفية استيطانية يمكن استخدامها في مثل هذه الحال، كما فعل شارلمان قبل ذلك، وكما فعلت القوات المسيحية الأسبانية والنبلاء البولنديون في أوكرانيا، وكما فعل الاستعمار الغربي في فلسطين لاحقاً.

من هذه الخلفية قامت الحكومة القيصرية الروسية بتشجيع اليهود على الاستيطان في المناطق الجديدة باللجوء إلى طريقة الطرد والجذب، فضاعفت الضريبة المفروضة على التجار اليهود في الإمبراطورية، بينما أعفت المستوطنين في روسيا الجديدة من الضرائب كافة. واستُثني من ذلك اليهود القرّاؤون.

وبعدما تفاقمت مشكلة السُكر بين الفلاحين، وحيث ساعدت المجاعة التي وقعت في العام ١٧٩٨ على تعميق المشكلة، اتُهم اليهود بأنهم كانوا السبب المباشر في ذلك، إذ إن أغلبية صانعي الخمر وبائعيها كانوا من اليهود، كما أنهم هم الذين كانوا يديرون معظم الحانات. وفي واقع الأمر لم يكن اليهود السبب الحقيقي لإدمان الفلاحين الروس المشروبات الكحولية. غير أن هذا الوضع أدى إلى تشكيل لجنة لبحث

المسألة اليهودية في روسيا برئاسة الشاعر السناتور جافريل ديرجافين (١٧٤٣-١٨١٦م) الذي رأى أن اليهود يستغلّون الفلاحين الروس، وأن عزلتهم الطبقية والحضارية هي سبب العداء ضدهم، وعلى هذه الخلفية طالب ديرجافين بترويس اليهود ولو استدعى ذلك استخدام القوة، كما طالب بتغيير بنائهم الاقتصادي والوظيفي لتسهيل استيعابهم كيهود نافعين في المجتمع الروسي. ووضع لذلك الأسس والإجراءات التي على الحكومة القيصرية أن تتخذها لحل المسألة اليهودية.

المسألة اليهودية في عهد ألكسندر الأول (١٨٠١-١٨٢٥)

بعد اعتلاء الكسندر الأول العرش في روسيا القيصرية شُكّل مجلس دُعي بـ«مجلس الشؤون اليهودية» الذي أصدر قراره بشأن اليهود والذي عُرف بـ«قانون اليهود الأساسي» أو «دستور اليهود»، وجاء ضمن هذا القرار أن اليهود يجب نقلهم إلى خارج المناطق الزراعية بين عامي ١٨٠٧-١٨٠٨. كما أوصى القرار بضرورة إبعادهم عن استئجار الحانات أو استثمار الأراضي الزراعية بهدف الربح. ولتنفيذ هذا المخطط وُضعت تحت تصرفهم بعض أراضي القيصر وأعفي المزارعون اليهود من الضرائب مدة تراوح بين خمسة وعشرة أعوام، كما أنهم لم يصنّفوا أقناناً مرتبطين بالأرض، بل احتفظوا بحقوقهم في حرية الحركة والسكن.

وقدمت الحكومة القيصرية العون للمصانع التي تقوم باستئجار العمال والحرفيين من أعضاء الجماعة اليهودية وسمح لليهود العاملين

بالصناعة أن يستقرّوا داخل روسيا، بما في ذلك في مدينتي موسكو وسان بطرسبرغ. كما حدّ القانون الأساسي من سلطة الحاخامات وأصبح تنظيم الأمور الدينية والعادات من اختصاص الحاخامات الذين كان يتم اختيارهم دون الرجوع إلى (القهّال)، وهو مجلس البلدة أو المدينة، ولم تتجاوز صلاحيات (القهّال)، في القانون الأساسي تحديد الضرائب وجمعها وإحصاء عدد السكان اليهود.

وتقرر ألا يوجد إلا (قهّال) واحد في كل مدينة، كما سمح لكل فرقة دينية بأن يكون لها معبدها اليهودي وحاخامها الخاص، الأمر الذي أدى إلى تحسين وضع اليهود الحسيديين. وفتحت في ضوء القانون الأساسي المدارس الحكومية العلمانية أمام أبناء الجماعة اليهودية. وتقرر، أنه ما لم يرسل اليهود أولادهم، فإنه سيتم فتح مدارس يهودية علمانية خاصة على حساب أعضاء الجماعة اليهودية.

وأصبح من شروط شغل وظيفة حاخام أو عضوية مجلس إدارة (القهال) أو البلدية، معرفة الألمانية أو الروسية أو البولندية. كما تقرر أن يكتب أعضاء الجماعة اليهودية جميع وثائقهم وأوراقهم التجارية بإحدى اللغات الثلاث، دون العبرية أو اليديشية. وأكد القانون حق اشتراك اليهود في الانتخابات الخاصة بالحكومات المحلية ومنع ارتداء الأزياء اليهودية التقليدية وقصّ الشعر على الطريقة اليهودية، وترك السوالف، وأصبح توجيه تهمة الدم جريمة يعاقب عليها القانون (١٨١٨). وكانت استجابة الجماعة اليهودية لهذا القانون سلبية

جداً، وصاموا حداداً على صدور تلك القرارات، واقترحت بعض (القهّالات) تأجيل الإصلاحات إلى فترة تراوح ما بين خمسة عشر وعشرين عاماً.

أين استوطن اليهود في روسيا؟

شغلت منطقة الاستيطان اليهودي منطقة كبيرة في روسيا الجديدة، امتدت من ليتوانيا وبحر البلطيق في الشمال، إلى البحر الأسود في الجنوب، ومن بولندا وبيسارين في الغرب إلى روسيا البيضاء وأوكرانيا في الشرق، وتضم خمساً وعشرين مقاطعة تشكل مساحة قدرها مليون كلم٢. أي ما يساوي مساحة فرنسا تقريباً.

وكان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون نحو ١١,٦ ٪ من سكان منطقة الاستيطان عام ١٨٩٧ وبلغ عددهم ٤,٨٩٩,٤٢٧ نسمة من مجموع يهود روسيا البالغ عددهم ٥,٠٥٤,٣٠٠ نسمة، وأغلبهم كان يتحدث اليديشية.

وكانت جغرافية الاستيطان اليهودي في روسيا القيصرية تتكون من ثلاث مناطق تختلف بعضها عن بعض: (القهّال: مؤسسات لإدارة شؤون الجماعات اليهودية الدينية والدنيوية).

١- منطقة ليتوانيا وبيلوروسيا أو روسيا البيضاء: وتضم غرودنو، منسك، وفلنا، وفايتبسك، وكوفنو، وموجيليف.

٢- منطقة أوكرانيا: وتضم: فولينيا، وبودوليا، ومقاطعة كييف (ما عدا كييف المدينة) وتشرينجوف وبولتاف.

٣- منطقة روسيا الجديدة: وتضم خرسون (ما عدا مدينة نيقلاييف) وإيكاتيرينو سلاف، وتاويدا (القرم) وبيسابيا، التي تضم أوديسا، أهم مدن اليهود على البحر الأسود.

وقد قررت الحكومة القيصرية عام ١٨٤٣م، لاعتبارات أمنية، عدم السماح لأعضاء الجماعة اليهودية بالسكن على مسافة نحو ٣٣ ميلاً من حدود منطقة الاستيطان. وحسب القانون الصادر لتنظيم منطقة الاستيطان، لم يسمح لليهود بالانتقال خارجها، ولم يسمح لهم بالدخول إلى وسط روسيا إلا مدة ستة أسابيع للقيام بأعمال محددة، على أن يرتدوا الأزياء الروسية. وكان متاح لتجار الفئة الأولى أن يمكثوا مدة ستة أشهر. كما كان مسموحاً لتجار الدرجة الثانية أن يمكثوا ثلاثة أشهر. ومع حكم ألكسندر الثاني، بدأت الحكومة القيصرية تخفيف القيود عن بعض المجموعات اليهودية النافعة والمندمجة، وذلك بهدف تحويل أفرادها لكي يشكلوا قطاعاً منتجاً ومندمجاً في المجتمع. فسُمح لتجار الفئة الأولى عام (١٨٥٩) بأن يستوطنوا خارج منطقة الاستيطان، كذلك لخريجي الجامعات عام ١٨٦١ وللحرفيين عام ١٨٦٥ وللمثقفين بالطب عام ١٨٧٩. وكان من بين الفئات المسموح لها مغادرة منطقة الاستيطان، الفتيات اليهوديات اللاتي كن يعملن بالبغاء. فكان بوسع الفتاة أن تنتقل إلى موسكو أو أية مدينة أخرى لتمارس هذه الوظيفة وتحقق قدراً من الحراك الاجتماعي والجغرافي دون أن يكون في إمكان أسرتها اللحاق بها.

هناك الكثير من التحولات البنوية التي طرأت على النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي في روسيا القيصرية في عهد ألكسندر الثاني (١٨٥٥م-١٨٨١م)، والتي كان من أبرزها قيام حكومة دستورية، وإلغاء نظام الأقنان، وتحول الكثير من النبلاء الإقطاعيين إلى الزراعة الحديثة والعمل في مجالات التجارة والصناعة.

وقد شهدت روسيا في هذه المرحلة زيادة كبيرة في معدلات التصنيع والتحديث. فمدت سكك الحديد وفتحت أبواب الحراك الاجتماعي أمام الكثيرين. تلك التحولات ساهمت في بروز معالم أزمة النظام القيصري، وبدأت القرى تقذف الملايين من السكان إلى المدن الكبرى ليعيشوا في ظروف اقتصادية أشد وأقسى مما كانت عليه في عهد الإقطاع.

إن التحوّل إلى التراكم الرأسمالي السريع الذي شهدته روسيا في تلك الحقبة، رغم أنه ساهم في عملية التحديث، إلا أنه فاقم من ازدياد إفقار الناس، ما أدى إلى انتشار الحركات الثورية وزيادة الأوتوقراطية من جانب النظام السياسي، وهي الحلقة المفرغة التي أدت في نهاية الأمر إلى الثورة البلشفية. لقد فتحت في تلك الظروف أبواب الحراك الاجتماعي والاقتصادي أمام أعضاء الجماعة اليهودية وغيرهم من القطاعات والأقليات في المجتمع، وربطت عملية إعتاق اليهود بمدى تحولهم إلى عنصر اقتصادي منتج ونافع. ولتشجيع أفراد هذه الجماعة على تقبل التحديث والترويس، قامت الحكومة بتوسيع نطاق حقوق

اليهود، خصوصاً حق السكن في روسيا بأكملها، وتحديداً بالنسبة إلى التجار الأثرياء وخريجي الجامعات والجنود المسرّحين والحرفيين والأطباء منهم.

وفي العام ١٨٥٦ أُلغيت القوانين الخاصة بتجنيد اليهود، كما أُلغيت العقوبات الخاصة الي كانت تُفرض عليهم، وتمت مساواتهم ببقية الشعب الروسي. وفي العام ١٨٧٤ اعتُمد نظام التجنيد الإجباري العام مدة أربع سنوات، ولم يعد مقتصراً على الفقراء، وانضم آلاف الشباب اليهود إلى الجيش، ومنحوا حقوقاً ومزايا عدة، منها تخفيض مدة خدمة المجندين الذين أنهوا دراستهم من أربع سنوات إلى سنة واحدة.

وفي العام ١٨٧٣ أُغلقت المدارس اليهودية الحكومية بعد فشل تجربة (أوفاروف) ما عدا مائة مدرسة. وفتحت المدارس الحكومية العادية أمام أبناء الجماعة اليهودية. واعتبرت هذه الطريقة الأسلوب الأنجح لعملية الترويس، فارتفع عدد التلامذة اليهود الذين التحقوا بهذه المدارس، كما فتحت الجامعات أبوابها لهم، وزاد عدد الطلبة اليهود في الجامعات بين عامي ١٨٥٣ و١٨٧٢ من ١,٢٥٪ إلى ١٣,٢٪ من مجموع الطلبة.

في ضوء ذلك، نشأ إحساس عام لدى يهود روسيا بأن الحكومة تأخذ مسالة إدماجهم بجدية عالية، فاشتركوا في الحياة الروسية العامة. وظهر في بيئتهم فكر حركة التنوير الذي كان من أقطابه، ليغسون

ومابو ويهوداليب جوردون. وظهر أدب يديشي، ومن أعلامه منديل موخيرسفاريم وغيره، وظهرت مطبوعات يهودية بالعبرية واليديشية والروسية. كما ظهر بينهم عازفون موسيقيون، ونشأت في أوساطهم طبقة من التجار الأثرياء والمثقفين الداعين إلى الإدماج والترويس. وقد قام كبار الممولين اليهود ببناء الطرق والقلاع والسكك الحديد، وبتزويد الجيش بالمؤن والغذاء، وامتلكوا المناجم وساهموا في تأسيس شبكة المصارف الجديدة في روسيا... وكانت هذه الطبقة تتركز في سانت بطرس برغ وموسكو وأوديسا ووارسوا.

وكان من أقطاب الجماعة اليهودية في موسكو وبطرس برغ وأوديسا، أسرتا جونزبرج وبولياكوف اللتان اعتبرتا نفسيهما قيادة الجماعة اليهودية. وفي هذه المرحلة بالذات انخرط عدد كبير من الشباب اليهودي ضباطاً في الجيش الروسي. لقد تزايد عدد يهود روسيا بسرعة تفوق معدل زيادة السكان الروس الآخرين؛ ففي عام ١٨٢٥ بلغ عددهم ١,٦٠٠,٠٠٠ نسمة أي ٣٪ من مجموع سكان الإمبراطورية و١٢٪ من سكان المناطق التي وجدوا فيها.

وفي العام ١٨٥٠، بلغ عددهم ٢,٣٥٠,٠٠٠، فارتفع في العام ١٨٨٠ ليبلغ عددهم أربعة ملايين، أي إن عددهم زاد بنحو ١٥٠٪ خلال ٥٠ عاماً، ومع هذا تعثّر التحديث في روسيا. وبدلاً من إدماج أعضاء الجماعة اليهودية، تحولت روسيا القيصرية إلى قوة طاردة لهم في الوقت الذي كانت أعدادهم آخذة في التزايد.

لقد أدت عملية تعثّر التحديث، إلى الزيادة في الهجرة الداخلية ليهود روسيا، وكانت وجهتهم من ليتوانيا وروسيا البيضاء إلى جنوب روسيا (روسيا الجديدة). فحتى العام ١٨٤٧، كان ٢,٥٪ من يهود روسيا يعيشون في هذه المنطقة. ومع حلول العام ١٨٩٧ كانت نسبتهم تصل إلى ١٣,٥٪. ولكن بعد العام ١٨٨٠ اختلف نمط هجرة اليهود، إذ اتجهت إلى خارج شرق أوروبا. فبين أعوام (١٨٨١-١٩١٤) هاجر من شرق أوروبا حوالى ٢,٧٥٠,٠٠٠ يهودي، نحو مليونين منهم من روسيا وحدها. بينما كان عدد يهود العالم حسب بعض التقديرات لا يتجاوز العشرة ملايين نسمة. وهذا يعني أن ربع يهود العالم كانوا في حالة هجرة.

ولعل أكبر دليل على تعثّر محاولات الإدماج والتحديث، أن الهرم الوظيفي لأعضاء الجماعة اليهودية، كان ولا يزال بلا تغيير كبير، إذ كان ٣٨٪ من أفراد هذه الجماعة يعملون في التجارة و٣٥٪ منهم يعملون في الحرف والصناعات المرتبطة بها و٣٪ فقط يعملون في الزراعة.

ولذلك كانت عملية اغتيال (القيصر ألكسندر الثاني) عام ١٨٨١ على يد مجموعة من الشباب الروسي الثوري، ومن بينهم فتاة يهودية، تعبيراً عن المشاكل البنيوية العميقة التي يواجهها المجتمع الروسي، وخصوصاً مشكلة التناقض بين البنية الاقتصادية المتطورة، والأشكال السياسية والاجتماعية المتكلسة، ما استدعى تشكيل لجنة لإعادة النظر في المسألة اليهودية، أعلنت فشل سياسة التسامح، أي فشل

عملية التحديث القيصرية. وعلى إثر ذلك صدرت القوانين التي طرد بموجبها اليهود في موسكو عام ١٨٩١، والتي أدّت إلى طرح المسألة اليهودية على العالم الغربي بأسره، إذ بدا أن روسيا بدأت تصدر فائضها اليهودي إلى الجميع.

اليهود في روسيا من حقبة ألكسندر الثالث (١٨٨١-١٨٩٤) حتى الثورة البلشفية سنة ١٩١٧

مع اعتلاء ألكسندر الثالث الحكم (١٨٨١-١٨٩٤)، ازدادت عوامل التشدد والأوتوقراطية، وكان القيصر نفسه قد تلقى تعليماً دينياً تقليدياً، وظهر العديد من المفكرين الذين طالبوا في عهده بوضع حدود صارمة على الشعب الروسي والحد من حرياته مثل كاتكوف وليونتييف؛ فحسب رأيهم أن روسيا قد نمت وتطورت مع نمو التعاون بين الطبقات في المجتمع الروسي. ومع تأسيس نظام الأقنان وتطور الوظائف التي تشغل بالوراثة سيطرت تلك الروح الرجعية على مختلف مجالات الحياة في روسيا، حيث أُعيدت التشريعات التي تحدد التعليم على أساس طبقي، وأصبح من غير المتيسر على أبناء الطبقات الفقيرة أن يلتحقوا بالمدارس.

وعُيّن بدل القضاة في الأرياف، رؤساء قرويون من طبقة النبلاء يقومون بإصدار الأحكام وتنفيذها، وتم تقييد حركة الصحافة، وطرد

أعضاء الجماعات المسيحية التي لا تدين بالأرثوذكسية. وكانوا يُمنعون من ممارسة شعائرهم الدينية، كما كان يتم خطف أطفالهم منهم.

المضايقات والقيود المشددة فرضت أيضاً على مختلف الجماعات غير الروسية السلافية وغير السلافية.

وهكذا انتهى عهد القيصر ألكسندر الثالث بمجاعة وقعت عام ١٨٩١ م، ما زاد من بؤس الناس وفقرهم. بالطبع لم يسلم أعضاء الجماعة اليهودية من قسوة سلطان ألكسندر الثالث، الذي بدأ عهده بتنظيم الهجمات على مراكز اليهود السكنية، استمرت حوالى ثلاثة أعوام، وتأثر بها نحو ٦٠ ألف يهودي. وقد وقعت الهجمات بعد أن قامت بعض الصحف الروسية الرسمية بحملة تعبئة ضد اليهود باعتبارهم مستغلي الفلاحين الروس. وتطورت إجراءات السلطات القيصرية، وصولاً إلى طرد اليهود من موسكو عام ١٨٩١، وتحديد عددهم في المدارس، ما أدى إلى سفر أعداد متزايدة من الشباب اليهود إلى الخارج حيث تم تسييسهم وتثويرهم.

لم يتغير الوضع كثيراً في عهد القيصر نيقولا الثاني (١٨٩٤-١٩١٨) آخر قياصرة آل رومانوف. لقد شهدت روسيا في تلك المرحلة تصاعداً في تطور الصناعة الرأسمالية والتصنيع، وبالتالي مضاعفة عدد أعضاء الطبقة العاملة، دون أن يواكبها أي تحديث في النظام. لقد زاد إنتاج الفولاذ والبترول ثلاثة أضعاف. وزاد طول السكك الحديد من

٢٨ ألفاً إلى ٤٩ ألف فرسخ. ورغم السياسة التي اتبعتها الحكومة التي هدفت إلى تقليل فرص التعليم أمام أبناء الفقراء، زاد عدد الطلبة في المدارس وقلّت نسبة الأمية. ففي بلد كانت الأمية فيه كاملة تقريباً في بداية القرن، وصل عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة عام ١٨٩٧ إلى ٢٧,٨٪، وزاد حجم الطبقة العاملة، فكان الناس بالألوف يهجرون القرى ويلتحقون بالطبقة العاملة الحضرية.

لقد كان من نتيجة تلك التطورات وكرد فعل عليها، أن ازدادت النزاعات القومية السلافية الروسية، وكذلك قمع الأقليات والشعوب التابعة، وخصوصاً الشعوب غير السلافية، فتم قمع الأوكرانيين والبولنديين والمسلمين في الإمارات الإسلامية، وكذلك تم قمع أعضاء الجماعة اليهودية. ومن أشهر الأحداث التي شهدتها تلك الفترة حادث يوم (الأحد الأسود) في ٩ كانون الثاني/ يناير عام ١٩٠٥ حين سار مائتا ألف عامل من الرجال والنساء والأطفال يقودهم الأب (جابون) إلى القصر الشتوي في سانت بطرس برغ ليقدموا شكواهم إلى أبيهم القيصر، فكان أن انهالت عليهم رصاصات حرس القيصر فحصدت نحو سبعين منهم وجرحت ما يزيد على الألف.

وكرد فعل على هذه المجزرة، شهد شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٩٠٥ إضراباً عاماً شل الحياة تماماً، ما اضطر القيصر على إثر ذلك إلى منح الشعب الحريات البرلمانية بعد هزيمة القوات الروسية أمام اليابان. غير أنه راح يراوغ ويماطل ويعدل القوانين إلى

أن تم تعديلها بشكل جعلها تفقد الكثير من فاعليتها. وظهرت في هذه الأثناء جماعات إرهابية مثل جماعة (المائة السود) التي اغتالت زعماء المعارضة وهاجمت تجمعات اليهود. وقد بلغ النظام القيصري نهايته مع ظهور راسبوتين (١٨٧٢-١٩١٦) وسيطرته على زوجة القيصر ثم على القيصر نفسه في العام ١٩٠٥. كان راسبوتين الذي جاء من صفوف الفلاحين كما يروي سكرتيره اليهودي (أرون سيمانوفتش) شخصية كاريزمية، يتلذذ بإذلال أعضاء الطبقة الأرستقراطية وخصوصاً النساء، لا يساعد منهم إلا من يجذبه أو يدفع له الثمن.

اغتيل راسبوتين في العام ١٩١٦ بعد أن كان قد هزّ النخبة القيصرية من جذورها وتصفية عناصر كثيرة منها.

كان يهود روسيا جزءاً أساسياً من هذه العملية ضد الحكومة القيصرية ونبلائها التي لجأت إلى ارتكاب مذبحة كيشينيف في العام ١٩٠٣ بتحريض من وزير الداخلية آنذاك (فون بليفيه)، وأعقبتها هجرات متتالية لليهود من روسيا، تماماً كما حصل في عهود قيصرية سابقة. فخلال الأعوام (١٨٨٠-١٩٢٨) هاجر من روسيا ٥٠٠٠ يهودي إلى أستراليا و٧٠,٠٠٠ يهودي إلى كندا و٢٤٠,٠٠٠ إلى أوروبا و٤٥,٠٠٠ إلى فلسطين و٤٥,٠٠٠ إلى جنوب أفريقيا و١١١,٠٠٠ إلى أميركا اللاتينية و ١,٧٤٩,٠٠٠ إلى الولايات المتحدة الأميركية.

المصدر: «jewish emyration from Russia (1880-1928)»

اليهود في روسيا السوفياتية، من ١٩١٧ إلى الحرب العالمية الثانية

بعد ثورة البلاشفة في العام ١٩١٧ انتقلت روسيا من العهد القيصري إلى العهد السوفياتي الاشتراكي بزعامة فلاديمير إيلتش لينين. ثم توسعت الدولة السوفياتية التي حملت اسم الاتحاد السوفياتي، وبلغت شكلها النهائي في العام ١٩٢٠.

وكان من نتيجة ذلك، أن عدداً كبيراً من اليهود الذين كانوا يعيشون داخل مناطق تابعة لدول حصلت على استقلالها مثل: بولندا، وليتوانيا، ولاتفيا، وأستونيا و(بيساربيا) التي ضمت إلى رومانيا، أصبحوا تابعين لهذه الدول ولم يبق في داخل الاتحاد السوفياتي سوى ٢,٦٨٩,٠٠٠ يهودي من أصل ما يزيد على خمسة ملايين كانوا يعيشون في روسيا قبل الحرب. ثم ارتفع عددهم إلى أكثر من ثلاثة ملايين يهودي عشية الحرب العالمية الثانية.

إن من أولى الخطوات التي اتخذتها الحكومة البلشفية، هي إعتاق اليهود وإعطاؤهم حقوقهم السياسية كافة، شأنهم في ذلك شأن أي مواطن روسي من أي عرق أو دين آخر. وأصبحت معاداة اليهود حسب تشريعات سلطة البلاشفة جريمة تصل عقوبتها إلى الإعدام. واعتمدت الحكومة البلشفية سياسة أحوال شخصية جديدة، حيث أعطت لكل فرد الحق في اختيار العرق الذي ينتمي إليه، كما تم الاستناد في تحديد الانتماء القومي إلى اللغة التي يحدد الفرد أنها لغته القومية. ولم تُعر الحكومة البلشفية أي

أهمية خاصة للمسألة اليهودية؛ فلينين، ومن بعده ستالين، تأثّرا بتجربة كارل ماركس الألمانية وبطرحه الأممي للمسألة اليهودية، حيث رأى، أي لينين، أن ثمة ظاهرة يهودية عالمية واحدة، وأن ثمة حلاً واحداً لها، هو الثورة الاجتماعية وإدماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها. هذا الحل الذي طرحه ماركس وكاوتسكي وباور ليهود ألمانيا، تبناه لينين لاحقاً لحل المسألة اليهودية في روسيا مع بعض التعديلات التي تناسب الظروف الروسية، فنادى لينين قائلاً: بأن لا أساس لوجود أمة يهودية مستقلة، وأن «شعار الثقافة اليهودية هو شعار الحاخامات والبرجوازية، شعار أعدائنا»، وأن القضية هي قضية انعزال واندماج وثورة اجتماعية. أما ستالين فطرح تعريفه الشهير للأمة قائلاً «إن اليهود أمة على ورق»، من ذلك يلاحظ أن لينين وستالين يستخدمان مصطلح «أمة» بالمعنى العام للكلمة تماماً كما فعل ماركس.

اليهود يندمجون في ثورة البلاشفة

في الأشهر الأولى للثورة البلشفية في روسيا، اندلعت حرب أهلية في مناطق عدة، وكان من أهمها الحرب التي اندلعت في منطقة أوكرانيا الحدودية التي كانت تحارب فيها عدة جيوش من بينها الجيش الأوكراني القومي تحت قيادة بتليورا وعصابات الفلاحين التابعين له والجيش الأحمر الذي يضم وحدات أوكرانية، وجيوش صغيرة وقوات أخرى. لجأت القوات السوفياتية إلى استخدام العنف ضد الفلاحين، خصوصاً وأن سياسة مصادرة الحبوب أدت إلى تمرد العناصر الفلاحية

الأوكرانية التي رأت أن أعضاء الجماعة اليهودية عناصر مقترنة بالنظام السوفياتي الجديد وبالسلطة الحاكمة، فهاجمتهم كما هاجمتهم قوات بتليورا. كل ذلك أدى إلى التفاف اليهود حول الثورة حيث حلت الكثير من التنظيمات اليهودية الاشتراكية نفسها وانضمت إلى الثورة، في حين تعاون الزعيم الصهيوني جابوتنسكي مع بتليورا وقواته. وانضم الشباب اليهود في أوكرانيا وغيرها من المناطق إلى الجيش الأحمر الذي أسسه ليون تروتسكي وكان من قادته البارزين زينوفيف وسفردلوف. وفي عام ١٩٢٦، كان عدد الضباط اليهود ٤,٤٪ من مجموع ضباط الجيش الأحمر. ولعبت كوادر يهودية دوراً مهماً في إعادة بناء الهيكل الإداري للدولة الجديدة بعد أن هاجرت أعداد كثيرة من المثقفين والموظفين الروس البيض إلى الخارج.

اليهود الروس في الحقبة السوفياتية، من الحرب العالمية الثانية إلى العهود البوتنية

في الفترة الممتدة من العام ١٩٣٩ إلى العام ١٩٤٠ ضمت أراضي روسيا أعداداً كبيرة من اليهود (جاليشيا الشرقية، لتوانيا، بيساريبا وبوكوفينا وغيرها). وقد رحبت الجماهير اليهودية بالضم السوفياتي، إذ وجدت فيه حماية لها من الغزو النازي. ولكن مع حلول العام ١٩٤١، قامت القوات النازية بطرد الاتحاد السوفياتي من أراضٍ كان قد ضمّها من قبل، فنزح ما يزيد على مليون يهودي منها. وقد

ساهم ذلك في اقتلاع اليهود من مناطق تجمّعهم الأصليّة. واليهود الذين وقعوا في قبضة النازيين تمت إبادتهم باعتبارهم (يهود شرق أوروبا)، كما تمت إبادة أعضاء بعض الجماعات والإثنيات الأخرى. وتشير العديد من المعطيات إلى أن الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية قد أظهرت، في العهد الستاليني، نبرة عنصرية ضد اليهود. وعلى الرغم من ذلك، فإن عملية الإدماج والترويس تطورت إلى عملية اندماج طوعية. وعاش أعضاء الجماعة اليهودية باستقرار حيث تمركز العدد الأكبر منهم في المدن الكبرى، وتقلّص عدد المشتغلين منهم بالزراعة، حتى أنّ من أقاموا منهم في الريف كانت أعمالهم تجارية أكثر منها زراعية. إلى ذلك لعب اليهود دوراً متميزاً في المؤسسات التجارية السوفياتية، وقد بلغ عدد الجماعة العاملين منهم في التجارة الحرة في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي نحو نصف مليون فرد من مجموع عدد العاملين السوفيات في هذا المجال الذي لامس عددهم في تلك الفترة نحو خمسة ملايين.

وقد قامت الحكومة السوفياتية في مطلع ستينيات القرن الماضي بحملة ضد النشاطات الاقتصادية غير المشروعة التي كان يقوم بها أفراد من الجماعة اليهودية وغير اليهودية، وسنت قانوناً عاقبت بموجبه مرتكبي الجرائم الاقتصادية بالإعدام، وتم تنفيذ هذه العقوبة بحق عدد من المتهمين بلغ ١١٢ تاجراً من تجار السوق السوداء كان نصفهم من اليهود.

لقد شهدت روسيا منذ أواسط خمسينيات القرن الماضي

والسنوات التي تلتها، ارتفاعاً كبيراً في عدد طلاب الجماعات اليهودية بالمعاهد والجامعات، ما أدى إلى زيادة ملحوظة في عدد اليهود المشتغلين بالمهن الحرة. وبصورة عامة، تمتع يهود الاتحاد السوفياتي بأعلى مستوى تعليمي مقارنة بسائر القوميات السوفياتية. ففي جمهورية روسيا الاتحادية، على سبيل المثال، تلقى ٣٤٤ يهودياً تعليماً عالياً من بين كل ألف يهودي، مقابل ٤٣ فقط بين الروس. وتشير إحصاءات العام ١٩٥٩ إلى أن نسبة اليهود الحاصلين على ٧ سنوات من التعليم وأكثر هي ٦١٣ لكل ألف شخص، وهي نسبة فاقت مثيلاتها بين القوميات الأخرى. ونسبة اليهود الحاصلين على شهادات التعليم العالي بلغت نحو ١٧٩ لكل ألف شخص بلغ من العمر فوق عشر سنوات، وزادت هذه النسبة إلى ٢٢٩ في العام ١٩٧٠ مقارنةً بنحو ٦٢ شخصاً لكل ألف شخص على مستوى إجمالي السكان السوفيات.

وخلال الحرب العالمية الثانية شغلت نسبة عالية من أفراد الجماعات اليهودية مناصب عليا في قيادة الجيش السوفياتي، ولكن خلال أعوام ١٩٤٨-١٩٥٣ أحيل ٣٣٣ من القيادات اليهودية العليا على التقاعد. وفي العام ١٩٣١ لم يتبق يهودي واحد في صفوف كبار ضباط الجيش السوفياتي. وتشير مختلف المراجع إلى أن بعض المهن مثل الجيش والأجهزة الأمنية والخارجية وغيرها كانت مغلقة تقريباً أمام اليهود بعد ذلك التاريخ.

وتجدر الإشارة إلى أن ٧٥٪ من العاملين اليهود حاصلون على

تعليم عال، ويتجهون إلى العمل في المهن العلمية الحرة مثل الهندسة والطب والعلوم.

وفي العام ١٩٦٤ شكّل عدد الأطباء اليهود ١٧,٧ ٪ من إجمالي أطباء الاتحاد السوفياتي، و٨,٥ ٪ من إجمالي الكتّاب والصحفيين، و١٩٪ من الموسيقيين و١١٪ من العاملين في مجالات البحث العلمي.

وفي مطلع الثمانينيات انخفضت هذه النسبة إلى ٣,٤ ٪ من العاملين في الطب، و٦٪ من مجموع العاملين في مجال الفن والثقافة والأدب والصحافة.. و٦ ٪ في مجال القانون و٧,٦ ٪ من إجمالي العلماء الحاصلين على درجات علمية عليا. وتعود أسباب هذا الانخفاض إلى هجرة اليهود خصوصاً من جيل الشباب إلى الخارج، وارتفاع متوسط أعمار السكان اليهود الذي ترتب عليه تقلص في عدد من هم في سنّ تخوّلهم الالتحاق بالجامعات.

وحسب إحصاءات العام ١٩٧٦، بلغ عدد الأعضاء اليهود في الحزب الشيوعي السوفياتي نحو ٢٨٠ ألفاً من مجموع أعضاء الحزب البالغ في تلك الفترة نحو ١٤ مليون عضو، وبذلك يمثل اليهود سادس جماعة قومية ممثلة في الحزب في ذلك الحين.

هجرة اليهود الروس من الاتحاد السوفياتي

وفقاً لإحصاءات رسمية روسية، فقد بلغ عدد المهاجرين اليهود الروس إلى فلسطين المحتلة قبل وبعد تفكك الاتحاد السوفياتي، ٨٠٠

ألف يهودي بالإضافة إلى حوالى ٣٠٠ ألف ممن يعتبرون أنفسهم يهوداً. ولكن المؤسسة الدينية اليهودية الأرثوذكسية في «إسرائيل» لا تعترف بيهوديتهم، حتى أن بعضاً منهم مسيحيون أو حتى مسلمون. بينما هاجر إلى الولايات المتحدة ٣٠٠ ألف وإلى ألمانيا ١٠٠ ألف وإلى كندا ٢٥ ألفاً ويعيش الآن في روسيا وفي دول الاتحاد السوفياتي سابقاً حوالى ٣٩٥ ألفاً، هذا عدا اليهود الذين يتخفون خلف قوميات روسية أخرى وهم كثر. وبلغ عدد اليهود الروس الذين يعيشون في منطقة الحكم الذاتي اليهودي في أقصى شرق روسيا ١,٢٢ ٪ من عدد السكان الإجمالي لهذه المنطقة والبالغ عددهم ٢,٣٢٧,٠٠٠ نسمة حتى العام ٢٠٠٢.

يتخذ المستوطنون الروس الذين هاجروا إلى فلسطين المحتلة في نهاية الثمانينيات وبداية التعسينيات من القرن الماضي مواقف معادية جداً للعرب، وهم يحتلون المواقف اليمينية المتطرفة في السياسة عموماً مع أنهم يحافظون جداً على تميّزهم من بقية اليهود الإسرائيليين، ويتمسكون بثقافتهم الروسية القديمة ويستخفّون إلى حد كبير بالثقافة الإسرائيلية وينعتونها بالتخلف لا بل لا يعترفون بوجودها.

البروفسور ماجد الحاج وهو أول باحث عربي يهتم بمتابعة قضايا غير عربية في «إسرائيل»، أجرى بحثاً عن اليهود من أصول روسية في العام ١٩٩٩ مع البروفسور إيلي لشيم في جامعة حيفا، واستكمله عام

٢٠٠٢ مع د. أولغا بجنو في الجامعة نفسها، وهو بحث مقارن يقول الحاج فيه «إنه تحد علمي، يجعلك أكثر انفتاحاً على الآخر وأكثر تأثيراً فيه أيضاً». ويعرب الحاج في بحثه هذا عن اقتناعه بأن الدور الروسي سيتعاظم في «إسرائيل» في المستقبل، وأنّ «اليهود الروس سيزيدون من قوة تأثيرهم أكثر فأكثر».

ومن يتابع الأحداث السياسية في «إسرائيل» يدرك أن نفوذ اليهود الروس فيها يزيد عن حجمهم.

فرئيس الوزراء بنيامين نتنياهو خص سابقاً الروسي أفيغدور ليبرمان بمنصب وزير الخارجية، وهو يشغل حالياً منصب وزير الدفاع. أحد اليهود الروس يزلي أولشتاين، شغل منصب رئيس الكنيست، وهو الآن يتولى وزارة الخارجية، نتان شرانسكي وهو أيضاً من المهاجرين الروس شغل رئيساً للوكالة اليهودية، ونائب وزير الخارجية هو الروسي زئيف ألكين... ومن نتائج بحث البروفسور ماجد الحاج، أن الروس، وعلى الرغم من مرور ما يقارب العقود الثلاثة على هجرتهم إلى فلسطين المحتلة، ما زالوا يستخدمون اللغة الروسية في تخاطبهم في بيوتهم، وأن ما يقارب ٥٤٪ ممن يقرأون الصحف بينهم يقرأون فقط باللغة الروسية. وأن ما يزيد على ٦٦٪ من اليهود الروس يعتبرون أن انتماءهم إلى «إسرائيل» لا يأتي على حساب انتمائهم إلى روسيا، وأنهم ما زالوا يعتبرون أنفسهم روساً.

ويشير بحث البروفسور ماجد الحاج، إلى أنه على الرغم من

انخفاض نسبة المقترعين للأحزاب الروسية، فإن ٥٧٪ منهم ما زالوا يصوتون لهذه الأحزاب (٧٣٪ في الماضي).

وأن طريقة تصويتهم مبنية على التقاليد الروسية القديمة؛ فالروس يبحثون عن القائد القوي أكثر مما يبحثون عن الحزب الديمقراطي. وهم في أكثريتهم الساحقة يعيرون الأهمية الأساسية للشخصية القوية الكاريزماتية.

وحسب الاستطلاع الذي أجراه البروفسور الحاج، فإن اليهود الروس في فلسطين المحتلة قد ازدادوا تطرفاً في مواقفهم من الصراع مع الفلسطينيين ومع العرب، حيث أن ٥٪ فقط من المستطلعين أبدوا استعداداً للتنازل عن هضبة الجولان السورية المحتلة مقابل سلام كامل مع سورية، في حين بلغت نسبة هؤلاء ٢٥٪ في الاستطلاع المشابه الذي أُجري قبل ٢٠ عاماً. و١٣٪ فقط مستعدون للتنازل عن أراضٍ في الضفة الغربية (٣٧٪ قبل ٢٠ عاماً) و١١٪ مستعدون لتقاسم القدس مع الفلسطينيين مقابل (٢٤٪ قبل ٢٠ عاماً).

وتجدر الإشارة في هذا المجال وفقاً لدراسة البروفسور الحاج، إلى أن الاستطلاع الذي طرح الأسئلة نفسها على اليهود غير الروس في «إسرائيل» بيّن أن ٤٣٪ مستعدون للتنازل عن الجولان و٥٨٪ مستعدون للتنازل في الضفة الغربية مقابل التسوية السلمية مع الفلسطنيين والعرب، أي إن اليهود الروس يتخذون مواقف أكثر تطرفاً من الشرائح اليهودية الأخرى في الكيان «الإسرائيلي».

اليهود في العهد البوتيني

ما قدمه الرئيس بوتين ليهود روسيا لم يقدمه أي رئيس روسي أو سوفياتي آخر. ويرتبط الرئيس بوتين بأفضل العلاقات مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، ولا يمكن وصف هذا المستوى من العلاقات إلا بأنها علاقات استراتيجية بامتياز. فمنذ وصول بوتين إلى رأس السلطة في روسيا في العام ٢٠٠٠م، وفي أعقاب زيارته الأولى إلى إسرائيل عام ٢٠٠٥ وصفت صحيفة «لاتريبون جويف» الناطقة باسم الجالية اليهودية في فرنسا الزيارة قائلة: «يبدو أن عصراً جديداً قد بدأ مع صعود بوتين إلى السلطة». إسرائيل لم توافق على العقوبات الدولية على موسكو في أعقاب ضم جزيرة القرم. باعت إسرائيل لروسيا طائرات تجسس بلا طيار. لم تعترض إسرائيل على دخول القوات الروسية إلى سوريا. في المقابل أفادت إسرائيل من دور موسكو عبر إخراج السلاح الكيماوي من سوريا، ومن عدم اعتراضها على الضربات الجوية الإسرائيلية لمواقع تابعة لحزب الله في سوريا وقوافل نقل الأسلحة والصواريخ. بلغ التعاون العسكري بين روسيا وإسرائيل إلى حد القيام بتدريبات ومناورات مشتركة، وكذلك في التصنيع العسكري. وبلغ حجم التبادل التجاري حتى العام ٢٠١٤، أربعة مليارات دولار أميركي. وأمام مؤتمر حاخامات أوروبا في تموز ٢٠١٤ الذي حضره بوتين قال: «أعزائي الحاخامات إني ألتزم أمامكم بمحاربة حازمة لأي تعبير لا سامي على أرض روسيا، وألتزم

أيضاً بتدعيم أمن الجاليات اليهودية ومنحها كامل حرية التصرف، وأن روسيا ستواصل رفضها الحازم للنازية الجديدة والأيديولوجيات الفاشية مهما كانت».

قالت « لاتريبون جويف»، غالباً ما يتحدث قادة الجالية اليهودية في روسيا عن عمق معارف بوتين بالديانة والأعياد اليهودية وتقديره لها وإعجابه بها. وتذكر الصحيفة أنه حين التقى بوتين نتنياهو في باريس في العام ٢٠١٤ في مناسبة مؤتمر المناخ، هنأه بحلول عيد (هانوكاه) اليهودي ووصفه بأنه عيد انتصار النور على الظلام، أي تماماً ما يؤمن به اليهود. من هذه الخلفية لعلاقة بوتين باليهودية واليهود بروسيا، أقدم على منح الحاخام الروسي الكبير Berl lazare وسام الرئيس وهو أرفع وسام روسي.

في كانون الأول من العام ٢٠١٥ تم افتتاح مجمع يهودي في موسكو يضم كنيساً يتسع لـ٢٥٠ شخصاً، وبتوجيه من الرئيس بوتين يتم إلزام المدارس الرسمية الروسية بزيارة المركز اليهودي لتعلم تاريخ اليهود.

في ١٩ كانون الثاني من العام ٢٠١٥ التقى بوتين في موسكو رئيس المؤتمر اليهودي الأوروبي، حيث عرض هذا الأخير لبوتين ما يتعرض له اليهود في أوروبا من ضغوطات ومضايقات، فكان جواب الرئيس الروسي له: «فليأتوا إلى عندنا، هم هاجروا من روسيا خلال العهد السوفياتي فما عليهم الآن سوى العودة»، وفي كل لقاءاته

بالمسؤولين الإسرائيليين يكرر بوتين على مسامعهم، أن أمن إسرائيل هو أولوية في سياسة روسيا الخارجية.

ويعلق البروفسور ماجد الحاج على نتائج البحث فيقول: «إن الروس صاروا أكثر إسرائيلية وصهيونية مع الزمن، ولكنهم لم يصبحوا أقل روسية، إنهم تبلوروا كمجموعة إثنية في المجتمع الإسرائيلي واتخذوا مواقع راسخة في صفوف اليمين العلماني».

المراجع:

١- عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»، Jweish encyclopedia of 1901-1906.

2- Jweish Emigration from Russia1880-1929- (reyoud the pale).

3- Moscow:aciltzenal history.(oxford 2005) bycaroline brooke. page 135.

4- Zsesayznaya perems moselenya year 1926. لغة روسية

5- Zsesayznaya perems moselenya year 1939. بالأحرف

6- Notsyona sastav naselenya russe year 2002. اللاتينية

٧- نظير مجلي ٠٣/٠٩/٢٠١٣- « اليهود الروس في إسرائيل أكثر تطرفاً في السياسة وأكثر التصاقاً بالثقافة الروسية».

الديانة البوذية

النشأة والانتشار

على الرغم من أن البوذية لم تُنشئ أية حركة تبشيرية، إلا أن تعاليم بوذا انتشرت في طول الأرض وعرضها، وفي شبه القارة الهندية على وجه الخصوص، ومن هناك عبرت إلى آسيا. وفي كل حضارة وصلتها عدّلت البوذية الطرائق والأساليب لتلائم العقلية المحلية دون التنازل عن النقط الجوهرية الخاصة بالحكمة والشفقة. ولكن البوذية لم تصنع قطّ هرماً شاملاً للسلطة الدينية برئاسة عليا، بل إنّ كل دولة وصلت إليها البوذية طوّرت نُظمها وبُنيتها الدينية ورئاستها الروحية الخاصة بها.

وإحدى هذه السلطات المعروفة جداً، وهي التي تحظى باحترام دولي، هي قداسة الدالاي لاما في التيبت.

لقد انتشرت البوذية في روسيا إثر الغزو المغولي لأراضيها، واستقر أتباع البوذية بين سيبيريا ومنطقة منغوليا الكالميكية قرب بحر قزوين في روسيا الأوروبية. ومدينة إليستا، هي عاصمة كالميكيا الروسية في روسيا الأوروبية.

البوذية في روسيا في ثلاث مناطق: بورياتيا، كوفا، وكالميكيا

تعتبر البوذية، هي الديانة الرابعة بعد المسيحية الأرثوذكسية والإسلام واليهودية في روسيا الاتحادية.

وقد دخلت البوذية إلى روسيا من جهة الشرق الآسيوي ومن منغوليا، وقد يتصور بعضهم.. ربما عن عدم دراية - أن أنصار البوذية مجموعات منعزلة عن بقية سكان روسيا، وأنهم فقط مجموعة من الرهبان حليقي الرؤوس وأصحاب السراويل الصفراء اللون... لكن هذه الصورة تتبدل عندما يُعرف بأن سيرجي شويمو وزير حالات الطوارئ، أي الشخص الذي يخاطر بنفسه ويبادر إلى إنقاذ الآلاف من المتضررين، هو بوذي بسلوكه ومعتقده. ويشير عدد من المعطيات إلى أن البوذية تنتعش في روسيا الاتحادية بعد تفكك الاتحاد السوفياتي. ولها في روسيا ٣٠ معبداً يمارس فيها ١٠٠٠ لاما (كاهن بوذي) الطقوس الدينية... وتظهر المجموعات البوذية في المدن الروسية الكبرى، مثل المدينة الساحلية الشهيرة فلاديفستوك وكراسنايارسك وأومسك... وحرصاً على السلام الاجتماعي، والمصالحة الطائفية، تقوم الحكومة الروسية بإعادة بناء وإعادة إعمار المعابد البوذية التي تعرضت للهدم والتدمير إبان الحقبة السوفياتية...

وتشير الإحصاءات إلى أن عدد البوذيين في روسيا يزيد على المليون نسمة. ولكن بعض التقديرات تشير، في الواقع، إلى أن عدد البوذيين الروس يزيد على هذا الرقم لأنهم يتوزعون وينتشرون في

مناطق عديدة من روسيا وفي الجمهوريات الداخلة في تكوينها في إطار روسيا الاتحادية، جمهوريات: بوراتيا وكالميكيا والطاي وتوما.

إلى ذلك، تنتشر الجاليات والطوائف البوذية في مختلف أماكن روسيا حيث تشير مصاد غير رسمية إلى أن عدد البوذيين في روسيا يصل إلى مليون و٦٠٠ ألف نسمة وفق إحصاء ٢٠١٣.

واللافت أن مدينة سان بطرس بورغ، وهي العاصمة الثانية لروسيا بعد موسكو والتي كانت منطلق التحديث الأوروبي، يوجد فيها أقدم معبد بوذي في كل أوروبا، وقد بني في سنة ١٩١٥، أي قبل سنتين على إقامة الحكم السوفياتي في روسيا، والذي انطلق من سان بطرسبورغ، وهو لا يزال المعبد البوذي حتى يومنا هذا يغص بالمؤمنين البوذيين المقيمين في هذه المدينة وفي ضواحيها.

المصادر

- عبد الكريم السمك، المسلمون في روسيا التاريخ والنشأة.
- فريد شاه أسد الله ، موسكو المسلمة ماضيها وحاضرها.
- محمود الرمزي، تلفيق الأخبار في وقائع قازان وبلقار وملوك التتار المطبوع في قازان عام ١٨٨٥.
- موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، الدرر الثمينة، المطلب السادس والخمسون من الفصل الرابع، وصحيفة الشرق السعودية ٢٠١٢.
- تركستان بين الدب الروسي والتنين الصيني، الإسكندرية ودار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١٩٩٣.
- الطرازي: نصر الله مبشّر، تركستان ماضيها وحاضرها، القاهرة مكتبة الآداب للطباعة والتوزيع والنشر، ط ٢٠١٠.
- طاش عبدالله، **تركستان وأهلها المنسيون**، القاهرة دار الفتح للإعلام العربي، ط. ١٩٩٩.
- حمزاتوف حاجي، أبحاث جديدة للمستعربين السوفييت، موسكو، أكاديمية العلوم السوفياتية، ط ١٩٨٧.

- مراد مراد، صحيفة المستقبل اللبنانية، ١٣ تموز ٢٠١٥.
- بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمه إلى العربية أحمد السعيد سليمان، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٩٦.
- غيورغي رازوفسكي، الثورة في المجتمع السوفياتي، دار تاؤوكا، ط ١٩٨٩.
- سلطان سعيد أحمد، محنة المسلمين في آسيا الوسطى والقوقاز، القاهرة، ط ٢٠٠٥.
- كاشين تشيركاسوف، ما هي الفترة الانتقالية؟ موسكو، دار التقدم، ط١٩٨٨.
- النمر عبد المنعم، إسلام لا شيوعية، القاهرة، دار غريب للطباعة ط١٩٩٧.
- الموقع الرسمي لحكومة تتارستان (الدارخاليكوف).
- دستور تتارستان.
- Tatarstan- Wikipedia
- إسلام أون لاين، تتارستان، الاستقلال أم التعايش.
- موسوعة روسيا اليوم، باشكورستان.
- صفحة باشكورستان في Geonames ID في ١٤ نوفمبر ٢٠١٧.
- www.gks.ru/free-doc/new-site/population/demo/popul 2016.xls

- المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي، ألكسندر بينغسي لوميربية| ترجمة عبد القادر ظللي.
- المسلمون في الاتحاد السوفياتي، تعريب الدكتور إحسان حقي.
- الإسلام والمسلمون في البلاد السوفياتية، ضياء الدين باباخان.
- مسلمو روسيا ومشاريع الاستقلال، المركز العربي للدراسات الإنسانية، القاهرة.
- تاريخ روسيا الحديث والمعاصر، د. رأفت غنيمي الشيخ، محمد رفعت عبد العزيز، وناجي هدهود.
- نبيل عبد الفتاح، العرب من النظام العربي إلى النظام الشرق أوسطي تحت التشكيل، السياسية الدولية، العدد ١١١.
- المسلمون في روسيا، التاريخ والنشأة، عبد الكريم السمك، الألوكة ١٩/ ٩/ ٢٠١٣.
- http://siberiantimes.com/science/athers/news/no464-meet-this-extinet- cave-lion-at-least/10000-years old.
- بوابة روسيا.
- بوابة الاتحاد السوفياتي.
- الموسوعة السوفياتية العظمى.
- http://wev.archive.org/web/20000gz6005925.//www.russianembassy.org/russia/religion.htm.
- الحسابات الاجتماعية الرسمية، ويكيبيديا العربية.

- شبكة الألوكة زيارة ٥٢٤٢، في ١/ ١٠/ ٢٠١٣.
- منتديات، ستار تايمز، مدينة تاريخية (سيبيريا).
- مفكرة الإسلام، مسلمون بين الثلوج... الإسلام في سيبيريا(٣) ١٩-٠٣-٢٠١١.
- **المسيحية في أوروبا**، تقرير حول حجم السكان المسيحيين وتوزعهم في أوروبا.
- روسيا (بالإنكليزية)، كتاب حقائق العلم، وكالة الاستخبارات الأميركية ٩ نيسان ٢٠١١.

http:/wwwllevada.ru/172012-12-/v-rossii-74-pravoslavnykh-i-7-muslmanlevada.

l.i.medvedkoop.cit.pp.246247--

v.marteil,les muslumans sokvetique,seuil,1957,p56

politique international-le revue n107 printemps205

- سرغي ماكيدوف، محاضر زائر في مركز الدراسات الاستراتيجية الدولي.
- برنامج روسيا وآسيا وأوروبا، واشنطن د ي سي.
- موسوعة ويكيبيديا، الإسلام السياسي في روسيا.

المؤلف في سطور

- ولد في بلدة تمنين التحتا – قضاء بعلبك عام ١٩٥٠.
- تلقى دروسه الابتدائية والمتوسطة في مدرسة القرية، وأنهى علومه الثانوية في ثانوية زحلة الرسمية سنة ١٩٦٩-١٩٧٠.
- رئس رابطة طلاب ثانوية زحلة الرسمية للعام الدراسي ١٩٦٩-١٩٧٠، قاد على رأس الرابطة تحركاً مطلبياً حقق لأول مرة في تاريخ لبنان اللامركزية في امتحانات شهادة البكالوريا لكل طلاب لبنان وفي جميع المحافظات.
- يحمل إجازة في العلوم الطبيعية من كلية العلوم في الجامعة اللبنانية عام ١٩٧٤، وشهادة تعليم للمرحلة المتوسطة في العلوم المندمجة من المركز التربوي للبحوث والإنماء، وشهادة من أكاديمية العلوم الاجتماعية في موسكو عام ١٩٨٧.
- تزوج سهيلة غريب ولهما ولدان، مروان ووسيم.
- انخرط في النضالات الطلابية أثناء دراسته الجامعية في

النصف الأول من سبعينيات القرن الماضي في إطار اتحاد طلاب الجامعة اللبنانية واتحاد الشباب الديمقراطي والحزب الشيوعي اللبناني، وتعرض خلال تلك الفترة للاعتقال مرتين في التظاهرات الطلابية خلال عامي ١٩٧٢-١٩٧٣.

- انتسب إلى الحزب الشيوعي اللبناني في العام ١٩٧٠ وشغل فيه مسؤوليات عدة كان آخرها، عضواً في المكتب السياسي، مسؤولاً عن العلاقات الدولية ومنظمات الحزب في الخارج لعدة سنوات إبان الحقبة السوفياتية، ثم سكرتيراً لمحافظة بيروت وساحل المتن الجنوبي حتى العام ١٩٩٣ تاريخ استقالته من قيادة الحزب.
- نائب قائد القوات المشتركة في التصدي للاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ في بيروت والضاحية الجنوبية.
- انخرط في قيادة جبهة المقاومة الوطنية منذ انطلاقتها في ١٦ أيلول عام ١٩٨٢ وما لبث أن تعرض للاعتقال والتعذيب لمدة ثلاثة أشهر(تشرين الثاني ١٩٨٢- أواخر كانون الثاني ١٩٨٣) على يد الأجهزة الأمنية اللبنانية الموالية حينذاك لقوات الاحتلال الإسرائيلي.
- عمل مدرساً لمادة العلوم المندمجة في مدرسة روضة الشهيدين (١٩٧٤-١٩٧٨) وفي عدد من المدارس الخاصة، كما عمل مدرباً تربوياً في قضاء بعبدا (١٩٧٨-١٩٨٣).

- عمل في مجال الصحافة والإعلام، مراسلاً لجريدة النداء اليومية من شباط عام ١٩٨٣ حتى أواسط العام ١٩٨٨، وسكرتيراً للتحرير في مجلة الشاهد الشهرية في أعوام (١٩٩٨-٢٠٠٦)، ومديراً لأخبار إذاعة صوت الشعب في أعوام (١٩٩٩-٢٠٠٦).
- مثّل لبنان في مجلس السلم العالمي وفي منظمة التضامن الآفروآسيوي، وشارك في عدد من المؤتمرات التضامنية مع حركات التحرر في آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية.
- نال وساماً من منظمة التضامن الآفروآسيوي.
- شارك في وفود حزبية إلى عدد من الدول الاشتراكية والعربية والإفريقية والتقى كبار المسؤولين فيها.
- زار منظمات الحزب في الخارج، وأشرف على عدد من مؤتمراتها في مختلف الدول الاشتراكية وأميركا الشمالية وكندا واستراليا.
- عضو جمعية الصداقة اللبنانية الروسية منذ تأسيسها ومنسق الإعلام في هيئتها الإدارية.
- عضو ملتقى التأثير المدني منذ تأسيسه في العام ١٩١٣.
- عضو ملتقى الأديان والثقافات منذ تأسيسه في العام ١٩١٥.
- عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين منذ العام ١٩١٦.

مؤلفاته:

- ربيع العرب، صراع بين الدولتين المدنية والإسلامية. دار الفارابي، ٢٠١٢.
- لبنان- روسيا، صداقة لها جذور (١٨٣٩-٢٠١٢)، إصدار جمعية الصداقة اللبنانية الروسية، ٢٠١٢.
- آل الخليل في لبنان| جذور، أدوار، وأعلام، الدار العربية - ناشرون، ٢٠١٦.

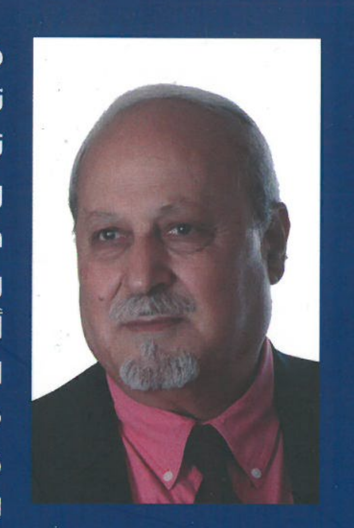
وشارك في إعداد وتحقيق الكتب التالية

- جورج حاوي شهيداً، البدايات، (دار الفارابي ٢٠٠٥).
- جورج حاوي كما يرويه الأصدقاء (دار الفارابي ٢٠٠٥).
- جورج حاوي: حوارات عن الماضي والحاضر والمستقبل (دار الفارابي ٢٠٠٥).

أعدّ وحقق الكتب التالية

- محسن دلّول: السياسة والحكم (رياض الريّس للكتب والنشر ٢٠٠٦).
- محسن دلّول: حوارات ساخنة(رياض الريّس للكتب والنشر ٢٠٠٦).
- محسن دلّول: عهد لحود تحت المحاكمة (رياض الريّس للكتب والنشر ٢٠٠٦).

- محسن دلّول: أميركا إمبراطورية مضطربة (دار الفارابي ٢٠٠٩).
- محسن دلّول: رفيق الحريري -رجال في رجل (الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠٠٩).
- محسن دلّول: كمال جنبلاط - الطريق إلى الوطن (الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١٠).
- محسن دلّول: لبنان إلى أين (رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٧).
- محسن دلّول: العرب إلى أين (الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١١).
- محسن دلّول: العالم إلى أين (الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١٣).
- محسن دلّول: حوارات ساخنة ٢ (الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١٤).
- محسن دلّول: حوارات ساخنة ٣ (الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١٥).
- محسن دلّول: خواطر وعبر (الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١٦).



في خضم ظاهرة (الإسلامافوبية) التي تجتاح العالم منذ أحداث ٢٠٠١/٩/١١ والتي تعاظمت في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، كان لا بد من تسليط الضوء في هذا الكتاب على واقع المسلمين في روسيا الذين يمثّلون الجالية الكبرى في أوروبا خصوصاً والغرب عموماً، وحيث أن القيادة الروسية تتصدر مواجهة هذا الخطر «الإسلاموي» الداهم، وما قد يتركه من أثر في البنية الروسية الداخلية، خصوصاً، لما لروسيا من أهمية في صوغ السياسة والتوازن الدوليين.

والسؤال الكبير الذي يُطرح في ضوء ذلك، هل سـوريا سـتكون بمثابة غروزني أم بمثابة أفغانستان بالنسبة إلى روسيا؟ وما هو حجم التداعيات على علاقات روسيا في المستقبل مع العالم الإسلامي السنّي؟ وما هو حجم التداعيات على الواقع الإسلامي في داخل روسيا وعلى وحدة الاتحاد الروسي نتيجة المواجهة المباشرة التي تقوم بها القوات الروسية في الميدان السوري، وما يكلّفها ذلك من خسائر اقتصادية ومادية خصوصاً إذا ما طال أمد الحرب في ظل الحصار الاقتصادي المضروب من الغرب على روسيا بسبب الوضع في أوكرانيا؟

وهل ثمة مخاوف على مستقبل العلاقات داخل الشعب الروسي الواحد بين المسلمين وغير المسلمين؟ خصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار تاريخ العلاقات التي كانت تتصف دائماً بالتوتر والمجابهة بين الأنظمة الروسية في الحقب المختلفة والمسلمين الروس. وهذا ما سيجري التطرق إليه في بعض فصول هذا الكتاب بهدف التذكير بطبيعة تلك العلاقات تاريخياً. فهل تأخذها القيادة الروسية بالحسبان في زمن تفجّر صراع الهويات؟





ISBN 978-614-432-812-5